A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

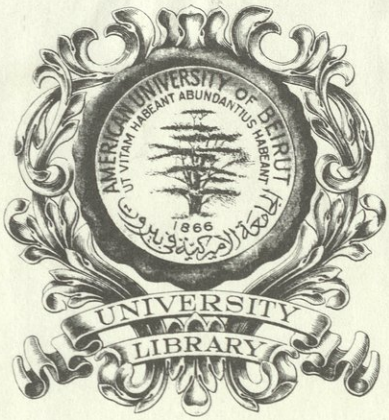

PHILIP HITTI COLLECTION

تقدمة من المؤلف الى معالي العلامة

الدكتور فيليب حتي

Philip K. Hitti

الدكتور

خير بك

١٠ حزيران ٩٤٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

956.9
H243mA
1946
C.1

الدكتور جورج حنا

من الاحتلال ...
الى الاستقلال

لبنان في ربع قرن

...

مقدمة الطبعة الاولى

كانت سنة ١٩٤٠ ، وكان لبنان يغطّ في ديجور من الظلمة . وكانت الظروف الغاشمة تشد بخناق اللبنانيين . وكانت السلطات، بقصد او بغير قصد، تساعد الظروف القاسية الظالمة. وكانت الحوادث العالمية، ونكبات الحرب، والأعيب السياسة والطمع، تقسو على لبنان واهله وموارد رزقه . فقال لي صديق جمعتني بـه حلقة من الرفاق « حبذا لو كان لي قلم اسطر به حالة لبنـــان في العشرين سنة التي عقبت الحرب العالمية الاولى . ان في ذلك خدمة للتاريخ ، وخدمة للقضية الوطنية ، وعبرة للذين يسيطرون على مقدرات الشعوب ، لا سيما الصغيرة منها . »

استهوتني رغبة صديقي . وكانت ساعات الفراغ في هذه السنة موفورة بسبب جمود الاشغال، ووقف دولاب العمل. فبدأت بتدوين ذكرياتي. وكتبت الفصول الثلاثة الاولى من هذا الكتاب. واقفلت عليها في صندوق محكم الاقفال، خوفاً من تسرب شيء من منصوصها الى الخارج، وتجنباً لانتقـــام السلطات التي كانت تحصي على الناس انفاسهم، وتضغط على الافكار والاقوال.

ثم توالت حوادث ١٩٤١ فشهدتهـــا بام عيني . ورأيت من

الضرورة ان اتابع هذه الذكريات . فكتبت الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس . ولكن ابت عليّ القوى الاستعمارية الا ان ازيد على هذا الكتاب ملحقاً . وذلك عندما قصدت هذه القوى العبث بالاستقلال ، والرجوع بالبلاد الى عهد الرجعية المكروه . وعندما اندلعت ثورة تشرين الثاني ١٩٤٣ ، وصفت هذه الثورة الهائجة التي هبت في لبنان ، والتي اعجب بها العالم في الشرق والغرب ، ورسخت استقلال لبنان بالدم المهراق من ابنائه اشباعاً لجشع المستعمرين .

وقد قصدت من هذا الكتاب وصفاً مجملاً لما وقع في لبنان من الحوادث السياسية والاجتماعية ، ولما مثّل في لبنان من الاساليب والمناورات الاستعمارية . ويشهد الله اني لم اقصد من وراء ذلك مجرد التشهير او التنكيل . انما اردت ان يكون الماضي درساً للحاضر وعبرة للمستقبل . فاذا ورد في هذا الكتاب ما من شأنه الاساءة لاحد ، فعذري بذلك حسن القصد . والأعمال بالنيات .

ويحوي هذا الكتاب من الادلة التاريخية ما استطعت ان اتحققه بذاتي طوال ربع قرن مضى . كما انه يحوي من الآراء الاجتماعية والسياسية التي اعتنقتها في مجابهتي حالة البلاد ، وعلاقتها مع الاقطار العربية المجاورة ، وما يوافق مصلحتها ، ويخدم غايتها ، ويتناسب مع الانظمة الجديدة التي يتطور اليها العالم الجديد .

ولا شك في ان القراء سيجدون في كتابي هذا من الآراء ما قد لا يتفق مع آراء بعضهم ، فليتسامحوا لدى قراءتها . والكاتب ، برأيي ، يجب ان يسطر ماتمليه عليه عقيدته ، وليس ما يسترضي به جميع الذين

يقرأونه . وليست المتاجرة بالعقيدة مقابل استرضاء النـــاس من مبدئي . فليكن اذن قرائي منصفين .

واذا توقفت في هذه الطبعة عند حوادث تشرين الثاني ١٩٤٣ ، فاني ساتابع في الطبعة الثانية ذكرياتي للحوادث التي عقبت الثورة ، ولما قد يجري من ذلك التاريخ الى ان تضع الحرب اوزارها ، ويعرف مصير لبنان ومركزه في عائلة الشعوب المستقلة الحرة .

فالى اللقاء . . .

في ٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤ ج . ح

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكد تظهر اول نسخة من الطبعة الاولى، حتى وصلت بمفعول السحر الى المندوبية الفرنسية ، فقامت القيامـــة ، واحتج حضرة المندوب الى الحكومة ، وطلب اليها اتخاذ التدابير بحق المؤلف : وجبنت الحكومة ، ولربما لسياسة عليا ، فسايرت المندوبية ، غير ان الامن العام الفرنسي، الذي بقي يصول ويجول باسم امن الجيش، لم يرضَ بان تترك للسلطات الوطنية مهمة الاجراءات. فاخـذ من صلاحياته وسيلة لارهاب الذين تجرأوا على المسّ من قدسية الانتداب، ولاحق الكاتب ، والناشر ، والطابع ، واوقف عمال المطبعـــة المتهمة بطبع الكتاب ، وحصلت مشادات ، وصلت احياناً الى حد العنف بين الفرنسيين والوطنيين ، ثم انتهى الامر الى اقامة دعوى اجنبية عسكرية على كافة المشتركين بهذه الجريمـة العظمى . واي جريمة افظع من ان ينتقد وطني اعمال الفرنسيين في لبنان ، او ان يرد التهمة التي اتهم بلاده بها الكتّاب الفرنسيون؟ ولكن شاء ربك ان كان في المندوبية رجال ادركوا ان تهور عملهم ، واقدامهم على اعمال مغايرة، ربما اديا الى ما لا يرغبون. فكان ان اسدل الستار عن هذه المأساة موقتـــاً . ثم انتهى الامر عندما تسلمت الحكومة الصلاحيات التي كانت بيد الفرنسيين ، ومنها الجيش وأمنه . الذي

كان اولئك يعملون تحت ستاره . وليس بعلم الكاتب ، ولا بعلم الذين قرأوا الكتاب ، ان فيه تعرضاً للجيوش . ولكن هو قول الذئب « لقد عكرت علي الماء ...»

وفي هذه الفترة ، وبينما كان الفرنسيون يلاحقون كل من تحدثه نفسه من اصحاب الاقلام ، بان يقول كلمة ، او يكتب سطراً عن سياستهم ، وبينما كانت الحكومات الوطنية — دائماً لسياسة عليا !— تسايرهم ، كانت المكاتب ملاءى بالكتب ، تارة من وضع كتّاب فرنسيين ، وتارة من وضع كتّاب محليين مأجورين لهم ، كلها تمجيد للانتداب ولأعماله في لبنان وسوريا ، ولم يخلُ واحد من تلك الكتب ، من طعن او لوم او استهتار بهذه البلاد التي «نعمت» مدة ربع قرن بحكمهم ، وباستئثارهم بالسلطان عليها واستثمارها .

قد لا نكون ملومين اذا عتبنا على الحكومات الوطنية مسايرتها او استضعافها ، ولكن ما لنا ولذلك . ولعلّ السلطات ، بعد الآن ، تقدر ما لحرية الرأي والفكر من اهميـــة في هذا العهد الاستقلالي الجديد ، فتعلم ان الفاشستية قد ماتت ، وان الديموقراطية حقيقة واقعة ، وان الفكر لا يطيق القيود .

اول كانون الثاني سنة ١٩٤٦ ج . ع

الفصل الاول

لبنـان في فرسايل

— ١ —

وراء الاسلاك الشائكة

كنا في القنطرة في خريف سنة ١٩١٨ ، بعد ان عقدت هدنة الحرب العالمية الاولى ، وكنا اطباء لبنانيين ساقتهم الدولة العثمانية الى الخدمة العسكرية، بالرغم من ان امتيـاز لبنان يقضي باعفاء اللبنانيين منها . ولكن حاجة الجيش العثماني الى اطبـاء وصيادلة وممرضين، قضت ان يستثنى ابناء الجسم الطبي من هذا الامتيـاز. لذلك سيق قسم منا مع الجيوش المحاربة في مختلف الجبهات . فقتل من قتل، واسر من اسر. وكانت السلطـة الانكليزية تخيّر الاسرى منا : اما البقاء ضمن نطاق الاسر، او التطوع للخدمة الطبيـة في مستشفيـات الجيش . ولم يتردد احد منـا عن اختيار التطوع، — واكثر من ذلك — كنا نسعى اليه سعياً جديّاً. ومن الذي لا يروقه ان يعمل طبيباً في مستشفيات الجيش الانكليزي ؟ فهناك الخلاص من الاسر القاسي، والذل الذي يرافقه. والانكليزي يتعجرف عليك وانت حر طليق ، فكيف به وانت أسير في قبضة يده ؟ وهناك ايضاً الرجوع الى حرفتك الشريفة تخدمهـا ، ولا لذة للطبيب اذا

حرم من ممارسة الطب . وهناك التعويضات والمخصصات التي تعطى للاطباء : رتبته قائد مائة (نقيب) ، ومعاشه ثلاثون جنيهاً ، فضلاً عن مخصصات تعطى له كما لغيره من ضباط جيش صاحب الجلالة . كل هذه عوضاً عن ان تبقى اسيراً محتقراً ، ترتدي لباساً خاصاً من اقمشة قاتمة ، تأكل ماتعطى ، محروماً من ان تخطو خطوة واحدة خارج المعسكر الضيق الذي وضعت فيه ، تحمل على صدرك رقعة من التنك مُهر عليها رقمك في الاسر ، بدلا من رقعة لماعة متلالئة ، تحمل نجمات ثلاث تخولك الابهة والتكريم . ولا تعدّ خائناً اذا خدمت في صفوف الحلفاء الاعداء ، لانك لم تدخل الجيش العثماني الا مكرها ، عندما كان قلبك يختلج مع الحلفاء ، وعاطفتك تترنح طرباً عندما يخطون الى النجاح . هكذا كان الطبيب اللبناني ، وهكذا كان كل لبناني على الاطلاق ، فلا خيانة اذن في التطوع للخدمة في صفوف الحلفاء ، لاسيما وانت مدعو لها في صفوف الاسعاف والطبابة .

— ٢ —

اطباء القنطرة

قلت ، كنا في القنطرة اطباء لبنانيين ، نجتمع في مجالس انس ومجادلات مختلفة المواضيع ، بعد فراغنا من عملنا ، وكانت احاديثنا في ذلك الحين كلها عن لبنان ، ومصيره بعد حرب غلبت فيها الدولة العثمانية وتفككت ، واصبح مصير لبنان بيد الحلفاء ، ووضعت قضيته

على طاولة التشريح في مؤتمر فرسايل ، وكان نقاشنا، في كثير من الاوقات، حاداً ، شديداً ، وطالما حمي وطيس الجدل، الى حد كاد يخشى معه على الصداقة والالفة اللتين مكنتهما فينا ظروف شاذة قاسية، مرت بنا واحتملناها سوية، من معارك الحرب ، الى وحشة الغربة، الى مصاعب الاسر. فاللبناني،اينما كان،شديد التمسك بحزبيته، اذا تناساها يوماً في اثناء محنة تلم به ، او في ظروف تقضي عليه بالتناسي، فلا يلبث ان يعود اليها لدى اول سانحة يرى فيها شعاعاً من امل النجاة من محنته . اما حزبيته ، فصارمة قاسية ، ليس للعقل والحكمة يد في حبكها وصقلها، هي بنت العاطفة، ووليدة الهوس، وشريكة التعصب . هي حزبية طالما أساءت لى لبنان ، ولم يستفد منها الا المستعمرون .

وكانت تتساقط علينا الاخبار، وتحمل الينا الجرائد، الكثير من مقررات الحلفـــاء في باريس . ونحن نتطلع بشوق الى ما يصيب لبناننا من تلك المقررات . ولكن يظهر انـــه كان للحلفاء شغل يشغلهم عن لبنان، بما يرغبونه من الغنائم من المقهورين،وما يدبرونه في اوروبا، محور الدائرة في سياسة العالم. وما هو لبنان في نظرهم ؟ بقعة من الارض صغيرة، ينظرون في امرها بعد ان ينتهوا من مهامهم الكبرى، ويقرون ما كتب لها في كتبهم الموضوعة ، عنـدما كانوا يقتسمون الغنائم فيما بينهم قبـــل ان تشتعل نار الحرب ، وقبل ان اظهرت تركيا عداءها لهم . وما هـــذا المؤتمر القائم اليوم الا ليختموا باختامه اتفاقاتهم السابقة . اما « ولسن » ومبادئه ، وحرية الشعوب في تقرير مصيرها ، هـذه البدعة التي اتاهم بها من اقاصي

الغرب ، فهي ليست برسم التصدير الى البلدان الشرقية. ان هنالك مقاطعات نحتاج اليها، وقد كتبناها في اسفارنا ، انها لنا، فليست هذه التعاليم التي يطلع علينا بها مبشر المؤتمر اليوم هي التي ستضيعها علينا . اذن لنتخذ من تعاليمه اساساً نسترضيه به، ولنختلق صيغة توصلنا الى هدف نصبو اليه، فيرضى عنا ذلك الذي اسدى الينا مساعدات حربية، كان لها شأنها في احرازنا النصر، بدون ان تتأثر تلك المعاهدات التي وضعناها سابقاً، بالرغم من تظاهرنا بقبول شرطه القائل: بالغاء كافة المعاهدات السرية السابقة . وها هو « الانتداب » فكرة ترضي المبشر ، ويقبل بها المحكوم ، ويطبقها « المنتدَب » لمصلحته . والرئيس لن تخلد له الرئاسة في الولايات المتحدة . والاميركيون لن تهمهم امور الشرق ، حتى ولا امور اوروبا، وطيف « منرو » لم يزل يزورهم، وروحه ترفرف عليهم. اذن هو « انتداب » ترمقه بعنايتها جمعية من الامم ، يوزع على الدول المنتصرة ، يديرون بواسطته الشعوب حسب ضمائرهم ونياتهم ومقاصدهم ... اما رقابة جمعية الامم فلا تستحق التفكير . والمنتصرون اليوم هم اصحاب السيادة فيها ، يحلون المربوط ، ويربطون ما يستوجب الحل.

— ٣ —

النعرات الحزبية تستيقظ

ونحن في القنطرة ، شرذمة من الاطباء ،نقتل الفراغ من وقتنا ببحث القضية اللبنانية . كل ينظر اليها بعين رغباته واهوائه ،

ويتمنى ان يرى لبنان كما يريده هو، او كما علمته المدرسة التي تثقف فيها ان يريده. والمدارس في لبنان، تختلف مبادئها باختلاف جنسية مؤسسيها، ويختلف نظرها الى لبنان باختلاف الغاية التي من اجلها تأسست، وفي سبيلها يعمل القائمون عليها. واللبنانيون ميالون الى المعاهد الاجنبية، لوفرة عددها في لبنان، ورقي برامجها المختلفة، ولعدم وجود المدارس الوطنية، وقلة الاكتراث لها من قبل الحكومة والمراجع الرسمية القابضة على زمام البلاد. ولذلك كانت الارساليات الاجنبية تملك ناصية التعليم في لبنان، مقتسمة النفوذ فيما بينها على المتخرجين منهـــا. وكان لكل فئة من الارساليات غاية ترمي اليها من وراء مدارسها، وطريقة تتبعها في بث فكرتها، وبرنامج يختلف عن برنامج سواها في صفوفهـــا. وكانت اثنتان من هذه الارساليات تتنازعان النفوذ: الافرنسية والاميركية. اذ ان المعاهد الاجنبية الاخرى من انكليزية وايطالية و المانية وروسية كانت اقل شأناً من الاولتين.

وبينما كانت المدارس الاميركية تنشر الثقافة الحرة، وتعظ بالمبادىء الوطنية، وتزرع في عقول طلابها النزعات الاستقلالية. وبينما كانت هذه المعـاهد تبشر بالدين القائم على عمل الخير والصلاح واستنكار المنكر، بلا تفريق بين المذاهب المختلفة، والمعتقدات المتباينة. وبينما كانت هذه تزوّد الطالب بثقافة الغرب وعلومه، وتساعده على تطبيقها في بلاده، لتستقيم بها حالة وطنه، وتحبب اليه بلده وبيئته، وتجعله طموحا للذود عن وطنيته واستقلاله، كانت معاهد الارساليات الفرنسية تسعى جهدها، وتبذل جهودها، لتنشر مع

العلم محبة فرنسا ، والاخلاص لها، والسعي لادخال الروح الفرنسية في نواحي الحياة اللبنانيـة . كان الطالب فيها يدرس تاريخ فرنسا وامجادها وجغرافيتها وتقاليدها وادب كتابها وشعرائها ، غير عابىء بشيء من حالات بلاده، مهملا لغته ، مزدرياً تاريخ وطنه ، محتقراً عادات قومه . اللغة العربيـة ليست الا فرعاً مهملا في برنامج دروسه ، لابأس من الرسوب فيه وقت الامتحان. ومعرفـة شيء عن ادب العربية والتعاليم القومية ، ليس فقط امر لا لزوم له، بل هو شيء غير مستحب ، اذ هو لا يوافق الروح التي يزرعونها في صدره. ولكن، الويل له اذا قصر في شيء من دروس الادب والتاريخ الفرنسيين، والتعليم الديني والمذهبي. ان مصيبته لكبيرة، وخطيئته لاتغتفر . هكذا كانت المعاهد الاجنبية قبل الحرب العالمية الاولى ، احداها تنشر العلوم لتعميم الثقافة ، والاخرى تنشر العلم خدمـة للاغراض السياسية، ولبلوغ الغاية الاستعمارية، التي جعلت من البعثات الجزويتية اقوى عوامل الاستعمار ، بالرغم من العداء الذي اظهرته للجزويت الحكومات الفرنسية اليسارية . ولكن مملكة الجزويت مملكة شديـدة البأس ، والشعب الفرنسي بمعظمه من الكاثوليك الاقحاح ، والطغمة الجزويتية تعتبر فرنسا ركن الكثلكة . اذن على بعثاتهـا واجب التبشير بالمبادىء الفرنسيـة والتعليم الفرنسي، وبجر الشرق، لا سيما لبنان، الى حظيرة النفوذ الفرنسي. ولا شك في ان جهود هذه المعاهد في لبنان قد اعطت الثمار المرغوب فيها، فاصطبغت الحياة اللبنانية بالروح الفرنسي ، وطغت على لبنان ثقافة الفرنسيس، فأنست قسماً من اللبنانيين وطنيتهم ، وفـاقت محبتهم لفرنسا ،

واخلاصهم لها، محبتهم واخلاصهم لبلادهم. فصاروا لا يتكلمون الا باللغة الفرنسية، ولا يتشبهون الا بالتقاليد والعادات الفرنسية، يريدون ان يجعلوا بين لبنانهم وبين بقية الاقطار العربية وغيرها، هوة تبعده عنها، ليكون لفرنسا وحدها النفوذ والحقوق عليـــه. هكذا كان اللبنانيون المتطبعون بطابع المعاهد والبعثات الفرنسية، عندما كان مؤتمر فرسايل يبحث قضية لبنان ومصيره بعد الحرب العالمية الاولى. وهكذا كان الاطباء الذين جمعتهم صحراء القنطرة، بعضهم يتمنون الاستقلال، وبعضهم يرغبون في الاتحاد مع سوريا. والكل يرون وجوب مساعدة دولة اجنبية. وهنا يقع الخلاف، وتبدأ المشاحنات، ففرنسا ام الكثلكة، تناصرها الفئة المنتمية الى الكنيسة الكاثوليكية، من الموارنة والكاثوليك والسريان وغيرهم، واقليـة من الطوائف الاخرى، وهي التي صقلتها المعـــاهد الفرنسية والجزويتية طوال السنوات العديدة. وفئة ترى في المساعدة الانكليزية اكبر ضامن لحرية البلاد، ولرغدها واستقلالها. الفئـــة الاولى، مسيرة بعاطفة توارثتها على ممر السنين، والفئة الثانية سلاحها العقل والمنطق، والذي تعرفه وتشاهده في البلدان الواقعة تحت النفوذ الانكليزي، والمقارنة بين الاستعمارين في مختلف نواحي الحياة، ان في الاقتصـاد، او في السياسة، او في توزيع العدل بين الناس. هذا عدا عن ان النفوذ الانكليزي مهيمن على كافة الاقطار العربيـة المجاورة. والتجاؤنا الى فرنسا في هذه البقعة الصغيرة، يضرب حولنا حصاراً سيكون خطراً علينـا وعلى اقتصادياتنا. ولكن كيف السبيل الى اقناع الذين تدفعهم عاطفـــة أسستها التقاليد، وشدد اوصالها التعصب،

وعملت في حبكها وتمكينها البعثات والارساليات اللاتينية المختلفة، واهمها، على الاطلاق، تلك البعثة القوية بشكيمتها ومراسها، المسيطرة على عقول طلابها ومريديها ومحبيها، بما تملك من السلطة والجبروت والانظمة المحكمة ؟ كيف السبيل الى ذلك عندما يقوم احدنا من اطباء القنطرة في ساعة من ساعات الجدل ، وقد اعيته الحجة فالتجأ الى العاطفة فقال :« انا طبيب، ولي اولاد ثلاثة في لبنان، واني افضل ان اعود الى وطني فارى العلم الفرنسي مرفرفاً عليه ، حتى ولو فوجئت بفقد اولادي الثلاثة. » رحمات الله على « حفروش » فهو لم يرجع الى لبنان ويستقر به حتى عاجلته المنية ، ولعل القدر عاجله كي لا يرى في حياته ما يجعله نادماً على استرخاصه اولاده واكباده . اما لبنان، فقد كان فيه كثير من « الحفاريش » المتحمسين المهووسين .

— ٤ —

العودة الى الاوطان

وقفت الحرب ، وانتهت مهمة الجيوش الجرارة ، واخذ اطباء القنطرة يعودون الى اوطانهم ، بعد غياب طال امده، وقست ايامه، وتناوبته فترات من الخطر والشدة والاسر ، وتركوا في مقابر الصحراء وفيافيها عدداً من اخوانهم ورفاقهم . اخذوا يعودون الى وطن تخفق له صدورهم، وتشع فيها شعاعات الرجاء والامل ، ويرون فيه ، بعد دخول الحلفاء ، موطناً حراً يتمتع بالرفاه، ويعمه

العمران ، ويتزين بالعدل في الاحكام. هذا ما كانوا يعدوننا به من عشرات السنين، لا بل من مئاتها، وهذا ما كنا نرقبه كما يرقب الفجر من يتخبط في ديجور الظلام .

وعدت الى لبنان في منتصف شهر نيسان سنة ١٩١٩ . وكانت بيروت تغص بجيوش الحلفـــاء ، واكثرها من البريطانيين على اختلاف اجناسهم : انكليز ، واوستراليين ، وهنود ، وافريقيين . وكان معها ايضاً شرذمة من الجيش الفرنسي اكثرها من الفرق الاجنبية والمتطوعة، اعطوها امتياز الدخول الى لبنان، تلميحاً الى معاهدة « سيكس-بيكو » المعقودة بين انكلترا وفرنسا منذ سنة ١٩١٦، والتي ما زال الفرنسيس يطالبون بها والانكليز يعترفون لهم، ولو عن مضض ، بحقوق المطالبة . وكانت الشؤون العسكرية بيـــد البريطانيين ، والادارة الملكية بيد الفرنسيين ، ولا شيء بيـــد الوطنيين. والناس ، الخارجون من كوارث الحرب، واللاهون عن مقدرات البلاد، بتطور الحوادث وتوالي المفاجئات، وبهرجة الاعياد والاحتفالات ، يقولون: لا بأس ، هي حالة موقتة لا شك في انها ستزول عندما يرفعون عن هذه البلاد الاسم الذي اسموها بـه وهو « بلاد العدو المحتلة »، مع ان لبنان ، حتى في صميم الحرب، لم يكن عدواً للحلفاء . هي العاطفة — دائماً العاطفـة — التي جعلت اللبنانيين ، يتعشقون المحتلين ، ويحسنون الظن باولئك الذين اشبعوهم وعوداً وآمالا واحلاماً، فصاروا ينظرون اليهم نظرة التقديس، ويؤمنون باقوالهم ايمانهم بالله وملائكته وانبيائه القديسين .

وهنا تتوالى الاجتماعات التمهيدية ، وتكثر الاحزاب السياسية ، وتُبعث الرسل الى الزعماء والمناطق والكتل الدينية والمذهبية ، وتنشط دوائر الاستخبارات في قصر المفوضية ، ويسرف «استيفاني» في البذل والسخاء ، لهذا وذاك من الزعماء والمتزعمين ، وعمال الدعاية ورؤساء الطوائف ، وبعض معاهد التربيـــة والجمعيات والملاجىء والمياتم ، اسرافاً ما عهدناه في الفرنسيين . ولكن هي الغاية التي يرمون اليها ، وما قيمة بضعـــة ملايين من الفرنكات اذا كان من ورائها جرّ لبنان وسوريا ، وضمها الى الامبراطورية الشاسعة . فاذا اعطـوا اليوم فهم يعرفون كيف يستردون ، في الغد ، اضعاف ما يبـــذلون ، عندما تصير اليهم السيطرة والسلطان ، يصدرون القوانين ، ويسنون الشرائع ، ويوزعون الضرائب ، ويفرضون الغرامات ، ولا يعتقدن احد ان هذه البلاد معدومة الثروة ، فالفرنسيون الذين اشتهروا في الشؤون المالية ، لا يعدمون وسيلة يبتزون بواسطتها ثروة البلاد التي يسيطرون عليها ، ويعصرون جيوب سكانها وابنائها . اذن : كان همهم الوحيد في ذلك الحين ، وهدفهم الاعظم في تلك الفترة ، ان يسمع اقطاب الدول في مؤتمر باريس ، ان لبنان وسوريا راغبان ، بل يطلبان الحكم الفرنسي او الوصاية الفرنسيـــة او الانتداب الفرنسي . لا عبرة بالتسمية ما زلنا نحن المنفذين ، وفي السياســـة مداورات ومحاولات لا تخفى على الدهاقنة السياسيين . هكذا كان لسان حالهم في تلك الآونة ، وهـــذا ما كان يعمل في سبيله ولاجله رجالهم وعمالهم في هذه البلاد ، مستندين الى ما لرؤسائهم في باريس من الحجة والسطوة ، ولما يخفيه اولئك في خزاناتهم من الاتفاقات

والمعاهدات .

وظهر ذكر لبنان وسوريا في باريس، وتعدد المتكلمون باسميهما، والباحثون امرهما ومصيرهما . غير ان الاهتمام بهذين القطرين كان في رواق المؤتمر اكثر كثيراً منه في صلبه . ان اقطاب مؤتمر فرسايل لهم من مشاغلهم المهمة ما لا يدع لهم مجالا لصرف الوقت بمسألة لبنان وسوريا، غير ان باريس، في تلك الآونة، كانت قبلة السياسيين ومحط آمال الامم . فاستقبلت في اثناء عقد المؤتمر، الافاً من الوفود التي أمتها، بعضها يطالب، وبعضها يحتج ، البعض يؤيد ، والبعض يتظلم . والمدينة العظمى تستقبل الجميع ، وتبش للجميع ، وتتعهد الجميع برعايتها وعنايتها ، واهلها ، وتجارها ، وفنادقها ، ومراقصها ، يترنحون من ارباح يجنونها، وثروات تصرف في حدائق لذاتها . هي باريس ، جنة الوجود ، وحديقة العالم باسره ، وكعبة المتعطشين الى لذات الحياة من الاغنياء والموسرين ، لا سيما بعد فترة من الزهد طالت اربع سنوات، اذ احتل المدفع محل « الجازبند»، وسالت الدماء في القتال، بدلا من سيل الشمبانيا والخمور في النوادي والملاهي. هي باريس اليوم في ايام زهوها، ونضارة حياتها، ومرح العيش في ارجائها .

— ٥ —

الوفود في فرسايل

ذهب الامير فيصل الى باريس ليطالب المؤتمر باستقلال سوريا،

معترفاً للبنـــان باستقلال داخلي وبتوسيع حدوده . ورافقـــه في سفرته هذه « الكولونيل لورنس » ، الملقب بفاتح الصحراء ، وملك العرب غير المتوّج .

وامّ المدينة العظمى ايضاً رئيس الجامعة الاميركية، الدكتور « هوارد بلس » ، وهو مولود لبنـــان ، وقد عاش فيه وخبر السوريين واللبنانيين، ودرس آراءهم ومعتقداتهم وميولهم، فعرّف الرئيس ولسن بهم ، وبّين له ان اهالي سوريا ولبنان بلغوا درجة من الرقي تجعلهم مستحقين ان يقرروا مصيرهم بانفسهم ، وجدير بالحكومة الاميركية ، ان تهتم بقضيتهم ، وتدفع عنهم اي ضيم يلحقهم ، من جرّاء الاعتبارات السياسية ، والتقليدية، التي يتذرع بها ارباب السياسة ، واقطاب المؤتمر ، تنفيـذاً لاتفاقات سابقة ، ومعاهدات وضعت سراً ، تخوّلهم حق السيطرة والاستعمار .

وارسل الى باريس وفد من لبنـــان برئاسة « داود عمون » يطلب الوصاية الفرنسيـــة ، ودوّى صوت « بيشون » ، وزير الخارجية الفرنسية ، قائلاً بلهجـــة الغضب : « ان لفرنسا حقوقاً تاريخية وشرعية وادبية في سوريا ولبنان لا تتنازل عنها ابداً . »

وحار الرئيس ولسون في امره ، ولا شك في انـه كان مخلصاً بنظره الى قضيتنا ، وعرف ان ارادة الشعب في سوريا لبنان ، غير ما يصورونها له في فرسايل ، فالحّ بوجوب استفتـاء الاهلين ، عملاً بمبدئه القائل : بحرية الشعوب لتقرير مصيرها ، غـــير ان اقطاب السياستين ، الفرنسية والانكليزية، لم يؤيدوا رأيه ، لاقتناعهم بأن

الثوب الذي يحيكونه لسوريا ولبنان في فرسايل ، هو الذي يلائم اهل البلاد ، انهم يعرفون الشرق اكثر من معرفة الرئيس ولسون له ، وانهم متفقون على مصيره ، فاذا شاء الرئيس ان يتعرّف الى حقيقة الحال هناك ، فليرسل لجنة خصوصية تستفتي اهل البلاد ، ولكن ، لتكن اللجنة من قبل الرئيس فقط ، اذ ان ارسالها ، من قبل المؤتمر ، لا يُرضي « كليمنصو » ، ولا يسع « لويد جورج » ان يحتمل غضب النمر وزئيره من اجل سوريا ولبنان ، عندئذ رأى الرئيس الاميركي ، الطيب القلب ، ان ينفرد بتحقيقه ، حتى اذا كانت نتيجته غير ما يقول المؤتمر ، كان له بذلك قول ورأي ، وهكذا ارسل من قبله « لجنة كراين » الاميركية ، وكان ذلك في القسم الثاني من سنة ١٩١٩ .

— ٦ —

لجنة كراين

انتعشت آمال الوطنيين عندما وصلت لجنة الاستفتاء ، وحسبوا ان لاستفتائها وتقريرها قيمة سيحلّها مؤتمر الصلح محل الاعتبار ، وراحت الكتل والاحزاب تبدي آراءها في مصير البلاد ، فطلب الموارنة والكاثوليك باكثريتهم انتداب فرنسا ، ولم يشاركهم من الطوائف الاخرى ، مسيحية كانت ام محمدية ، الا نفر قليل لا يعتدّ به ، بالرغم من وسائط التشويق والترغيب ، ومن وعود اسرفوا بها ، ووعيد لوّحوا به ، والسلطة المدنية في ذلك الحين

كانت بيد الفرنسيين ، فاستعملوها لغرضهم وغاياتهم ، وطلب الارثوذكس ، والبروتستانت ، والطوائف المسيحية التي لا تنتمي الى البابوية، استقلال لبنان مرتبطاً باتحاد مع سوريا وانتداب بريطانيا ، وطالب المسلمون والشيعيون بالوحدة السورية ، وبعضهم بالوحدة العربية ، وانتداب بريطانيا ، ان كان لا بد من انتداب دولة اجنبية ، وطالب الدروز بانتداب بريطانيا ، فلم يكن لفرنسا، والحالة هذه ، غير الموارنة والكاثوليك ، وهؤلاء ، اذا اعترفنا بكونهم اكثرية في لبنان القديم الصغير ، فهم ليسوا كذلك في لبنان الجديد الكبير، بعد ان ضمّ اليه بيروت وطرابلس والجنوب والبقاع وعكار ، اما في سوريا ، فلم يكن لفرنسا جزء من ماية من الاصوات ، ولكن ما للمؤتمر وهذا الاستفتاء ، انهم تغاضوا عن ارسال اللجنة ارضاء للرئيس ولسن ، وتحذيراً لاعصابه .

والغريب ، انه بينما كانت لجنة الاستفتاء تقوم بعملها في سوريا ولبنان ، تم الاتفاق بين الحكومتين الانكليزية والفرنسية على ان تتولى فرنسا الانتداب على البلدين ، واخذت الجيوش الانكليزية تنسحب تباعاً ، والجيوش الفرنسية تحتل امكنتها ، اما سلمياً ، كما حدث في لبنان ، واما بالقوة ، كما حدث في سوريا ، بعد ان سالت دماء السوريين والفرنسيين في معركة « ميسلون » المشهورة : هكذا وُضع الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، وهكذا صدّق مؤتمر فرسايل معاهدة الحكومتين الانكليزية والفرنسية المعروفة بمعاهدة « سيكس بيكو » ، واعطوا لهذا التصديق شكلاً يوافق روح المؤتمر ، اما دروس اللجنة الاميركية

فلم يعرها المؤتمر اقل اهتمام، اذ ان مجلس الامة في واشنطون، كان قد بدأ يعارض سياسة الرئيس ولسون، ويمنع عنه حق التدخل بشؤون لا تهم اميركا، فخسر قسماً من نفوذه في بلاده، وقسماً اكبر من سطوته على المؤتمر.

اما تقرير لجنة «كراين»، فانه موجود بين مهملات المؤتمر، ومحفوظات الحكومة الاميركية في واشنطن، ولا بدّ للتاريخ في يوم من الايام من ان يخرجه من مخبئه، ويقدمه دليلاً على استهتار الدول الكبيرة المستعمرة، بالشعوب الصغيرة، خدمة لاغراضها الاستعمارية ومطامعها الاشعبية.

ولا بأس عليّ ولا حرج، وانا اتكلم عن اللجنة الاميركية، ان اذكر حادثاً وقع امام نظر اللجنة وبصرها، ولا شك في انها اثبتته في تقريرها، فيه الدلالة الكافية على ان ادعاء رجال السياسة من الدول المنتصرة، باعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها، هو ادعاء لا اثر فيه لحسن القصد والنية، ان هو الا كلام هراء.

اختارت اللجنة، لاستفتاء اهالي الشوف واعالي المتن، بلدة «عيناب» مركزا لها، وهي بلدة تقع في وسط هذه المنطقة، التي يقطنها اكثرية ساحقة من الدروز، والدروز في لبنان، وان كانوا اقل عدداً من الموارنة، يُعتبرون من اقوى اركانه، فتاريخ لبنان، في عهد اماراته وثوراته، من ايام الامير فخر الدين الى ايام الامير بشير الكبير، ينطق بلبنانية الدروز، وباعتكاف هذه القبيلة في جبال لبنان، وباستعدادها للدفاع عن كيانه واستقلاله، حتى ان

الولاة العثمانيين كانوا يطلقون عليه اسم « الجبل الدرزي »، ولطالما اشتد بأس امراء لبنان، فانتصروا على قوات الدولة العثمانية، ووسعوا حدوده الى الولايات الشامية والسورية، فهابته السلطنة العثمانية، وخطب ودّه الغزاة الذين حاربوا الدولة، من حملة نابوليون الى حملة ابراهيم باشا، والدروز، في تلك الحقبات، هم الذين حملوا لواء لبنان، وسطروا تاريخه بدمائهم، مهما كان في ذلك التاريخ من نقائص او معايب.

امّت الجماهير الغفيرة قرية عيناب، وزحف افرادها من الصرود ومن السواحل، ومن المناطق الوسطى، وهم يهزجون « ويحوربون »، وهي عادة يحافظ عليها الدروز في مظاهراتهم واجتماعاتهم العامة، وكانوا هم الاكثرية الكبرى في ذلك النهار، وارادت اللجنة ان تتعرف الى آراء مختلف الطبقات والاحزاب منهم، وكان هناك ايضاً جمهور من مسيحيي المناطق الشوفية والمتنية، اتوا للادلاء بآرائهم ورغباتهم.

وكانت الوفود تدخل على اللجنة، فيتكلم خطباؤها وممثلوها، والمجتمعون يؤيدونهم، واجمعت الوفود الدرزية، على اختلاف احزابها ومشاربها، على طلب الانتداب الانكليزي، ولم يكن من طالبي الانتداب الفرنسي، غير زعيمين اثنين، يعتقدان ان في الانتداب الفرنسي، افضلية مستوحاة من روابط روحية وثقافية بين لبنان وفرنسا، غير ان الدروز كافة، عاندوا فكرة الزعيمين، وبالرغم مما يكنه هذا الشعب لزعمائه عموماً، ولهذين الزعيمين خصوصاً،

من الاحترام والتقدير ، فقد اظهر خصومته لها، ولولا تدخل رجال الدرك لوقع ما لا يحمد عقباه ، والقوة اللبنـــانية ، في ذلك الحين ، كانت تساهم في تأييـــد الفرنسيين ، عندما كانت السلطة الادارية بيد اولئك، يستعملونها لاغراضهم .اما الامير فؤاد ارسلان، ذلك الرجل الوطني الصادق ، واللبناني المخلص ، الذي ظن في ذلك العهد ، ان في تأييده للانتداب الفرنسي ، خدمة وخلاصاً للبنانه ، فانه ما لبث، عندما تبين حقيقة الامر، وتوالت النكبات على لبنان، ما لبث ذلك الليث الجبار ، ان قام في وجه الاستعمار ، فكان اشد من حاربه وعانـــده ، وأقض مضجع المستعمرين، وبلبل جبهتهم ، فجردوا عليه سلطانهم ونفوذهم ، ومنعوه من دخول الندوة النيابية في انتخابات ١٩٣٠ ، بالرغم من اجماع الشعب على انتخـابه ، اذ رأى اللبنـــانيون فيه زعيما لا يرضى للبنان الا استقلالا لا تشوبه شائبة ، وعزة وكرامـة لا تعكرها نيات المستعمرين ، واغراض المستثمرين .

ولكن الانتخابات النيابية ، لم تكن في عهد الانتـداب ، الا مهزلة يلهون بها الشعب ، ومخازي يُقصد منها التظاهر بانهم يهيؤون البلاد للانظمة الحرة الديمقراطية ، فيجيء عملهم الجالبون سعداء في جمعية الامم ، اما اقتناعاً او تواطؤاً .

أتطلب الاستزادة ايها القارىء اللبيب؟ اذن فسنقدم لك حادثا ثانياً وقع في تلك الاثنـاء ، يبيّن لك « تعلق » الدروز بالانتداب الفرنسي .. !

قام الجنرال « غورو »، المفوض السامي الفرنسي القادم حديثاً

الى لبنـــان ، بزيارة مناطق الشوف الاعلى ، مصطحباً الاميرال « مورنه » ، ولدى وصوله الى منطقة بعقلين ، دوى الرصاص باتجاه السيارة التي اقلتهما ، والتي كان يرفرف على مقدمها العلم الفرنسي ، فاصيب الاميرال ، وكثر الهرج والمرج ، وتهيأ المحافظون المرافقون ، ووصلت البرقيات الى بيروت ، ونقل الجريح الى العاصمة ، وقامت الدنيا وقعدت ، وتعددت الشائعات والتخمينات . وفي اليوم التالي اصدرت المفوضية البلاغ الآتي :

« بينما كان المفوض السامي والاميرال «مورنه» ، متوجهين الى الشوف الاعلى ، استقبلتهما الجماهير المحتشدة بالحماس على طول الطريق ، وفي اثناء هذه المظاهرات ، التي اطلقت فيها العيـــارات النارية ابتهـــاجاً ، اصيب الاميرال مورنه برصاصـة طائشة . » واسدل الستـــار .

— ٧ —

مجلس حرب فرنسي يحكم على لبنانيين بالخيانة الوطنية

في تلك الآونة المضطربة ، ووسط البلبلة التي كانت تتخبط فيها البلاد ، كان هناك فكرتان رئيسيتان لحل القضية اللبنانية ، الفكرة الاولى : استقلال لبنان وانفصاله عن سوريا ، والفكرة الثانيـة : استقلال لبنان واتحاده مع سوريا في الامور الخارجية والاقتصادية .

الفكرة الاولى يقول بهـــا الموارنة والكاثوليك ، بزعامة رجال الاكليروس ، وتدعمها السلطـــة الفرنسية ، الممسكة بيدها زمام الادارة والسياسة والدعاية ، والفكرة الثانيـــة تؤيدها اكثرية اللبنانيين، الذين لا ينتمون الى السلطة البابوية، ويقاومها الفرنسيون الذين يريدون ان يجعلوا من لبنان ، مقاطعة منفصلة تحت تصرفهم وسلطانهم ، يستطيعون ان يمدوا منها نفوذهم الى الولايات والمناطق المجاورة . وقد تمثلت هاتان الفكرتان ، في مجلس ادارة لبنـــان ، الذي استأنف عمله بعد احتلال قوات الحلفـــاء ، فانقسم اعضاؤه الاثنا عشر الى جبهتين ، جبهة انفصالية ، تعمل علناً ، بالنظر لرضى السلطة عنها، وجبهة استقلالية ، ولكنها غير انفصالية كل الانفصال عن سوريا، تعمل بحذر خوفاً من بطش الفرنسيين ، الذين كانوا قد بدأوا يستغلون قواتهم ، ويسخرونها لتأييد غاياتهم ، ويتمشون على سياسة الثواب والعقاب في كافة تصرفاتهم ، ولذلك اجتمع اصحاب الفكرة الثانية ، وكانوا اكثرية المجلس ، ووضعوا القرار التالي :

« لقد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام، توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلادين المتجاورين : لبنـــان وسوريا ، ومصالحهما ، ودوام حسن الصلات بينهما في المستقبل ، وبعد البحث في هذا الشأن ، وجد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود التالية :

١ — استقلال لبنان التام المطلق .

٢ — حياده السياسي ، بحيث لا يحارَب ولا يحارب ، ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي .

٣ – اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفـــاق يتم بينه وبين حكومة سوريا .

٤ – المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة من الطرفين ، وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس نواب لبنان وسوريا .

٥ – يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود وضمانة احكامها .

بعد ان وضعت اكثرية المجلس هذا القرار ، شاءت ان تعمل في سبيل الوصول الى غايتها لدى المراجع الدولية الايجابية . فقرر الاعضـــاء السفر الى باريس ، واذا لزم الامر ، الى اميركا لهذا الغرض ، فاعترضتهم عقبتان : الاولى ماليـــة ، والثانية مقاومة السلطة الفرنسية ، التي هالها هذا القرار ، وقد اخذ بمعزل عن رأي رجالها وعمالها ، ولم يرد فيه ذكر فرنسا ، اما العقبة الاولى فقـــد ذللت بواسطة احد الزعماء « الامير امين ارسلان » الذي توصل الى ايجاد المال من التاجر المثري « عارف النعماني » على حد قوله ، ومن الامير فيصل ، عـــلى حد قول اخصام الفكرة . ولكن ممن كان المال ، فالقرار هو هو لا يتغير ، والفكرة فكرة لبنانية ترمي الى استقلال لبنان ، غير ان الفرنسيين ، الذين رأوا في القرار ضياعاً لمصالحهم ولاغراضهم ، اتخذوا من تذليل العقبة الاولى على الوجـه الذي ذكر ، ومن سفر الوفد سراً عن طريق حيفا لتعذر السفر من بيروت ، حجة لانتقامهم ، فاوقفوا اعضاء الوفد ، وهم يجتازون الحـــدود اللبنانية ، وعادوا بهم مخفورين الى بيروت ، فحاكموهم

امام محكمة فرنسية ، رئيسها واعضاؤها من الضباط الفرنسيين ، واتهموهم بالخيانة العظمى ، ولكنهم عفوا عن رؤوسهم ، واكتفوا بنفيهم الى جزيرة كورسيكا ، حيث لاقوا اشد المتاعب والمصاعب في معيشتهم . هي عجيبة الاحكام ومستغربات السياسة ، ان تشكل محكمة اجنبية في قلب البلاد ، وتحاكم بعضاً من الوطنيين ، وقد قاموا يطالبون باستقلال بلادهم ، وبتوسيع حدودها على حساب جيرانها ، وذلك بالتشاور والتعاقد مع هؤلاء الجيران ، فتحكم على اولئك الرجال بتهمة الخيانة العظمى لبلادهم ، وهم يطالبون باستقلالها ، أيريد اولئك الحكام والقضاة ، ان يظهروا اخلاصاً للبنان اكثر من اخلاص ابنائه ؟ . انا لا احبذ الطريقة التي سلكها اعضاء الوفد ، وكنت افضل ان يعملوا جهاراً ، ويرفعوا أصواتهم من ندوة المجلس ، ليسمعها اقطاب الدول الذين ظنوا بهم — خطأ — الانصاف ، ولو كنت بينهم لاخترت المجابهة بدلا من التستر ، ولكن عملهم في الخفاء ، اعتقاداً منهم انه اجدى وانفع ، بالنظر لمقاومة السلطة ، حتى ولو استعانوا بمساعدة الغريب ، لا يشكل خيانة اقترفوها ضد بلادهم تستوجب التهمة . وهب انها جريمة او خيانة ، فللسلطات الوطنية حق المحاكمة والحكم عليهم ، لقد آخذوهم بالاستعانة بمال استدانوه من غيرهم ، الم يدفع الفرنسيون انفسهم المال اللازم للوفد الذي ارساره الى باريس ، ليطلب الوصاية الفرنسية والانفصال التام ؟ أيكون الاخ والجار عدواً بغيضاً ، ويكون الغريب صديقاً صدوقاً ؟

لقد حيرتني تلك المتناقضات ، فتركتها لادراك القارىء اللبيب

وحكمه .

وهذا وفد لبناني سائر الى باريس ، يطلب المساعدة الفرنسية ، يرأسه البطريرك الماروني ، ادخلوا فيه موظفاً من الموظفين المسلمين ، ودرزياً ماشى السياسة الفرنسية ، فيذهب الوفد على ظهر دارعة فرنسية ، تتكلف السلطة الفرنسية كافة نفقاته ، من السفر ، الى الاقامة في اوروبا ، الى ما يعرف وما لا يعرف من المصاريف ، ثم يعود البطريرك ، فتقله ايضاً دارعة فرنسية الى بيروت ، والمال ، وان كان من الخزينة الفرنسية هذه المرة ، فليس من حرج على الوفد وعلى وطنيته من أخذه ما زال طالباً للوصاية الفرنسية ، هذا هو منطق المحتلين في تلك الايام ، والمنطق يتغير بتغير الظروف والاحكام .

ومع هذا فقد طالب البطريرك باستقلال لبنان ، وردد أمام رئيس الوزارة الفرنسية في ذلك الحين « كليمنصو » قائلاً : « ان الانتداب الفرنسي على لبنان يجب الا يعرقل بصورة ما السيادة اللبنانية ، والاستقلال لبنان ، بكافة اموره الداخلية والمالية والاقتصادية ». وهكذا تمّ الاتفاق المعروف باتفاق « الحويك ـ كليمنصو » ، بمذكرة رسمية من الاول في ٢٥ تشرين اول سنة ١٩١٩ ، ورسالة جوابية مؤيدة نظرية البطريرك من الثاني بتاريخ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٩ .

وبهذا نرى ان الذين طالبوا بالانتداب الفرنسي انفسهم ، اشترطوا بصراحة لا تقبل الجدل ، ان هذا الانتداب يبقى انتداباً

كما ارادته جمعية الامم ، وكما عرّفته الشرائع الدولية ، وكما وصفه المتشرعون . والانتداب ، في العرف الدولي ، هو عبء على الدولة المنتدبة ، تتحمله في سبيل البلاد المنتدَب عليهـــا ، وهو يتطلب التضحية من قبل المنتدب مساعدة للمنتدب عليه ، لايصال هـــذا الاخير الى درجة تمكنه من السير لوحده الى مصاف الامم المستقلة الحـــرة .

هاك ما قاله في مقدمة كتابه « الانتداب الدولي » السيد « فان ريس » ، نائب رئيس لجنة الانتدابات الدائمة في جمعيـــة الامم ، قال : « ان الانتداب يفرض واجبات عـلى المنتدَب لا يحق له في سياق القيام بها ان يتوخى اي ربح او فائدة . »

واسمع ما قاله بوانكاره نفسه في سنة ١٩٢١ ، قال مخاطباً بني قومه في مجلة العالمين :

« نحن لم نذهب الى بلدان الشرق لنستعمر او لنفرض حماية ، اننا هناك منتدَبون ، واذا كان من يعتقـد ان الانتداب هو مجرد صورة فانه مخطىء ، ان الانتداب من فئة (أ) الذي وضع عـلى سوريا ولبنـان ، يشترط ويستوجب استقلال هذين البلدين ، وما نحن هناك سوى مستشارين لشعب بلغ من التمدن والرقي ما يخوله حكم نفسه بنفسه ، هذا ما قلناه للبنانيين والسوريين عندما وصلنا الى بلادهم ، ولهذا استقبلناهناك بمظاهر الابتهاج والفرح ، وستكون الخيبة عظيمة عند اصدقائنا ، اهل لبنان وسوريا ، اذا تصرفنا هناك تصرف الفاتحين المستعمرين . »

هذا هو الانتداب في الشرع الدولي ، وهكذا اراده الرئيس ولسن صاحب الفكرة ، ولكن هل نفذ المنتدبون انتدابهم كما اراده الذين قالوا به والذين عملوا في سبيله ، عن نيـــة حسنة واخلاص ؟ هذا ما سنجد الجواب عنه في فصولنا الآتية .

استقلال يبطنه انتداب

أودع العام، والدمع السخي على خدّي، في فرط آلامي واحزاني
وبعد، استقبل الثاني بلا أملٍ فليس من أملٍ للبائس العاني
قد كان لي وطن ازهو به شرفاً وا حرّ قلبي على فقدان اوطاني
قالوا: استقل بنا لبنان، قلت لهم: بالوهم ادركتُ استقلال لبنان

١٩٢٢ ابراهيم منذر

الفصل الثاني

استقلال يبطنه انتداب

— ١ —

استقلال يولد ميتاً

في اليوم الاول العشرين من شهر ايلول سنة ١٩٢٠ ، احتشدت الجماهير في ساحة قصر المفوضية ، بينهم البطريرك ، والمفتي ، والشيخ والزعيم ، والموظف ، الى ما هنالك من مختلف الطبقات ، فخطب فيهم الجنرال « غورو » ، المفوض السامي الفرنسي ، واعلن استقلال « لبنان الكبير » ، بعد ان ضمت اليه الاراضي التي سلخت عنه بعد فتنة ١٨٦٠ ، ثم اطلقت المدافع ابتهاجاً بذلك الحدث الجديد ، وفي الحقيقة ، ما كانت تلك الطلقات الا حداداً على ما كان يتمتع به لبنان قبل الحرب ، من الاستقلال الذاتي والداخلي .

كان لبنان ، قبل الحرب ، متصرفية ممتازة ، تعترف بسيادة الدولة العثمانية ، ولم تكن تلك السيادة الا اسمية ، فقد تغير وجه الحكم في لبنان بعد فتنة ١٨٦٠ ، من نظام اقطاعي يتولاه الامراء الشهابيون ومتفرعاتهم ، الى نظام مدني وضعت اسسه الدول العظمى

بالاتفـــاق مع الدولة العثمانية ، فكان يحكمه متصرف من رجال الدولة ، يعينه الباب العالي باشارة سفراء الـــدول في الاستانة ، وهذا الحاكم يتولى الحكم مستنداً الى مجلس منتخب من الشعب، يدعى « مجلس الادارة الكبير » ، وكان لا يحق للدولة العثمانية ان تتدخل بشؤون لبنـــان الداخلية ، فكافة مأموريه ، وقضاته ، وجنوده ، والقائمين عـــلى ادارة اموره لبنانيون ،كانت ميزانيته تبلغ ستين الف ليرة عثمانية ذهباً ، تجمع من الضرائب الموزعة على على اهله واراضيه ، وعلى الدولة العثمانية ان تساعد خزينته لسد اي عجز يقع في الميزانية ، ولهذا كانت الضرائب شيئاً لا يذكر ، وكان هـــذا الاستقلال مضموناً من الدول السبع : فرنسا ، انكلترا ، روسيا ، المانيـــا ، النمسا ، ايطاليا ، بالاضافة الى تركيا بموجب بروتوكول عقد على اثر تلك الفتنـــة ، وقد كان الامن مستتباً ، والمعيشة هادئة ، واللبنانيون منصرفين الى اعمالهم في جبلهم ، او بالاحرى في معقلهم ، يعيشون من نتاج ارضهم القاحلة ، او من الاموال التي يرسلها مهاجروهم الذين جابوا اكثر اقطار الدنيا.

ولا يسع المنصف ان يقول ، ان لبنان كان بالغاً حد الكمال، اذ ان سلخ الاراضي الخصبة عنه، بعد الفتنة، كان سبباً لفقره وعدم تقدمه ، غير ان اللبنـــانيين ، وقد عرفوا بالكد والمغامرة ، لم يتركوا بلداً من بلدان الله ، الا هاجروا اليـــه ، واستثمروا من خيراته ما ساعدهم على تعمير لبنـانهم ، وقد كان مهاجروه ينعمون بقسط من العلم والاجتهاد ، اوصل نفراً منهم الى مراكز سامية في الديار التي هاجروا اليها ، وساهموا في مقدراتها وتقدمهـا ، هكذا

كان لبنان قبل الحرب العالمية الاولى ، بقعة من الارض فقيرة بثروتها ، غنية بروحها ورجالها ، تحسدها بقية الاقطار من جيرانها ، حتى ذهب القول مثلاً : « هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان » .

واليوم ، في العشرين من ايلول سنة ١٩٢٠ ، يعلن الجنرال اغورو اعادة الاراضي التي سلخت عن لبنان منذ ستين سنة ، و« يعمّد » لبنان الصغير لبنان كبيراً ، ويقول للبنانيين : ان فرنسا ستحافظ عليكم وعلى استقلالكم ، وتتعهد تدريبكم على حكم انفسكم بانفسكم ، وستكون هي القيّمة عليكم ، الى ان تبلغوا من الرشد ما يؤهلكم الى السير لوحدكم في ميدان الحياة الدولية . وما خفي على بعض المفكرين ، الفرق بين كفالة دولة واحدة ، وكفالة تقوم بها دول سبع ، ولكن لنحسن الظن ، والاعمال بالنيات ، لقد سجل لبنان لفرنسا حسنة اولى ، هي ضم الاراضي المسلوخة ، وهي تشكل قطاعات واسعة خصبة ، وازداد عدد سكانه من اربعمائة الف نسمة الى ثمانمائة الف نسمة ، لبنان الكبير ، عاصمته مدينة بيروت ، المنضمة حديثاً ، والتي كانت مركزاً لولاية عثمانية ، بيروت المدينة التي تعودت على مر السنين ، ان تكون تحت رق الحكم العثماني ، والتي ما ذاق اهلها يوماً طعم الاستقلال ، لا تصلح ان تكون عاصمة دولة مستقلة ، هذا فضلاً عن ان وجود السلطات الفرنسية ، من مدنية وعسكرية ، وهي صاحبة السيطرة ، يحرم حكومة البلاد من السيادة وحرية التصرف في مقدراتها . اذن ، هذا تدبير كان في الواقع ضربة اولى على لبنان ، لما للعاصمة من التأثير الكبير على البلاد ، فقال قائل « أهي بيروت ضمت الى

لبنان لتنعم بحسناته ، أم هو لبنان ضمّ الى بيروت ليفقد ميزاته » الكلمة للتطورات المقبلة .

— ٢ —

عاصمة موبوءة بالروح الاجنبية

ارتكزت الحكومة اللبنانية في عاصمة لبنان الجديدة ، التي لم تكن ، في بدء ذلك العهد ، من صلب لبنان ، ولم تتعرف في حياتها الى الروح اللبنانية ، بل كانت دائماً مزيجاً بين الفرنجة والوطنية ، بيروت ترزح تحت المؤثرات الخارجية ، بما يوجد فيها من جاليات اجنبية ، ومدارس ومؤسسات فرنجية ، حتى طغت عليها روح لا تلتئم مع الوطنية اللبنانية ، فاكثر المثقفين من ابنائها ، والارستقراطيين من سكانها ، والمتمولين من تجارها ، يأنفون من العادات اللبنانية ، والتقاليد اللبنانية ، ويتقربون من الاوساط الاجنبية ، في مجتمعاتهم يتفاهمون باللغة الفرنسية ، وكثيرون منهم لا سيما النساء ، يحجمون عن تعلم اللغة العربية ، ويفتخرون بجهلهم اياها ، واكثر من ذلك ، يحتقرون من يتخذها لغة التفاهم والمعاملة ، ولقد قوي فيهم هذا الروح بفضل المدارس الاجنبية الفرنسية ، والسلطات الفرنسية ، التي جعلت من اللغة الفرنسية لغة رسمية ، ومع ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية الاولى ، الا ان اولي الامر الوطنيين ، تحت تأثير هذه السلطات الاجنبية ، جعلوا من اللغة الفرنسية ، لغة الدوائر والدواوين ، حتى اصبحت كافة المعاملات

والمكاتبات لا تجري الا بها ، وصار المستوظفون يتعلمونها ، ليحصلوا ، بواسطتها ، على مراكز لهم ، ان في دوائر الحكومة ، او في الشركات والمؤسسات المختلفة ، وهذه طريقة من طرق الاستعمار ، يريد بها ان يقتل لغة البلاد ، توصلًا الى قتل الروح الوطنية والقومية .

وفي بيروت تتجلى عبادة المادة ، ويتميز ابناؤها بتطرفهم بالعبادة. تجارها وملاكوها وارباب الثراء فيها يعملون للكسب والغنى ، عن أي طريق ، وبأية فرصة تُنتهز ، وقد أعطوا البرهان الصادق على هذا في اثناء الحربين العالميتين ، مما لا يدع مجالا للشك ولا للجدل . ومتى طغت عبادة المادة على قوم ضربهم الله بالعمى ، فلا يفقهون بعد ذلك معنى للوطنية الصحيحة ، ولا للاستقلال القومي الصادق .

حاشاي ان ارسل القول على اطلاقه ، فهناك من لا تسري عليه هذه التهم ، ولكن اولئك هم السواد الاعظم من الطبقة التي سيطرت روحها على مقدرات البلاد ، وعلى شؤونها الاجتماعية والسياسية ، عندما صارت بيروت الى التربع في المركز الاول في لبنان .

في هذا الجو الموبوء بالنفعية والمادية ، وفي هذه المدينة التي تطغى عليها الروح الاجنبية ، والتي تتحكم بمقدراتها المعاهد والشركات الاجنبية ، وتستأثر بالنفوذ على حياتها الاجتماعية ، وعلى سلطاتها، الارسالية الجزويتية ، ولا سيما بعد ان استقرّ الفرنسيون

في البلاد، في هذه المدينة التي لا تعرف في لبنان الا سوقاً لتجارتها، ومصدراً لثروة ابنائها، والتي لا يروعهـــا ان يفقد لبنان ما كان يتمتع به من كرامة وطنية واستقلال ذاتي، لانها لم تكن تشعر بهما عندما كان لبنـــان ينعم بهذه الميزات. في هذا الجو الذي لا يصلح ان يغشى لبنان، وهو في بدء عهد وعد فيه اصحابه المواعيد العرقوبية انه سيكون عهد حرية واستقـــلال وكرامة. قالوا للحكومة اللبنانية، وكان رئيسها والمسيطرون على مقدراتها من الموظفين الفرنسيين، هذه عاصمة ملكك. وأسرّ القائل في اذن كبير الاسرة الجزويتية، هنالك مجال للعمـــل، وباب فتحناه لك على مصراعيه بعد ان اغلق بوجهك واويت الى دهاليزك ومخبآتك تعمل فيها سراً الى جيـل مضى. من ذلك الحين، او بالاحرى من حين وطئت أقدام الفرنسيين هذا البلد، اخذ النفوذ الجزويتي يزداد يوماً عن يوم، حتى اصبحت دولتهم لا تقوى عليها اي سلطة، لا وطنية ولا اجنبية موضعية، وصار رئيس الارسالية الجزويتية مرجعاً أعلى في تكييف سياسة البلاد، وفي تعيين حكامها ورؤسائها ووزرائها وصغار مأموريها. وقد مر زمن لم يكن يعين في اثنائه موظف بسيط لا يكون حائزاً على عطف الجزويت. فتعززت بذلك معاهدهم، وقوي تأثيرهم في حياة البـــلاد السياسية والاجتماعية والثقافية، وتهافت الطلاب على مدارسهم، فانتشرت بذلك مبادئهم، واستطاعوا ان يوسعوا سلطتهم. وباستثناء الفترة القصيرة التي حكم فيها باسم فرنسا الجنرال « سارايل » مفوضاً سامياً، وقد كان علمانياً مشهوراً بعدائه للطغمة الاكليريكية، لا سيما الجزويتية منها،

قد كان الجزويت اصحـــاب الكلمة المسموعة، والرأي المقبول في كافة شؤون البلاد. وقد يتسامح العقل في ذلك، لو كانت سياستهم قائمة على الاخلاص للبلاد التي يعملون تحت سمائها، ويتمتعون بخيراتها، غير انهم في الحقيقة كانوا حرباً عليها، وعلى مصالحها الحيوية والوطنية. كانوا اذا تضاربت مصلحة لبنان مع مصلحة اجنبية ساعدوا الثانية على الاولى. واذا تضافرت عناصر البلاد المتفرقة، لوحوا للنصارى، خاصة البابويين منهم، بالمعتقدات الدينية والآيات الانجيليـــة، يفسرونها لهم حسب رغباتهم ونياتهم. واذا اجتمعت كلمة الوطنيين على امر، بثوا دعاة التفرقة تعمل لتشتيتهم وتثبيط هممهم. حتى انهم، في اكثر من مرة، استعانوا بسلطانهم المحلي والعالمي ليهدموا نفوذ الاكليروس الوطني. فحاربوا البطريرك الماروني الذي يتمتع بزعامة دينية وزمنية في لبنان، وخلقوا له في الشرق مزاحماً دينياً بشخص بطريرك الطائفة السريانية، التي لا تعد في لبنان اكثر من ثلاثة آلاف نسمة، اذ سعوا الى « رومية » فسامته كردينـــالَ من كرادلة الكرسي البابوي، وكان عونهم في عملهم المفوض السامي في ذلك الحين « الكونت ده مارتل »، عدو البطريرك اللدود في قضية احتكار التبغ المشهورة، مما سيجيء الكلام عنـــه في فصل الاستثمار.

وهكذا تربعت بيروت على عرش السيادة في دولة لبنان الكبير التي تقمصت في الجمهورية اللبنانية، وقد انحصرت السلطة في بيئاتها « المتأجنبة »، واحتكرت المراكز العليا، وشكت البلاد مركزية خانقة.

فالادارات الكبرى فيها ، والشركات الاستثمارية تكبل البلاد بقيود قاسية، وتوزع مصائبها على لبنان من مقرها العام في العاصمة . وقد تعدت هذه المركزية الى كافة دوائر الحكومة من النافعة الى الادارة العدلية ، والرئاسات الوزارية والتشريعية — عندما كان المسيطر الاعلى يجيزها للبلاد — كانت في اكثر احيانها وقفاً على فئة الموالين من ابنائها . والمسيطر بالطبع يفضلهم على المتعنتين من اللبنانيين ، لسهولة قيادتهم ، وتقربهم الى الميول الغربية والاجنبية، ولكون الشفاعات الماليـة ، والارستوقراطية ، والجزويتية ، والنسائية ، تطالهم اكثر من اولئك .

ولم يكن يجري في الدولة شيء بدون هذه الشفاعات. اما تأثير بعضها دون الاخرى ، فمتوقف على شخصيـة الحاكم الاعلى، اي المفوض السامي الفرنسي . فمتى كان هذا كاثوليكياً باراً كان النفوذ بيد الجزويت ، وكان ابو الرسالة الاكبر مطمح انظـار المستوظفين والمستوزرين . واذا كان المفوض محبـاً للمال والثراء لعب المال الدور الاول في تصريف سياسة البلاد ، وكان للاغنيـاء والارستقراطيين وذوي النعمة الكلمة النـافذة والرأي المقبول . واذا حلّ في قصر الصنوبر رجل يتعشق الحياة الفرحة، وتميل فطرته الى لذّات الحياة ومعاشرة النساء، سيطرت المرأة على مقدرات الدولة، واصبحت هي الوسيط الذي لا ترد له شفاعة او رجاء . وكم تعـيّن وزير واتخذت مقررات في مجالس الانس وبين احضـان الحسان . واذا راجع القوم تاريخ سيرة المفوضين السامين الذين تعاقبوا ابان الانتداب، لوجدوا النماذج المذكورة متمثلة فيهم اصدق تمثيل ، غير

ان رجلًا واحداً بنظري كان بعيداً عن هذه المؤثرات الخارجية ، بشخصيته المتحايدة وروحه الطيبة ، هو المسيو « بيو » ، الذي تولى المفوضية مدة سنة من الزمن او تزيد ، عندما اشتعلت شرارة الحرب ، وعزل عندما انهارت فرنسا ، واصبح الامر بيد فيشي ، تأتمر باوامر برلين ، اذ لم يكن لدوائرها امنية في شخص بيو . وبالرغم من بعض الضعف في مقدرته الادارية ، مما جعل الامر يؤول الى معاونيه الذين الفوا الفساد والاختلال في اعمالهم ، فقد كان رجلًا نزيهاً اديباً مخلصاً . لم يتحقق عن يده نفع يذكر ، ولكنه لم يكن من شخصه اي ضرر .

هذه حالة موجزة للبنان في زعامة عاصمته الجديدة ، مركزية قاسية موجعة ، وروح اجنبية غريبة ، واخلاق حائرة مائعة . وهكذا ضاع لبنان ، بين مطامع الجزويت ومصالح الاجانب ، وخزائن الاغنياء ، وجنائن الارستقراطيين ، ومغامز الحسان الفاتنات .

— ٣ —

عين عصبة جنيف

وكان همّ السلطة الافرنسية الاول ، من حين اعطيت الانتداب ، ان تحكم البلاد لمصلحتها هي ، اولا . وكان همها الثاني ان يكون حكمها هذا متلبساً لباس الديمقراطية بواسطة اهل البلاد ، لكي تستطيع ان تقدم تقريرها السنوي الى عصبة الامم المشرفة على

الانتدابات بوجه عام ، هذه العصبة التي كانت تجلس سعيداً في « جنيف » وتتألف اكثرية اعضائها من مندوبي الدول المنتصرة في الحرب العالمية والتي وزعت عليها الانتدابات ، وكان من الطبيعي ان تساير هذه الدول بعضها بعضاً ، وتغمض الواحدة منها عينها عن اعمال الثانية اذا كانت هذه الاعمال مغايرة لمبدأ العصبة الاساسي القائل : ان الانتداب جعل لمصلحة المنتدَب عليه وليس لمصلحة المنتدِب . واني استطيع ان اقول بكل راحة ضمير ان هذه العصبة لم تحكم مرة على الدولة المنتدبة ، ولا اذكر اني قرأت مرة انها رأت الحق بجانب الشعب المحكوم بواسطة الانتداب ، عندما يصلها منه شكوى او تقرير ، حتى اصبحت قراراتها في هذا الشأن صورة او « كليشة » لا تتبدل ، اذ تقول مثلاً ، اطلعت لجنة الانتدابات على التقرير المقدم من... وبعد الدرس لم ترَ فيه ما يستحق النظر ! ويسدل الستار . ومما يلفت النظر ان كافة الشكاوى يجب ان تقدم الى عصبة الامم بواسطة المفوضية الفرنسية في بيروت . ولا يخفى ما في ذلك من الغبن لصاحب الشكوى ، ولم تنس هذه العصبة الدولية ان تكيل المديح ، وتوجه الشكر الى ممثل الدولة المنتدبة في آخر كل جلسة يدور فيها البحث في تقريره عن سير الانتداب ، كأنها — بارکها الله — لم تجلس الا لهذا الغرض ، وقد كان ممثل فرنسا في كل حياة العصبة « الكونت روبير ده كه » . رجل داهية ، وسياسي كبير ، غير ان سياسته كانت متجهة الى خدمة المطامع الاستعمارية والكتل المالية الكبيرة ، ولعل كان له من وراء ذلك فائدة شخصية ، والخبثاء يتهمونه بحمل المكاسب الكبيرة

لدى عودته من هذه الديار ، بعد ان قضى ردحاً من الزمن امينـــاً للسر في المفوضية العليا في اول عهـــد الانتداب . وهو المعروف بقراراته الشهيرة كقرار البنك السوري ، وقرار البيوع ، وقرار الديون ، كما سيجيء في فصل آخر . هذه هي قصة عصبة الامم ولجنة الانتدابات واشرافها على هذه البدعة الاستعمارية في سوريا ولبنان. فكرة أوجدها المغفور له « ويلسون » لمصلحة الشعوب الصغيرة بقصد تدرج هذه الشعوب ، على يد الدول الكبيرة ، الى السيادة والاستقلال ، فسخرها المنتدبون لمصالحهم واغراضهم ، بعـــد ان هجرت اميركا العصبـــة ، واوى الرئيس ولسون الى بلاده ، ثم الى بيته ، ثم الى قبره ، تاركاً الشعوب المستضعفة تحت مراحم اوروبا الاستعمارية .

— ٤ —

ديموقراطية زائفة

قرّ قرار السلطة العليا، وهي بالطبع في اروقة المفوضية الفرنسية السامية، ان يقوم الحكم في البلاد على اساس نيابي، فشكلت في بدء عهد الانتداب لجنـــة ادارية ، وعينت هي اعضاءها من مختلف الطوائف والمناطق ، وكان للجنة هـذه رأي استشاري فقط . ثم تطورت هذه اللجنة الى مجلس استشاري ، فالى مجلس نيابي منتخب ومجلس شيوخ معين ، فالى مجلس يجمع بـــين الاعضاء المنتخبين والاعضاء المعينين ، وكانت هـــذه المجالس ذات صلاحية تختلف

باختلاف الزمان والعهد ، فقد كانت هـــذه الصلاحية منحصرة في الاستشارة اولا ، ثم في رفع التمني فقط ، ثم في اقرار الضرائب والموازنة ، ثم في وضع التشريع في البلاد .

وفي احد الايام ، على عهـد ولاية الكونت ده مارتل السعيدة سنة ١٩٣٦، وضعت المعاهدة اللبنانية الفرنسية وبموجبهـــا ينتهي الانتداب ، وتدخل البلاد في عهد استقلال على اساس التعاقد مع الدولة الفرنسية ، ومع ان هـــذه المعاهدة كانت تخول الحكومة الفرنسية حقوقاً هي في الحقيقة اقوى من الحقوق التي يضعها بيدها الانتداب ، لكنها رفضتها بعد ان انقلبت من يسارية الى يمينية ، فلم تعرضها على المجلس النيابي الفرنسي ، وذلك لعدم رضى حكومة باريس عن المعاهدة السورية الفرنسية المختلفة عن المعاهدة اللبنانية الفرنسية باحتفـاظ الاولى بحقوق اوسع للسوريين ، وكان يصعب على الحكومة الفرنسية ان تبرم معاهدة مع لبنان ، مهما يكن لها فائدة من ورائها، وتغض النظر عن معاهدتها مع سوريا .

وكان الحكم النيابي في لبنـــان بظاهره صورة مصغرة عن الحكم النيابي في فرنسا ، فقانون الانتخاب مستوحى من هنـاك ، وصلاحية المجلس من حيث مسؤولية الوزارة واعطائها الثقـة او سحبها منها ، كما كان الامر في باريس . وقد كانت تترك الشؤون لرغبات المجلس واحزابه في الامور الصغيرة التافهـــة، التي لا تهم المنتدبين ، ولذلك كانت الوزارات دائمـــاً متقلقلة ، والوزراء يسترضون هذا النائب او ذاك ليعطيهم صوته ، وكانت مطالب

النواب بالاكثر لا تتعدى صغائر الامور، كتعيين موظف صغير او ناطور احراج او مختار قرية. اما في المسائل المهمة التي تتعلق بمصلحة من مصالح البلاد، او بتعيين موظف عالٍ، او تتعلق باحدى المصالح الفرنسية، فهذه امور لا يؤثر فيها نائب ولا مجلس ولا وزير، وهي تتوقف على مشيئة «الطور». والطور هو المفوضية العليا، ينزل الوحي على المجلس، وعلى الحكومة ان تتقيد بوحيه، ولا تخالف له امراً ما دام بواسطته وارادته يتم تأليف الحكومات، وبواسطته وارادته يعيّن الاعضاء المعينون، وبواسطته وارادته ونفوذه وتدخلاته المشروعة وغير المشروعة تتم الانتخابات.

وفي كثير من الاحايين، لم يقتصر تدخل «الطور» على الشؤون الهامة، والتي يرى فيها مساساً بمصلحته، بل تعدى الى كافة الامور، حتى التافه منها، الى ان وصلت الحال الى تدخل المفوضية ورجالها بتعيين اصغر الموظفين والحجاب والنواطير ومخاتير القرى، اذ كانوا يتسلحون بالحجة التي لا ترد والحكم المبرم، اذ يقولون: «هذا ضد الانتداب، وهذا مؤيد له، وهذا يحب فرنسا، وهذا لا يحبها.»

وفي الواقع كانوا يلجأون الى هذه الحجة للوصول الى اغراضٍ اكثرها نفعية شخصية، ولما كان النواب باكثريتهم الساحقة، من رجالهم ومن صنائعهم، كنت تراهم على ابوابهم يعفرون الوجوه توصلاً لاغراضهم، وكان اولئك يساعدونهم في نكاياتهم الحزبية، فيأخذون ثمن مساعدتهم هذه سيطرة مطلقة عليهم، وبقيت هذه

الامور في ازدياد ، بالرغم من ظاهرية الحكم الوطني النيابي ، واصبح عمال الانتداب يتدخلون بكل صغيرة و كبيرة ، ولا يجري أمر بدون رضاهم وموافقتهم . « هكذا يريد الفرنجي » حجة يحتج بها كافة الموظفين، من رئيس الجمهورية الى اصغر كاتب او مأمور، حتى ان الفرنجي اصبح المرجع الاخير في كافة الشؤون ، وصار اصحاب المصالح ، على اختلاف اهميتها وانواعها ، يلجأون اليه مستعطفين او متذبذبين او راشين . حالة بلغت أقصى حدود الفوضى والارتباك .

— ٥ —

مهزلة الانتخابات في عهد الانتداب

اما قصة الانتخابات للمجالس النيابية ففيها الكثير من المضحكات المبكيات .

يشترط في الحكومات الديموقراطية ان تكون قائمة على ارادة الشعب المحكوم ، ولكي يتمكن الشعب من الاشتراك في التشريع والحكم ينتخب نوابا عنه يجلسون في ندوة نيابية، ويكونون وكلاء عن الشعب الذي ارسلهم اليها . اذن ، المجالس النيابية هي مجالس شعبية، وهي مراقبة على اعمال الحكومة ،اذ لا تستطيع هذه السلطة الاجرائية ان تغفل عن مصالح الشعب، او ان تستأثر بمقدراته دون ان تقف بوجهها السلطات المستنابة عنه. وبكلمة اخرى، المجالس النيابية هي كابوس الحكومات والسلطات الاجرائية . غير ان

الحال في لبنان في عهد الانتداب لم تكن كذلك ، فالدولة المنتدبة تريد ان تقول لجمعية الامم وللعالم الخارجي: « ها أنذا اقوم بعهدي، فادير البلاد التي انتدبت عليها بواسطة اهلها وممثليهم، فهم المسؤولون عن السيئات ، اما الحسنات فمعظم الفضل فيها عائد الى مساعدتي وتدبيري .» وكان على السلطة المنتدبة اذ ذاك ان يكون اعضاء هذه المجالس من رجالها وصنائعها ، ولذلك كان اهتمامها بالانتخابات وكان تدخلها امراً لازماً لمصلحتها ، فكانت تجتذب اليها رؤساء الطوائف والزعماء الاقطاعيين واصحاب الاعمال والشركات الكبيرة ، والوسائل لاجتذابهم موفورة لديها، هذا رئيس طائفة تغريه بالسلطة والسيادة والاكرام، وهذا زعيم في عشيرته تعده بمقام رفيع او مركز عال في الحكومة ، وهذا مدير شركة او صاحب مصانع يأتمر بامره عمال عديدون تفتح امامه ابواب الكسب والثراء، ويمنح الامتيازات الاقتصاديه المثمرة . وفوق ذلك كانت ترسل المأمورين يراقبون الانتخاب ويضبطونه ، وكانت تعنى ان يكون اولئك المأمورون من الذين يهمهم بالدرجة الاولى رضى السلطة عنهم ، فيعملون على انجاح النواب الذين يتأكدون من اخلاصهم وخضوعهم لرجال المفوضية بما لهم من التأثير الخفي. وان لم يفعل هذا الفعل المرغوب استعانوا بالوعود او الاكراه او الوعيد، واذا فشلت كل هذه الوسائل فلا تجبن تجاه الامر، بل ترمي بقناعها وتفرض ارادتها مهددة بحل المجلس، اذا كان المنتخب او المنتخبون من اخصامها .هكذا حدث في انتخابات ١٩٣٠، عندما اراد الشعب انتخاب الامير فؤاد ارسلان كما ذكرنا في الفصل السابع . وهكذا في كافة الانتخابات ، كانت السلطة

تسمي الرجال الذين ترغب في انتخابهم، فتفرضهم بمختلف الوسائل التي ذكرت، لا فرق فيما اذا كانت هذه الوسائل مشروعة او غير مشروعة، حتى بلغ الامر حداً معيباً في اثناء انتخابات ١٩٣٨، اذ كان الموظف المكلف بقراءة اوراق الاقتراع يقرأ اسم وديع روكز، واسم مصطفى محمداً، بدون ان يسمع لرقيب او معترض، انتخابات زائفة لمجالس زائفة، كانت تأتي بها السلطة لتحكم بواسطتها البلاد لمصالحها واغراضها. ولرب قائل يقول: لماذا يكون اللوم على الافرنسيين في هذه المهازل والمخازي، الا تقع التبعة على الوطنيين انفسهم الذين يرون الهوة يحفرها لهم الغريب فيرتمون فيها؟ ان في القول شيئاً من الحقيقة، غير اني سابسط الحقيقة كلها كما هي بالصراحة التي توجبها هذه الحقيقة ولو كان في الجراح ايلام.

— ٦ —

الطائفية القاتلة

علة الشرق من اديانه، ولا بأس من التوسع فاقول: ان علة البشرية كلها من الاديان، واذا كانت هذه العلة مستحكمة في الشرق اكثر منها في الغرب، فلان اشتراكها بالجهل افسح لها ميدان العمل، فاشتدت وعظمت خطيئاتها.

اني اعني حرفياً ما اقول، لا غموض ولا التباس، لا اريد ان ابحث حقيقة الدين في هذا الكتاب، ولا اقصد ان ابشر بالالحاد، فهذا ليس من شأني، لكني لا اكتفي بما يكتفي به بعض الكتّاب

المصلحين الذين يتهربون من ان يقولوا ما يعنون ، هم يؤيدون او يرضون عن العقائد والتعاليم الدينية ، ويقتنعون بالتبشير والارشاد بالابتعاد عن العنعنات المذهبية والطائفية ، اما انا فلا استطيع ان افهم كيف يمكن ان تزول الفكرة الطائفية والتعصب المذهبي ، ما دام هناك تباين في المعتقدات الدينية الاساسية ، اقرأ سر الايمان المسيحي للمسلم ، وقل له : « الله والابن والروح القدس اله واحد. » اجابك: « لا اله الا الله وحده ولا شريك له ، وكفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » واذا اتاك المسيحي بالآية الانجيلية « من لطمك على خدك الايمن فحول له الاخر ايضاً ، ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً ، ومن سخرك ميلا فاذهب معه اثنين. » اجابك المسلم بآية اكثر انطباقاً على المعقول والمألوف « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين. »

وما هذه الاختلافات الا امثلة قليلة من كثير غيرها ، وتجاه اختلافات اساسية في العقيدة ، لا سيما في شرق لا تزال الروحانية متملكة فيه ، ولا يزال لرجال الاديان فيه النفوذ على مجموع الشعب ، ولا تزال قدسية اديرته وتكياته ومزاراته واوقافه تفوق كل قدسية ، ولا يزال السواد الاعظم من اهله يفكرون بالخلود ويهتمون بالنفس بعد الموت ، اكثر من اهتمامهم بتهذيب النفس وبسلامة الاجساد في الحياة ، وينصرفون الى البحث عن اللاوجود المجهول بدلا من اشتغالهم بالوجود المعلوم ، في شرق هذه حالته النفسانية والفكرية ،

هل يمكن غض النظر عن الطائفية والمذهبية وهناك التباين الكبير في العقيدة الاساسية ؟ « الدين لله والوطن للجميع » جملة منمقة طالما تغنى بها الخطباء والكتّاب والمرشدون ، ولكن عندما تبشر المسيحية بمبادئها وتعاليمها بغية خلاص البشر عن طريقها ، وعندما يدعي اليهود انهم شعب الله الخاص ، وعندما يدعو الاسلام الى الجهاد باسم الدين « ان الدين عند الله الاسلام » « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » عندما تشتبك هذه المعتقدات المتزاحمة ، أيبقى الدين لله وحده ليكون الوطن للجميع ؟ لقد اعتاد وعّاظنا ومرشدونا ان ينمقوا اقوالهم تخديراً ، وما كان المخدّر يوماً علاجاً شافياً لعلة شديدة مستحكمة .

ولبنان ، هذه البقعة الجميلة الغالية التي كستها الطبيعة اجمل حللها والتي تغنى بجمالها وبهائها الشعراء الاقدمون والمعاصرون ، لبنان مرتع الراحة والسكينة ومقر الهناء ، لبنان المشرف من اعالي هضباته على الصحارى والسهول من الوراء ، وعلى الخضم الواسع من الامام ، لبنان موطن الجبابرة من مغامري فينيقية الى محالفي الرومان والعرب والترك ، لبنان الذى صمد على ممر التاريخ وهادنه جميع الغزاة والفاتحين ، لبنان هذا ، مهما تقرب الى الغرب ، ومهما اراد نفر من ابنائه او مستعمريه ان يلبسوه حلة غربية اجنبية ، فهو ابن الشرق ، وحامل لواء النهضة فيه . وهو ، وان اقتبس من الغرب ثقافته وتعاليمه وبعض عاداته وتقاليده ، فقد احتفظ بذهنيته الشرقية فيما يتعلق بالدين والطائفية ، حتى ان

الطوائف المختلفة في لبنان قامت مقام الاحزاب السياسية لفقدان هذه الاحزاب فيه ، على عكس البلدان الراقية الديموقراطية ، ولعل ذكريات العصور السالفة عندما كان المسلمون يرون في الشرق وحدة اسلامية وما المسيحيون واليهود الا من اهل الذمة وعندما كان المسيحيون يرون في نصارى الفرنجة حامياً لهم ولايمانهم ، فيلجأون اليهم ويحالفونهم ضد ملوك العرب وامراء المسلمين ، اقول ان هذه الذكريات ، بالرغم عما يعمل لمحوها تطور الثقافة ومرور الزمن ، لا تزال تترك في عقلية اللبناني بعض الميل للاحتفاظ بطائفيته ، او بالاحرى بحزبيته المذهبية ، ولا يعمل على تغيير هذه العقلية ، ومحو هذا الميل محواً تاماً ، غير علمانية حقيقية واسعة ، ليس في المدارس فحسب ، بل في كافة نواحي الحياة الاجتماعية منها والسياسية والثقافية ، ومن الآن الى ان تتطور البلاد الى هذه العلمانية ، تبقى الطائفية نقطة الضعف الكبرى والعقبة الكؤود في سبيل وحدة البلاد وكيانها السياسي ، وتبقى هذه العلة تنخر في جسم الامة اللبنانية ، فيستغلها ذوو المطامع الاستعمارية من الاجانب .

وقد كانت هذه التفرقة سبباً لتمكين سيطرة الفرنسيين على البلاد التي لم يقم فيها بعد تربية وطنية سياسية ، وبدلا من ان يدربوا لبنان في هذا الطريق ، كما يوجب عليهم مبدأ جمعية الامم والانتداب ، كانوا يعملون جهدهم لتغذية هذه العلة ، فيزيدون في استحكامها ، اذا وجدوا مزاحمة شديدة بين رؤساء الطوائف المختلفة

حتى وصل اولئك الى درجة من التنافر والتباعد يصعب معها اي اتحاد وطني ، فكان ذلك مساعداً لهم ، وطريقاً للوصول الى اغراضهم ، ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على العقلاء من الوطنيين غير ان الوسائل المختلفة التي كان يستعملها المستعمرون وصنائعهم ، لا سيما الاجانب منهم ، والتأثيرات القوية التي كانت لمعاهدهم وجالياتهم ، والنفوذ الذي كان يتمتع به اولئك المتنفذون ، فيبهرون به عيون الشعب ليتحول اليهم ، كل هذه الوسائل ، خفية كانت ام جهارية ، كان لها التأثير الكبير في السواد الاعظم من الشعب ، فيقتبلون سلطانهم وسيطرتهم عليه ، بالرغم عما تسببه هذه السيطرة من مضض ، وامتعاض .

— ٧ —

المعارف المضللة

وفيما نتكلم عن الطائفية واثرها في الحياة اللبنانية ، والسياسة اللبنانية ، يتبين لنا عامل ثان من العوامل التي كانت وبالا على لبنان ، اعني به ذلك العامل الذي يشكل في كافة بلدان الله ، اساس تقدم البلاد وعمرانها ، هو معاهد التعليم ، لا ادري بالحقيقة اي العاملين كان اكثر ضرراً ، الطائفية ام المعاهد العلمية ، ولكنهما مشتبكان ، يتنازعان الاسبقية ، فلنتفاهم .

ان معاهد العلم هي دعائم الثقافة ، ولا تعمر بلاد او ترقى امة ما لم تكثر فيها معاهد التعليم ، ولكن العلم يبقى مقصراً اذا لم

يتحول الى ثقافة عامة ، والامم لا ينفعها انتشار العلوم بين ابنائها ، وازدهار مدارسها ببرامج دروسها ، اذا لم تتحول هـذه الدروس والبرامج الى ثقافة قومية تمهد السبيل لتربية وطنيـــة ، يقوم على اسسها تدرج هذه الامة الى مصاف الامم الحية .

والحياة العلمية في لبنان قائمة على انواع ثلاثـة من المدارس ، المدارس الاجنبية وهي اكثرها رقياً ونفوذاً ، والمدارس الوطنية والقسم الاكبر منها تقوم به السلطات الدينية والطائفية المتعددة . والمدارس الرسمية وهي التي تتعهدها الحكومة ، وتنفق عليها من ميزانيتها وتعرف بمدارس المعارف ، وهي تأتي ثالثـة في الاهمية ، وفي تأثيرها في الحياة اللبنانية . اما المدارس الاجنبية ، فلم تكن لتقل رقياً عن مثيلاتها في ارقى البلدان الغربية ، من حيث برامجها التعليميـــة في مختلف اقسامها ، كالطب ، والهندسة ، والحقوق ، والفلسفة ، والآداب . غير انه كان يعكر هذا التقدم روح تنفثها بعض المدارس ، فتفسد الاصلاح الذي تقوم به ، وتحط من قـدر الثقافة التي تخدمها معاهد العلم . واذا اعطينا لكل ذي حق حقه ، فلا بد من ان نقر ان المدارس الاميركية كانت تعنى بالثقافـــة العلميـــة محافظة بالوقت نفسه ، على معالم الروح الوطنية ، معززة للمبادىء القومية في طلابهـا ، اذ لم يكن لها اية غاية استعماريه او سياسية ، بالرغم من ان الذين انشؤوها في الاصل كانوا من رجال البعثات التبشيرية . ففي هذه المدارس كانت تدرس لغـــة البلاد وجغرافيتها وتاريخها وحياة اقاليمها ، وكانت جمعياتها تهتم بكافـة

معالم الحياة القومية، جادة في تهيئة وسائل التقدم الادبي والاقتصادي والسياسي، ان غايتها من عملها كانت ثقافيـــة محضة، ولم تتمش المدارس الفرنسية على هذا النمط. فالارساليات المختلفة التي كانت تتعهدها كان لها عدا عن الغاية الثقافية غاية تفوقها اهمية. هي غاية سياسية استعمارية. وكانت الارسالية الجزويتية زعيمة هـــذه الارساليات، وسلطتها تفوق كل سلطـــة. ففي مدارسها اهمال فاضح للغة البلاد، حتى ان التلميذ كان يتخرج منها وهو لا يعرف من لغته ما يعرفه ابناء الصفوف الابتدائية. وبينما كان هـذا يجيد تاريخ فرنسا، ويحسن معرفـــة جغرافيتها واقاليمها، ويتغنى باقوال ادبائهـــا ومنظومات شعرائها، كان يتجاهل ادب قومه وروائع كتابه وشعرائه. كان ينكر على بلاده بعثاً قومياً صادقاً ليدخل لبنان في بوتقة اجنبية غربيـــة، فيخدم بذلك غايات بنيت على اسسها مدارس تتلمذ فيهـا وكانت دعاية لسلطات تقوم على حكمه واستعماره. والغريب، ان هـــذه المعاهد كانت تنعم بامتيازات شتى، جادت بها علينا السلطات الحكومية والانتدابية، لا تتقيد بقيود ولا تعترف الى اي قانون تصدره الحكومة، ولا تخضع لرقابة وزارة المعارف، حتى انـه في زمن من الازمان، لم تقبل زيارة وزير معارف الدولة، اذ رأت فيه رجلاً لا ينتمي الى مبدئها، ولا يتمذهب بمذهبها. كانت كلمتها الكلمـــة المسموعة ورأيها الرأي المقبول، لرئيسها وهو من رجال الدين صفة المستشار الاول في البلاد، لا يسن قانون، ولا يعـــين حاكم او وزير او موظف، الا برضاه، وطالما كان ذلك سبباً لنكايات حزبيـــة

وطائفية ، اضرت بالبلاد وخدمت المنتدبين .

واذا كانت المدارس الوطنية دون المدارس الاجنبية رقياً من حيث برامجها ، واذا قصرت هذه عن فتح فروع العلوم العالية ، اما لاسباب مادية ، او لاسباب تعود للامتيازات الاجنبية في هذه البلاد ، غير ان هذه المعاهد الهبت الشعلة الوطنية في المجتمع اللبناني ، ووقفت سداً في وجه التيار الصادر من بعض نوادي العلم ، ولا سيما البعثات الجزويتية واخواتها ، والحقيقة يجب ان تقال ، وهي : انه لولا طائفية اصطبغت فيها بعض معاهد العلم الوطنية ، لكان لهذه المؤسسات اثر أشدّ واقوى في الكيان اللبناني ، هذه الطائفية التي ما دخلت ناحية من نواحي الحياة الا افسدتها .

أما المدارس الرسمية ، او مدارس المعارف فتأتي اخيرة في اهميتها وفي تأثيرها في الكيان اللبناني ، فمنذ وطئت اقدام الفرنسيين هذا البلد ، ارتكز نفوذهم على مدارسهم المتعددة في لبنان ، وكانت سياستهم ترمي الى الحط من قدر غيرها من المعاهد . واذا كانت بعض المدارس الوطنية قطعت شوطاً في حقل الثقافة والتعليم ، فذلك ناشىء عن جهود افراد او هيئات وطنية خاصة ، لا اثر بذلك لمساعدة اصحاب السلطان ، من فرنسيين او من وطنيين تابعين .

أما المدارس الرسمية ، التي تتعهدها الحكومة وتنفق عليها من من ميزانيتها ، فهذه يديرونها كما يريدون ، وكما تقتضي سياستهم ، وهذه السياسة تقضي ان لا تعلو هذه المعاهد عن حدّ معلوم من

الدرجة الابتدائية ، وحتى في هذه الدرجة ، لا لزوم لاتباع نظام تربوي خليق بهذا الاسم . وقد كانت هذه المدارس ، خصوصاً في السنين الاولى من الانتداب ، كناية عن مؤسسات استرضائية ، الغاية منها ارضاء هذا الزعيم ، او تلك الناحية ، او ايجاد وسيلة لتوظيف نفر من المحاسيب ، دون نظر البتة الى الفائدة التعليمية والتثقيفية ، حتى انه في زمنٍ ، وفي فترات متعددة ، كان هنالك معلمون رسميون على درجة فاضحة من الاميّة ، وكان ايضاً عدد من المحاسيب يعينون لوظيفة التعليم ، ولا يأتون لمراكزهم مطلقاً الا مرة في الشهر ، وذلك ليقبضوا مرتباتهم الشهرية ، كل ذلك كان يجري استهتاراً مقصوداً بالتعليم الرسمي ، الذي كان يجب ان يقوم عليه بنيان البلاد ، وكيانها القومي . غير ان الحال تحسنت في النصف الثاني من عهد الانتداب ، ويرجع الفضل في هذا التحسين لبعض الرجال الذين تولوا ادارة المعارف ووزارتها ، عندما كان لبنان يمارس بعض حقوق استقلالية ، فعملوا ، بقدر ما تسمح لهم الصلاحيات المعطاة لهم ، على تعزيز التعليم في المدارس الرسمية ، فأقرّ « جبران تويني » ، عندما كان وزيراً للمعارف سنة ١٩٣١ ، البكالوريا اللبنانية ، وخصتها الحكومة ببعض امتيازات فيما يتعلق بالتوظيف ، لكنها لم تجسر ان تستعيض بها عن البكالوريا الفرنسية ، التي بقي لها النصيب الاول ، واحتفظت من الامتيازات بحصة الاسد .

اما البكالوريا اللبنانية ، فقد اوجدوها درجة علمية للامتحان

فقط ، اذ ان المدارس الرسمية لم يكن فيها صفوف ثانوية ، تؤهل الطالب للتقدم لامتحان البكالوريا ، وكان الذين يتقدمون للامتحان فيها هم من المدارس غير الرسمية ، اي من المدارس الوطنية ، والمدارس الاجنبية الاميركية ، اما طلاب المدارس اليسوعية والفرنسية ، فيختارون البكالوريا الفرنسية ، وهي ، بفضل الانتداب ، رسمية ومفضلة على اختها اللبنانية ، ذلك اقرب الى ارضاء رؤسائهم واساتذتهم الآباء المحترمين ، ولا يخفى ما كان لاولئك من السلطة والنفوذ ، وفضلاً عن ذلك ، لم يكن عليهم ان يجتازوا امتحاناً صارماً في اللغة العربية وبعض الفروع المحلية القومية ، وهذه فروع لم يتقنوها في اثناء دراستهم لعدم اتفاقها مع غاية البعثات التي تنتمي اليها تلك المدارس .

قلت ان المدارس الرسمية تحسنت حالها في القسم الثاني من عهد الانتداب ، بفضل بعض الرجال الذين قاموا على ادارتها ، غير ان فائدتها بقيت منحصرة في المناطق التي كانت فيها ، فالحكومة لم تعمم فتح مدارسها في كل البلاد ، بل اقتصرت على بيروت وطرابلس وصيدا وجبل عامل وبعلبك ، وبكلمة اخرى فقد اقتصرت على المناطق التي ضمت الى لبنان سنة ١٩٢٠ . وهذه المناطق اكثرية سكانها من المسلمين والشيعيين . اما لبنان القديم فكان فيه كثير من المدارس الخصوصية ، التي يديرها اما ارساليات تبشيرية ، او شخصيات وطنية ، او مراجع دينية وطائفات اكليريكية مختلفة ، وقد رأت الحكومة ، او بالحري دار الانتداب ان تنشط هذه المدارس المختلفة المشارب باعطائها مساعدات مالية

سنوية ، ثم رأت ، بثاقب نظرها ، ان تكون هـــذه المساعدات لرؤساء الطوائف ، وهؤلاء يصرفونها على مدارسهم ، هو سلاح جديد بيد رجال الدين ، يستعملونه خدمة لغاياتهم ، والسلطة ، بنفس الوقت ، تشتري بذلك اخلاصهم ومساعدتهم لها لتحقيق اغراضها . ان لرجال الدين في لبنـــان سلطة على الشعب ، فلماذا لا تتقرب السلطات اليهم ، وتحوز رضاهم وخدماتهم ، ولماذا لا تكون اموال المعارف سبيلاً لهذه الغاية ، والذي يعجب لهـذه البلبلة يزول عجبه عندما يعلم ان السلطة صاحبة الشأن الاول بكلما يتعلق بالمعارف ، هي في المفوضية العليـــا . وفي هذا كفاية لقوم عاشوا في لبنان ، عندما كان لبنان ينعم في نعيم الانتداب .

— ٨ —

لا صحة في بلاد الصحة

ولا اريد ان اهمل التحدث عن شؤون الصحة والاسعاف العام في عهد الانتداب ، وهي لا تبيض وجوه السلطات .

حكم الانتداب لبنـــان ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت سلطته السلطة العليا ، وحكمه الحكم المـــبرم ، ورأيه الرأي المقبول والمسموع ، لا يتم امر ، ولا تسن شريعة ، الا بارادته وموافقته ، فلا غرو ، والحالة هـــذه ، ان نجعله مسؤولا عن اي تقصير او اية سيئة ، كما اننا لا ننكر عليه اية حسنة اصابت البلاد عن يده .

لقد خص لبنان بميزات طبيعية تحسده عليهـــا بقاع الارض

قاطبة . فمناخه الصحي ، ومناظره الخلابة ، ومياهه العذبة ، وجوّه الصافي ، وهواؤه العليل ، ولياليه المقمرة ، وشمسه اليانعة ، كل هذه جعلت منه مصحاً للمرضى الناقهين ، ومصيفاً لطالبي الراحة والمصطافين ، كما انها جعلت من جباله المكللة بالثلوج في فصل الشتاء ملجأ لهواة التزحلق ، وقد سمي لبنان : « سويسرا الشرق »، ولقد كان يفوق سويسرا ، لو تضافرت فيه قوى الانسان وجهوده مع قوى الطبيعة ، ولكن!... مسكين لبنان ! فهو لم يوفق الى حكومة تعمل لخيره . فكان حكامه في كل الادوار يستثمرون خيرات الطبيعة ، دون ان يبذلوا جهوداً تساعد على تحسينها ، وزيادة رونقها . فبدلا من ان يهتموا ليجعلوا من لبنان جنة يرتادها السياح وطلاب الصحة من كافة الاقطار الشرقية ، فيسهلوا سبل الحياة في بقاعه ، ويعنوا العناية الكاملة ليجعلوه منيعاً ضد كافة الآفات المرضية والوبائية ، كانوا يتكلون على مناعته الطبيعية ، يستثمرونها ولا يحافظون عليها من شر هذه الآفات ، ففي مدنه ومصايفه كانت جيوش البعوض تفسد على سكانه وزواره راحتهم وهناءهم ، وفي شوارعه واحيائه اهمال فاضح بشؤونه الصحية من حيث النظافة والتنظيم العام ، اللهم الا من بعض اصلاحات يقوم بها افراد على حسابهم ونفقتهم . كل ما يستطيع المرء ان يشكر السلطات عليه ، هو تحسين الطرقات العامة ، وايجاد شبكة منها لا بأس بها في مناطق الاصطياف الكبرى ، اما الامور الصحية ، فقد اهملت اهمالا فاضحاً ، ان بتوزيع مياه الشرب والخدمة ، او بتصريف الاوساخ الى مجارير فنية ، او بتجفيف المستنقعات ، وغير ذلك

من الامور التي تهم لها الحكومات الحية في بلد رأسماله طبيعة جباله وسهوله ووديانه ، وتجارتة قائمة باكثرها على استثمار ما منحتـه اياه الطبيعة ، ومع ذلك لم تكن تخلو حكومة من حكومات لبنان ، التي تعاقبت في عهد الانتداب، من وزارة للصحة ، يقوم على رأسها وزير ، ويديرها مدير، ويكون فيها الموظفون العديدون ، ويكثر فيها المستشارون الفرنسيون ، فريضة الانتداب الاولى ، غير ان هـذه الوزارة ، بوزرائها ومديريها ومستشاريها وموظفيها ، لم تقم الا بنسبة ضئيلة جداً مما يتوجب عليها . فكانت، ككل الوزارات والادارات في سياستها وفي اعمالها ، وظائف تخلق ليستفيد منهـا اصحابها ، وانظمة تسن ولا يهتم بتنفيذها ، ومسؤولية ضائعـة في داخل مكاتبها ودوائرها ، ولبنان يتألم ولا يجـد من يرثي لحاله . واذا وجد ، اجتمعت عليه قوى الشر والنفعية والمحسوبية ، لتقطع عليه طريق العمل .

وفي عصر التقدم السريع ، وفي عهد النهضة العلميـة الواسعة ، تبقى دولة لبنان ، او الجمهورية اللبنانية ، بدون مستشفى رسمي حكومي يعالج فيـه المرضى ، ويلجأ اليه الذين لا تمكنهم حالتهم ومواردهم من ارتياد المستشفيات الخاصة . ان لبنان بقي كل هذه المدة يحرم ابناءه الفقراء من العنـاية بهم . ولولا وجود مستشفى حكومي واحد في العاصمـة للامراض السارية وللمومسات ، وآخر لا يعتد به في طرابلس ، لكان فقدان المستشفيات فيه بدعة من بدع الدول، ولكن الحكومة في الوقت نفسه كانت تخصص في ميزانيتها قيمة قليلة لمعالجة المرضى الفقراء : تـدفعها لبعض

المستشفيات غير الحكومية وكانت تستأثر بهذه النعمة المستشفيات التابعة للبعثة الجزويتية او للبعثات الدينية غيرها . ولكن المريض الذي سيستفيد من هذا الانعام ، عليه ان يلجأ الى بيروت العاصمة ، ويراجع اصحاب الصلاحيات فيها ، وكثيراً ما يلزمه في هذه الظروف وساطات وشفاعات من اصحاب النفوذ والمحاسيب . ان هذه المنحات المالية التي كانت ادارة الصحة تقررها في ميزانيتها كانت بالدرجة الاولى لمنفعة ومساعدة المؤسسات التي تعطاها ، ولهذا حصرت بالمؤسسات اليسوعية كمستشفى « اوتيل ديو » و « دار الولادة الفرنسية » و « مستشفى السل » التابع للراهبات العازاريات و « مستشفى المجانين » التابع ايضاً لبعثة دينية . ولا اريد ان اتحدث عن اهمال مرضى الحكومة في هذه المستشفيات ، وخصوصاً في الاول منها اذ بذلك اثارة لشعور القاريء ، انما يجب ان يعطى صاحب الحق حقه فيستثنى من هذا الاهمال « مصح بحنس » للسل اما عدم استخفافه بمرضى الحكومة فراجع لكون القائمين على ادارته الطبية ، كلهم من الاطباء الوطنيين المخلصين لمرضاهم ولبلادهم .

فليتصور القاريء دولة فيها حكومة ، وفيها وزارات ، وفيها مجالس نيابية ، وليس فيها مستشفى . وليتخيل مقاطعات واسعة ومناطق بعيدة محرومة من طبيب رسمي يتعهد الامور الصحية ، اذ لم يكن في المناطق اطباء رسميون للعناية بهذه الشؤون . واذا تعين طبيب في محافظة اوقائمقامية فيكون تعيينه شرفياً او بتعويض لا يتجاوز عشر ليرات لبنانية في الشهر . فيقبل هذا المركز طمعاً باللقب ، او لما قد يجني من ورائه من ارباح تدرها عليه تقارير طبية

شرعية . اما الاهتمام بالمنظمات الصحية ، وبالوقاية من الاوبئة ، وتطهير مياه الشرب ، وتصريف اوساخ القرى فهذه امور ، الطبيعة وحدها مكلفة بالاهتمام بها .

دعني اعود اليك ايها القاريء فاريك العجائب في لبنان .

اذا مرض احد الفقراء او اذا تعسرت ولادة حامل في احدى المقاطعات النائية عن العاصمة ، فيتكفل بذلك المصاب ، القدر وحده فاذا كان هذا ظالماً اسلمه الى القبر ، واذا شاءت العناية انقذته من الموت ، اما اذا اراد المريض ان يلجأ الى حكومته وولية امره ، فعليه ان يحمل مرضه ويأتي الى بيروت ثم يطرق باب وزارة الصحة ، مزوداً باوراق الهوية ، وشهادة طبيب ، ومتسلحاً بمساعدة احد اصحاب الشفاعات ، فتنظر هذه الوزارة بامره ، وترسله الى احد المستشفيات التي سبق ذكرها ، ولايخفى ما تستغرقه هذه المعاملات من الوقت والتأجيل ، والتسويف ، من مميزات الادارة في لبنان ، حتى اذا ادخل المستشفى رأى من المعاملة ما يجعله نادماً على تحمله مشاق السفر من قريته البعيدة ، وفضل الرجوع الى اهله يتعهدونه بحنانهم ويقومون بخدمته ، والقدر يقوم مقام الطبيب ، اما الحامل المحتاجة لاسعاف ، فلا مجال للبحث بامر نقلها ، والولادة لا تسمح بانتظار المعاملات والمراجعات الرسمية . وانظمة الدولة السعيدة تتنازل عنها ضناً بالقوانين المرعية ومحافظة على التعليمات المعطاة ، ويشقى الاهلون في لبنان ، وخصوصاً القديم منه ويحرم ابناؤه من عطف اولئك

الذين تولوا مقدراته ، ولا يخجلون من جباية ضرائبهم الجائرة من سكانه ، جاهلين ان الضرائب تجبيها الحكومات مقابل المنافع التي يتمتع بها الناس ، لقد اوجدت فلسطين ، جارة لبنان ، منظمات صحية واسعة ، وفتحت مستشفيات متعددة يؤمها المرضى . وطهرت مدنها واقاليمها من البعوض الفتاك ، وقام في مصر شبكة واسعة من الادارات الصحية ، تحارب الاوبئة بالرغم من جهل الفلاح المصري وتسليمه الامور للقضاء والقدر ، حتى في مجاهل السودان ، اهتمت السلطات وصرفت مجهوداً عظيماً في سبيل الصحة والوقاية من الآفات الفتاكة . هذا في البلدان القريبة الشرقية ، اذا كنا لا نريد ان نتمثل ببلدان الغرب الراقية بالرغم مما في لبنان من الشبه والتقرب الى تمدن الغرب ، وهنا في هذه البقعة تبقى الحالة الصحية كما كانت في العهود السالفة . ومع هذا يقوم في لبنان جمهورية سعيدة . ويتولى مقدراتها وزارات متعددة احداها وزارة للصحة والاسعاف العام . ويلقب من يتولاها بصاحب المعالي ، امور مخزية وروايات هزلية تمثل على مسرح الحياة في لبنان ، عندما كان هذا ينعم بمساعدة الانتداب ، اما الرقي الذي كان يتميز به لبنان عن كافة الاقطار العربية ، خصوصاً بما يتعلق بالامور الصحية والطبية ، فذلك راجع لجهود ابنائه وافراده ، واقتحامهم ميادين العمل مذللين الصعاب ، ومواجهين ما تضعه السلطات بوجههم من العراقيل . ولقد قام في لبنان مستشفيات ومستوصفات خاصة ، ضاهت مثيلاتها في بلدان الغرب ، واقتنصت زبائنها من كافة البلدان المجاورة ، فكانت فخراً للبنان ودعاية له . فسدت قسماً من الفراغ

الذي اوجدته حكوماته محتفظة لهذه البلاد بمركز عال في ميادين العلم والطبابة والرقي .

— ٩ —

فوضى الادارات

ليس هنالك مجال للتبسط في كافة نواحي الادارة والسلطات ، فشأنها كلها شأن ما ذكر منها ، لم يكن هنالك دائرة واحدة الا وفيها مستشار فرنسي ، هو في الحقيقة رئيسها وصاحب الكلمة الاولى فيها . والموظفون الفرنسيون ، المتفرقون في مختلف الدوائر والدواوين ، يتسلحون بالنفوذ المعطى لهم من الانتداب ، ويتقاضون معاشات وتعويضات اقلها ثلاثة اضعاف ما يتقاضاه امثالهم من الوطنيين ، ناهيك عن الامتيازات التي يتمتعون بها مع نسائهم واولادهم والملحقين بهم ، امتيازات ما حلم بها احد من الموظفين الفرنسيين في بلادهم ، وتعويضات يختلقونها لهم تحت مزاعم شتى ، تبيح الغنائم لاولئك الذين سعد حظهم فارسلوا الى هذه البلاد .

وما كانت هذه الكثرة من الموظفين الفرنسيين ، الا لتزيد الفوضى في مختلف الدوائر والدواوين ، هي فوضى متغلغلة في كافة مصالح الحكومة ، نشأت عن خلق الوظائف ارضاء لهذا وذاك من اصحاب النفوذ والمحاسيب ، ولعدم شعور الموظف ، فرنسياً كان ام وطنياً ، باية مسؤولية توجب عليه خدمة المصلحة التي يقوم عليها ، وخدمة اصحاب المصالح من المكلفين الذين يؤدون الضرائب

لبيت المال ، فيؤمه الموظف في آخر كل شهر ، فيتناول راتبه وتعويضاته .

كان الله في عون من تقذف به مصلحته الى ارتياد دوائر الادارات المختلفة في الحكومة ، اذ يكون عرضة لتحمل ما يصعب احتماله ، على ذوي النفوس الثائرة ، من صلف المأمورين وتحكمهم . لقد ورث مأمورو الدولة عن العهد العثماني اعتقاداً يوهمهم انهم اعلى طبقة ومنزلة من اصحاب المصالح . وارادوا ان يدخلوا في معتقد الناس ، ان من تضطره مصلحة ما لمراجعتهم ، عليه ان يعرف ذلك ، ويتصرف تجاههم بما يقتضيه هذا المعتقد ، فكان السائل يدخل على الدائرة مسترحماً حقاً من حقوقه . وكان الموظف يتكبر ويشمخ كأنه صاحب السلطان المطلق ، اذا رضي عن سائل مسايرة ، او خشية ان يكون هذا الشخص يتمتع بمحسوبية احد اصحاب المقامات والنفوذ ، قضى له مصلحته على أتمها موفراً عليه المراجعات المتكررة والمتاعب المضنية التي يقع فيها من كان محروماً من عطف اولئك المتنفذين والمتاجرين بنفوذهم ، على ظهر المكلفين المساكين ، ولذلك سرى الاعتقاد بين الناس اجمع ، ان من كان له مصلحة او حاجة في دوائر الحكومة ، يجب ان يكون مسلحاً بوساطة وسيط نافذ او زعيم مسموع الكلمة ، حتى ولو كان صاحب المصلحة يملك حقاً ظاهراً ، لقد كان سلاح القوي اقوى كثيراً من سلاح صاحب الحق . والويل لمن لا يشد ازره احد الحاملين سلاح القوة والنفوذ ، ولطالما استغنى صاحب حق عن حقه تهرباً من صعوبة المعاملات ، او خشية اذلال نفسه الثائره ، في الوقوف على ابواب الموظفين

والزعماء ، هذه الروح التي ورثها الموظف اللبناني عن العهد العثماني ، قد تمكنت فيه بدلا من ان تزول في عهد الانتداب ، الذي طغت فيه الاقطاعية والمحسوبية ، وزاد فيه عدد المتاجرين بزعامات متعددة ، من دينية وعائلية ومالية واجتماعية . هي وصمة في جبين الانتداب ساعدت على الحط من الاخلاق في جماعات الموظفين من جهة وفي مجموع الامة من جهة ثانية . الاولون مستهترون لا يشعرون بمسؤولياتهم ويرتكبون المخازي والنقائص . والآخرون يلجأون الى استعمال الطرق الدنيئة لقضاء حاجاتهم حقة كانت ام باطلة ، من شفاعات كاذبة ، او رشوة مغرية . واذا كان في الاطلاق خطأ او ذنب ، فاني اقول ان شذوذ القاعدة كان ضئيلاً في الطرفين ، والشذوذ لا يؤخذ قياساً .

اما العدلية ، فكنت اود ان لا اطالها بكلمة حرمة للقضاء وهو اساس الملك ، ولكني اكون مقصراً اذا تغاضيت عنها بتاتاً . لا شك ان بين القضاة من وطنيين وفرنسيين ، نفر من اصحاب الضمائر الحية والوجدان الصحيح ، ولكن هناك امراً لا يوجد له شبيه في اي بلد ما . ان المفوض السامي الفرنسي هنا ، له الحق في اصدار قوانين لها صفة التشريع ، فكان هذا الحق بيده سيفاً مسلطاً على الحق والعدل ، وكان على القضاة ان يتقيدوا بشرائعه فيحكموا بموجبها كأنها مادة من مواد قانون الحقوق والجزاء . وكم مرة استعمل المفوض السامي هذه الصلاحية ، فحرم صاحب حق حقه واعطاه لمن كان اقوى نفوذاً او اقرب الى قلب المفوض السامي . ويوردون لك امثالا على هذا الشذوذ ، قضايا عديدة اضرب عن

ذكرها ، ولمن رغب في التحقيق ان يسأل المحامين واصحاب الدعاوى المختلفة . هكذا كان يضيع العدل ، وهذا ما اوجد الشك بين الناس بالرغم من اعترافهم بوجدانية القضاة انفسهم . ومتى كان القضاء خاضعاً في بلاد لشخص ما ، او لحاكم ، او لأمير ، تزعزعت الثقة بعدل القضاء ، ويا ويل الامة التي يقضي بها قضاء خاضع لغير العدل ، وتكون السياسة وادارتها قيّمة على القضاء .

— ١٠ —

كيف فهموا الانتداب

لقد كان عمال الانتداب في لبنان يتجاهلون مبدأ الانتداب ، ولم يتقيدوا به في اثناء قيامهم بوظيفتهم ، فالأكثرية الساحقة من اولئك كانت من الفرنسيين الذين خدموا خارج فرنسا ، فيما يسمونه هم ، فرنسا ما وراء البحار ، او بالاحرى في المستعمرات الفرنسية ، فتعودوا على السياسة الاستعمارية ، وكانوا ينظرون الى اللبنانيين نظرهم الى سكان المستملكات الافريقيّة ، وفات رؤساؤهم في فرنسا ان يلقنوهم الاساليب التي يجب ان يتقيدوا بها ، والطرق التي يجب ان يتخذوها في تصرفاتهم في البلاد الموضوعة تحت انتدابهم ، فكانت الخطيئة الكبرى من الحكومة الرئيسية ، انها لم تحسن اختيار عمالها ، وكانت المصيبة على سوريا ولبنان ، انهما بليا بمديرين ومستشارين ، اما كانوا جهّلاً ، او من رجال السياسة الاستعمارية ، او من الذين انتقلوا من السلك العسكري الى السلك الاداري ، ونمت

فيهم روح الاثرة والسلطة ، فكانوا في اعمالهم تارة مستهترين ، وتارة مستبدين ، ودائماً مغرورين ، وكانت الخسارة على فرنسا نفسها ، اذ اضاع عليها عمالها مكانتها التي اكتسبتها على ممر الاجيال عندما كانت فرنسا تدافع عن لبنان وتهتم لشؤونه ، قبل ان تأتي اليه منتدَبة ، ولما صار امره اليها ، غلبت على رجالها روح النفعية . فارادوا ان ينتهزوا فرصة لفرض سيطرتهم واشباع مطامعهم ، فكان مثلنا معها مثل شاب يخطب فتاة ، فيحبها ويتعشقها ، ولا يرى له حياة بدونها ، ويبذل الصعاب في سبيل الوصول اليها ، ولكن ما ان يتزوجها ، حتى يتعرف الى معايبها ، فينقلب حبه الى فتور ، وهيامه الى نفور ، هذا تشبيه ليس من ابتكاري ، بل اخذته من حديث لبطريرك الموارنة ، وقيمته انه صادر من زعيم الحزب الفرنسي في لبنان وسوريا .

لقد اخطأ الفرنسيون فهم الانتداب ، فأساءوا اليه واساءوا الى انفسهم ، لقد كانوا يتصرفون مع اللبنانيين ، كما يتصرفون مع ابناء المستعمرات ، وفاتهم ان لبنان بلد وضع تحت انتدابهم ليساعدوه على الاستقلال ، ولم يوضع تحت سيادتهم ليتحكموا به . واللبنانيون ارقى شعوب الشرق ، يناهزون بعض شعوب الغرب في الرقي والثقافة ، في لبنان ، قلما يوجد اميّون ، واهل لبنان الذين جابوا كافة بقاع الدنيا ، واختلطوا بمختلف الشعوب ، ودرسوا اخلاق كافة الامم ، اللبنانيون الذين كانوا همزة الوصل ، فالتقى في لبنانهم الغرب والشرق ، فاعطاهم الاول من مدنيته الحديثة وعلومه وثقافته ، واحتفظ الثاني عندهم بتقاليد وعادات

اخلاقيـــة سامية ، اللبنانيون الذين اخذوا عن العرب كرمهم وشجاعتهم وكريم ضيافتهم ، واخذوا عن الغرب روح التجـــدد والتطور ، اللبنانيون الذين يشهد بفلاّحهم ابناء الغرب نفسه ، انه من ارقى فلاحي الدنيا بمعيشته وبنظافته ، بالرغم من عدم مساعدة حكوماته له ، اللبنانيون وهذه حالتهم ، يصعب عليهم ان يكونوا مستعبَدين من اي امة اجنبية ، أكانت هذه الامـــة فرنسية ام انكليزية ام سواها ، ولهذا رأوا في الانتداب ، المطبق عليهم على هذه الصورة ، اجحافاً لا يطيقون احتماله ، فعمّ الامتعاض ، وبات اللبنانيون يرقبون الوقت الذي فيه يتخلصون من احكامه المذلة ، ومطامعه الجائرة . ومما يزيد في تألمهم انهم مقيدون عن اظهـــاره بقيود غريبة في بابها ، فالحرية الفكرية لم تعرف قيوداً كتلك التي كانت موضوعة عليها هنا ، وهذا الشعب اللبنـــاني الراقي لا يجوز لكتّابه ان يكتبوا ما يجول في خاطرهم ، ولا لصحافييه ان يعبروا عن مبتغيات الناس ، ممنوع عليهم انتقاد السلطات لا سيما الفرنسية منها ، وكان اذا قعد في المفوضية رجال ارهابيون ، مكنوا سلاسل القيود الى درجة لا يطيقها الرجل الابي ، وبالكاد يمر اسبوع بدون ان تعطل جريدة لمقال نشرته ، او لخبر دسته بـــين اخبارها ، لم يرض عنه الاسياد في قصر المفوضية ، والغريب في الامر ان هـذا التقيد الفكري كان يتزايد مع مرور السنين ، فالذي أجيز سنة ١٩٢٦ مثلاً اصبح ممنوعاً سنة ١٩٣٢ ، وهـــذا امسى جرماً سنة ١٩٣٩ . ومن راجع مجموعات الصحف الصادرة في لبنان ، من اول عهد الانتداب الى آخره ، يعجب لهـــذه القيود تتحكم في رقاب

الكتّاب ، وطالبي الاصلاح والمفكرين ، في الوقت الذي كان منتظراً ان تخف هذه القيود ، اذا كان القوم حقيقة ينوون ان يدرجوا البلاد الى استقلالها ، كما فرضت عليهم جمعيـــة الامم ، ومعاهدات جنيف . ولكن هل ينتظر من هذه المؤسسة الوهمية ، وليس لها من سلطة غير وضع التقارير ، والقاء الخطب ، ان تعاند دولا انتصرت في الحرب ، واوجدتها سياسات تخفي وراءها نياتها ومطامعها وجشع استعمارها ؟

اللبنانيون قوم اشتهروا بالمسالمة ، فكانت هـذه المسالمة سبباً من اسباب التعدي الذي لحق بهم من مختلف الامم والفاتحين ، ولا بد لهذه الأمة من روح ثورية تُنفخ فيها، فتمنع عنها تعدي المعتدين الطامعين ، واني عنـــدما اقول بروح ثورية ، لا أعني اضرام ثورة دموية ، فنحن اللبنانيين أضعف من ان نتغلب عـــلى دول كبيرة بقوة السيف ، ولكن اريد من ابنـــاء امتي ان يتسلحوا بنفوس ثائرة ، تأبى الاستسلام لقوى الجشع والطمع ، وتحارب المستعمرين والمستثمرين ، المستعبدين باسلحة قاطعـة ، لكنها لا تهدر دماً ولا تزهق روحاً ، هي اسلحة المقاطعة ، وعـدم التعاون ، والعصيان السلمي ، ولا بد ليوم يأتي تنتصر فيه هـــذه الأسلحة ، على كل ما تصنع المعامل الجهنمية ، من طائرات ، وقاذفات ، ودبابات ، فدولة الظلم ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة .

الفصل الثالث

الاستثمار

— ١ —

ادّعاء باطل

مهما تبجحت الدول التي خاضت غمار حرب سنة ١٩١٤ ، بمبادىء ادعت انها حاربت من اجلها ، ومهما انتحل ساسة تلك الحرب من اعذار دفعتهم لامتشاق الحسام بوجه معتدٍ ظالم ، اما دفاعاً عن حق مهضوم ، او انتصاراً لامة مسالمة محايدة كانت عرضة لاعتداء مثير ، وبالرغم من الدعايات التي نشرتها على العالم كل من الدول المشتركة في الجريمة الكبرى ، فالتاريخ لن يقول عن تلك الحرب الا انها حرب سداها الطمع في الاستعمار ، ولحمتها التسابق في ميدان الكسب والاستثمار ، وقد تحاسدت الامم الاوروبية الكبرى ، فكانت كل منها ترغب في ان يكون لها سيطرة اوسع من مزاحميها على عوامل السياسة العالمية ، لينتج لها من وراء ذلك سيطرة على العوامل الاقتصادية . ولم يكن هدف المنتصر سوى انتزاع ممتلكات او مستعمرات المقهور ، ليزيد بها غناه ، ولتؤول الى شعبه السلطة والسيادة في حقلَي السياسة والاقتصاد ، اما المبادىء التي كان يتغنى بها المتحاربون ، والانتصار

لحرية الشعوب على حد الفلسفة « الولسنية » ، فلم يكن لها اي تأثير محسوس ، وباستثناء الانقلاب الذي حدث في روسيا ، وقام على اثره النظام الشيوعي، فان الحرب العالمية الاولى كانت حرباً مادّية بحتة ، اضرمت نارها كتل الاستعمار والاستثمار ، واستغلها بعد الحرب رجال المال والرأسماليون ، وهذه الرأسمالية ، التي قامت على انقاض الاقطاعية بعد الثورة الفرنسية ، والتي لا تنقص شرورها كثيراً عن شرور الاقطاعية ، والتي كانت تحلم العامة بان تتخلص من احكامها وتحكمها بمقدرات الضعفاء من الشعوب لمصلحة رجالها ، رأينا هذه الرأسمالية القاسية تعزز قواها ، وتؤيد سلطتها ، وتكتسب النفوذ القوي في توجيه سياسة الدول ، حسب رغباتها ، ومصالح افرادها ، ولولا الثورة الشيوعية التي اندلعت في روسيا ، تخلصاً من مظالم النظام القيصري ، المبني على استعباد الخاصة العامة لأجدبت حرب ١٩١٤ من اي نفع للعالم ، اذ ان المفروض في الحروب الكبرى ، ان تقلب الانظمة ، وعوامل المدنية الى الاحسن ، غير ان حرب ١٩١٤ ، شجعت روح الاستعمار ، وقوّت في اصحاب المطامع ، الرغبة في استخدام الغير ، واستعباد الضعيف ، والجشع في الاستثمار ، فكان لا بد من حرب عمومية ثانية ، تأخذ شكل ثورة عالمية واسعة ، فتدك سلطات الظلم ، وتقضي على نظم رجعية اصبحت غير موافقة لروح الزمان ، لتقوم على انقاضها نظم اكثر انطباقاً على المعقول والمقبول ، وتكون في مصلحة المجموع ، فلا يبقى هذا مسخّراً لخدمة اقلية متحكمة ، تفرض ارادتها ، ويكون لسلطانها ونفوذها القول

الفصل في مقدرات الامم والشعوب ، والاشتراكية هي، بلا شك، افضل النظم لحياة الشعوب ، ولعل هذه الحرب التي تتنازل فيها قوى متعددة ، وتتشابك في عراكها شعوب تتبنى انظمة وفلسفات متباينة ، يكون في نتيجتها ، قيام نظام مبني على حرية صحيحة ، ومساواة صادقة ، واخاء لا غش فيه ولا خداع . عندئذ نقول مرحى لهذه الحرب . انها بالرغم من ويلاتها وفظائعها ، كانت خيراً على البشرية ، وليسامح الذين اشعلوا نارها ، فانهم كانوا مصلحين .

لا مشاحة في القول ان سلطان الرأسمالية ، قويت شوكته بعد الحرب الماضية . فاصبح العالم كله ، باستثناء جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، تحت نفوذ الرأسماليين ، يتحكمون بمقدرات الناس ، بواسطة الحكومات التي كانت تتأثر بسلطتهم ، اما عن طريق المساعدة ، واما عن طريق المعاندة. وخضعت الانظمة السياسية لمقتضيات النظم الاقتصادية . واصبحت الكتل المالية والشركات الاستثمارية ، تعمل بواسطة عملائها السياسيين لما يوافق مصالحها . ودالت دولة المال، والمال رب ثان ، وان شئت فقل ولا تخف، هو رب أول . وانقسم الناس الى طبقة عنيدة جشعة ، تريد ان تقبض على معالم الحياة ، وتكون لها الكلمة العليا في كافة الامور ، متسلحة بقواها المالية ، وبمقدراتها على التحكم باموال العامة ، وبارواح الناس . وطبقة ثانية عاملة ، مجاهدة في سبيل التخلص من استبداد الطبقة الاولى . وهكذا كانت الحرب بين الطبقتين ، بين حاكم يعمل للاحتفاظ بسلطانه ، ومحكوم يسعى للتحرر من حيف لحقه ، من أسياده وحكامه .

وكانت الاقطار الشرقية اكثر البلدان تألماً وتوجعاً من جور المتحكمين . اذ ان هذه الاقطار تحت ستار الحماية ، او الانتداب، او التمدين ، كانت مسرحاً لاطماع الغربيين. والشرق بنظر اولئك سوق لتجارتهم ، ومنجم يستخرجون منه ثرواتهم . والشرقيون عمال لهم اجرتهم وكفاف يومهم . اما السيادة ، اما الثراء ، اما الحكم ، فهذه امور مختصة بابناء الآلهة من الغربيين . وليس للشرقي ان يطمح الى شيء من الحرية والسيادة والاستقلال والكفاف . وقد كانت الحالة في بلادنا ، مثلاً رائعاً لتسلط المستعمرين ، او المنتدَبين ، اذا شئت ان تتكلم باللغة « الولسنية » ، ومذ وطئت اقدامهم سوريا ولبنان ، اصبحت هذه البلاد حقلاً للاستثمار ، وسوقاً تتلاعب فيها مطامع الشركات والكتل المالية المختلفة ، والسابق منها الجواد . ولو سعت هذه القوى لاسعاد الاهلين ، فتستفيد هي من اسعادهم ، لقيّدنا لها ذلك منّة. غير انها ، واني بكل راحة ضمير ، لا استثني منها واحدة ، كانت تنظر فقط الى مصلحتها وزيادة مكاسبها وثروة اصحابها ، ولو كان من وراء ذلك افتئات على حق البلاد، وسلب الثروات الوطنية. كان همها ان تحصل على الربح السريع ، بدون ان تهيء له مشاريع تنتفع منها البلاد ، وتدر عليها ، بالنتيجة، الارباح المرغوبة . وقد كانوا في اكثر اعمالهم يعملون كأنهم على سفر، يأخذون ما تطاله يدهم، لان غدهم مجهول. ولعلهم كانوا ملهمين . وبالرغم من حسن نية بعض اقطاب السياسة الفرنسيين واخلاصهم، لم تستطع هذه الصفات الشريفة ، ان تتغلب على جشع الكتل الرأسمالية ، فكانت هذه الكتل ، تدير من وراء

الستار سياسة فرنسا الاستعمارية لمصلحتها ، غير آبهة لما قد تحدثه مطامعها من رد فعل في عواطف السوريين واللبنانيين تجاه فرنسا نفسها ، فرنسا التي احبوها على مر الاجيال ، ثم ما أن استقرت في ديارهم في مقام المنتدَب ، او الوصي ، حتى ظهرت لهم طامعة في اموالهم ، عاملة على اذلالهم ، وسلب حرياتهم ، لمنفعة شرذمة من ابنائها النفعيين المستثمرين .

— ٢ —

البنك الجاني

وكانت فاتحة العمليات الاستثمارية البنك اللبناني السوري، وهو وريث البنك العثماني الذي تحول، بموجب قرار من المفوض السامي الفرنسي ، الى بنك اصدار ، واعطي امتيازات لم يتمتع بها بنك في بلد ما ، ذلك كله لان معظم مساهميه من الفرنسيين . فعندما استقر سلطان الانتداب على لبنان وسوريا ، أصدر هذا البنك الليرة اللبنانية السورية ، واضعاً اياها بالطبع تحت انتداب الفرنك الفرنسي . والفرنك الفرنسي ، بعد الحرب الماضية ، كان في مهبّ الرياح ، تارة في الحضيض وطوراً يتنفس الصعداء تبعاً للسياسة الفرنسية ، التي ما باتت يوماً على استقرار سياسي او اقتصادي . فلما ظهرت الليرة اللبنانية الى الوجود ، كانت تساوي اربعين غرشاً ذهباً ، ثم ما لبثت ان بدأت تتقاذفها امواج السياسة الاقتصادية الفرنسية ، والليرة بين طلوع ونزول ، فاصبحت ، يوم كتابة هذه

السطور في آذار سنة ١٩٤٤ ، تساوي ثلاثة غروش فقط لا غير . فكان هذا الفرق الشاسع ، خسارة على اهل البلاد ، وفي الواقع ان الماليين يقولون لنا ان منطقة سوريا ولبنان كانت تملك ذهباً يقدر باربعين مليون ليرة قبل اصدار الليرة السورية ، فاصبحت الثروة الذهبية لا تزيد على المليونين ليرة يوم تقلص ظل الاستعمار الاقتصادي الفرنسي عن هذه الديار .

وقد كان البنك اللبناني السوري، طوال مدة الانتداب ، ذا تأثير ملموس في سياسة البلد . وكان التشريع الاقتصادي ، المحتكر من المفوضية العليا الفرنسية ، خاضعاً لرغبات ومصلحة مساهميه والقائمين على ادارته . فقانون وفاء الديون الذي اصدرته المفوضية في أوائل عهد الانتداب ، والمعروف عندنا بقانون « وويير ده كه » السكرتير العام للمفوضية في ذلك الحين ، والقاضي بدفع الليرة الذهبية ليرة سورية ، وضع خصيصاً لمنفعة البنك المذكور ، الذي كان مديناً باموال كثيرة ، مودعة في صناديقه . وتراكمت بسبب «موروتوريوم» الحرب ، فارجعها الى اصحابها ليرة ورقية مقابل كل ليرة ذهبية . وكانت ثروة هذا البنك تتزايد يوماً عن يوم بنسبة لا تتفق وقانون الارباح التجارية المعقولة . فكانت اسهمه ترتفع باطراد ، بالرغم من التدابير المشبوهة التي كان يتخذها مجلس ادارته الجالس سعيداً في باريس ، للتمويه على اللبنانيين والسوريين ، وحملة الاسهم القليلة منهم . ومن اساليبه غير المشروعة ، انه كان يدفع معاشات كبيرة لبعض اصحاب النفوذ من الوطنيين ، تحت ستارات مختلفة ، ليُسكت الالسن النقّادة عن مخالفاته ، ومختلف

اجراءاته الاستثمارية . ولا شك في ان هـــذا البنك كان الواسطة الكبرى لسلب البلاد ذهبها . ولا يزال اللبنانيون والسوريون ، يذكرون ان الجـــنرال « دانتز » المفوض الفرنسي ، الذي ترك البـــلاد على اثر انهزام الفيشيين ، سحب من البنك المذكور الذي كان يتقيد باوامر المفوضية ، كافة القيمة الذهبية الموجودة في خزائنه ، وحملها معه الى فرنسا ، وهي قيمة تقدر باربعمائة الف ليرة عثمانيـة ذهباً كما يقولون .

— ٣ —

المصالح المشتركة

اما البالوع الاكبر لثروة البلاد ، فقـــد كان مستقراً في ما اصطلح الانتداب على تسميته بالمصالح المشتركة . وهي مجموعة من الدوائر التابعة للمفوضية العليا ، والغاصـة بالموظفين الفرنسيين ، يعاونهم نفر من الموظفين الوطنيين ، يديرون شؤون هذه المصالح ، ذات المنافع العامة ، والمشتركة بين لبنان وسوريا .

كانت هذه الادارة ، او بالأحرى هذه المجموعة من الادارات ، تستوفي الواردات الجمركية ، وواردات عـــدة مصالح كمصلحة المفرقعات ، والشركات ذوات الامتياز ، والفنارات ، وجوازات السفر ، الخ... فتتصرف بها دون ان تؤدي اي حساب عنهـــا للحكومة الوطنية . فبعد ان توزع المعاشات الباهظة على موظفيها ، وتسرف بمصارفات الفرنسيين وتعويضاتهم المعقولة منها وغـــير

المعقولة ، وبعد ان تؤدي لبعض الشركات الفرنسية ، كشركة سكة الحديد مثلاً ، خسارتها المزعومة الناشئة عن تعهد البلاد لها بالضمانة الكيلومترية ، بموجب قانون الحاكم « كايلا » ، وبعد ان ترصد القيم المختلفة لمشاريع تقوم بها المفوضية على حساب واردات البلاد ، كمشروع مطار طرابلس مثلاً ، الذي كلف مئات الالوف من الليرات ، وتبين بعدئذ عدم صلاحه للعمل ، والذي ما انشيء الا ليدر الارباح على الذين قاموا به ، ومشروع توسيع بور بيروت الذي تكفلت البلاد بنفقاته ، ثم اعطيت الاراضي الناتجة عن التوسيع لتستثمرها شركة البور الفرنسية ، اقول بعد ان ترصد القيم الكبيرة لمثل هذه المشاريع التي تكون معظم فائدتها لغير البلاد واهلها ، توضع القيمة الباقية لحساب الحكومات الوطنية . ولكن هل كان يصل الى هذه الحكومات شيء ؟

سؤال لا بد من الجواب عليه بصراحة :

في بدء عهد الانتداب ، كانت ادارة المصالح المشتركة تعطي الحكومات حصة من هذه الارباح تبلغ قيمتها بضع مئات من الوف الليرات . ثم كانت هذه الحصة تتدنى سنة فسنة حتى انقطعت تماماً في المدة الاخيرة . فتلتجيء الحكومات الى فرض الضرائب على الشعب بغية الوصول الى توازن الموازنة . فهل سُمع ان بلاداً تحرم من مواردها الجمركية ليتمتع بها جمهرة من الاجانب عن البلاد ، يأكلون هذه الاموال بحجة انهم يديرون شؤوناً مشتركة بين سوريا ولبنان تقصر عن ادارتها هذه الدول ، فيتسلمونها

منعاً لغبن يقع من احدى الدولتين على الثانية ، وتكون النتيجة ان يقع الغبن من الوكيل على كلتا الدولتين ، وتحرمان من موارد هذه الايرادات الطائلة التي لا تقل عن ثلاثمائة مليون ليرة في اثناء مدة الانتداب . هـــذه هي بعينها حكاية القرد الذي وكل بقسمة الجبنة بين القطتين فاذا به ، بين تقسيم وتقضيم ، يلتهمها كلها وتحرم القطتان من اية حصة منها .

ومما يزيد النكاية في مهزلة المصالح المشتركة ، ان الادارة القائمة عليها كانت تتفرد بالتشريع الجمركي دون ان يكون للحكومات الوطنية رأي بذلك . فكان هذا التشريع وسيلة لدر الارباح على الشارعين ، ولو تضررت اقتصاديات البلاد . فالمعقول ان الرسوم الجمركية في بلد ما يجب ان توضع لصيـــانة صناعـة البلاد وزراعتها وحمايتهـا من المزاحمة الاجنبية . اما هنا ، فكان الامر على عكس ذلك تماماً . فبدلا من ان توضع الرسوم الكبيرة على المستورد من الخارج ، كان التشريع يقضي بتخفيف المكوس عنه ، اذا كان هـــذا المستورد من فرنسا او من بلاد اخرى لفرنسا مصلحة في مسايرتها . خذ مثلاً ، لقد أوجد الاخوان « روميّة » في الشام مصنعاً للجلد ، ابتدأ عمله برأسمال كبير ، وابتـدأ ينتج من الجلد اجناساً تزاحم ، بجودتهـــا ، الوارد الاجنبي ، فقضى التشريع الجمركي بتخفيض المكوس على الجلد الاجنبي ، وقسم كبير منـــه يأتي من فرنسا لدرجة أوقع هـــذا المصنع الوطني الناشىء بعجز أودى به الى الافلاس ، فمات وهو في طفولته ، وقضي بذلك على انتاج كان ينتظر له النجاح الاكيد . وما اصاب هذا المصنع اصاب

غيره من مصانع الصابون ، ومصانع الخمور ، ومصانع الحرير ، وغير ذلك ايضاً مما لا نستطيع تعداده الآن . اما البضائع التي لا قبل للبلاد بصنعها هنا ، فكانت تزاد عليها الرسوم الجمركية بشكل غير معقول ، لتجني ادارة المصالح المشتركة منها ارباحاً مكدسة ، ولو ارهقت البلاد بهذه التكاليف . فالادوية مثلاً التي لا غنى للبلاد عنها ، كان على مستوردها ان يدفع عنها مكوساً وتكاليف تزاد على اثمانها بغية زيادة الايرادات الجمركية .

ومثل الادوية مثل كثير من الواردات الغذائيـــة ، كالارز والسكر والبنزين والكاز وغير ذلك . أتريد ايهـــا القارىء ان تتعرف الى امور اكثر غرابة ، فاسمع اذن : لقد كانت البلاد بحاجة الى كميات كبيرة من الزفت لتفرشه على طرقاتهـــا الكثيرة ، وكان الزفت يستورد من الخارج على يد الشركات الاجنبية ، واعظمها شأناً شركة « شل » ، وكان الجمرك يستوفي رسوماً كثيرة وكبيرة عن المستورد من هذه المادة ، فجاء من يقول ان هـــذه المادة الغالية يوجد مثلها ، ولربما افضل منها في منطقة اللاذقية ، فلماذا لا تستفيد البلاد من موجوداتها ، فيوفر من ثروة البلاد ما لا يستهان بـه ؟ وقام عندئذ شركة اسمها شركة « زفت اللاذقيـة » ، ولكن لم يرق للمصالح المشتركة هذا الامر ، لانه يحرم هذه الادارة من مدخول يدر عليها مئات الالوف من الليرات ، فحاولت بشتى الطرق ان تقتلها في مهدها ونجحت في محاولتها ، ولا بد لها ان تنجح ، ما دام التشريع بيدها ، فتوقف عمل هـذه الشركة ، ونزلت اسهمها الى حيز العدم ، وبقي الزفت يستورد من الخارج ، وصناديق المصالح

المشتركة تتقبل الاموال الكثيرة من الرسوم عليه . وبقي الامر كذلك طيلة مدة الانتداب ، الى ان وقعت الحرب وانقطع وارد الزفت الاجنبي بسبب صعوبة النقل ، عند ذلك صحت من رقادها شركة زفت اللاذقية ، ولم يعد للمصالح المشتركة من مصلحة في معاكستها ، فأخذت تصدّر من الزفت الكافي الى لبنان وسوريا . وكان زفتها اوفر جودة وارخص ثمناً من زفت الاجنبي . بركة من بركات الحرب التي اوجبت على السلطات الرجوع الى ثروة البلاد ، لتوفر عنها اموالا ذهبت في ذمة اصحاب المطامع الاستعمارية طيلة ربع قرن .

هذا مثال من امثلة كثيرة ، تكشف لك عن اساليب الاستعمار الاقتصادي الذي ناء به لبنان وسوريا في عهد الانتداب المشؤوم .

واليك قصة ثانية لا تخلو من الطرافة : المعلوم ان لبنان ينتج ، من الليمون والبرتقال وكافة الثمار الحمضية ، موسماً لا بأس به ، يزيد كثيراً عن المقطوعية المحلية ، وهو يفتش عن بلدان يصدر اليها ما يفيض عنه ، والمعلوم ان فرنسا ، الوصية على لبنان ، او أم لبنان على حد قولهم ، المفتقرة الى الثمار الحمضية ، تستورد هذه المواد من الخارج ، فكان من المعقول والطبيعي ان تفضل الانتاج اللبناني من هذا النوع على أي انتاج غريب عنها ، بذلك تحصل هي على حاجاتها في الوقت الذي تشجع فيه المنتوجات اللبنانية . فهل كانت تفعل ذلك ؟ الجواب عند مزارعي البرتقال ، هم يقولون ان فرنسا كانت تضع الصعاب في وجه البرتقال اللبناني ، وتبهظ كاهله برسوم جمركية باهظة اذا دخل الى بلادها ، بينما هي تفتح ابوابها بوجه

البرتقال الاجنبي الوارد اليها من بلدان اجنبية ثانيـــة اوروبية ، بذلك تقضي مصلحتها السياسة والاقتصادية ، وان قضت بذلك على مصلحة هـذا الابن البائس ، كان ذلك يوم كانت فلسطين تصدر كل برتقالها الى انكلترا نفسهـــا ، حتى ازدهر موسم الثمار الحمضية في فلسطين وضعف هذا الانتاج في لبنان . كانوا يدعون ان المنتج اللبناني لا يهتم ببرتقاله ، ولكن ما هو واجب الوصي على القاصر والوصي بيده التشريع ، وبيده الحل والربط ، وبيـــده وسائل التشجيع ووسائل التضعيف ؟ قاتل الله عـــدم الاكتراث والاستخفاف ، لا سيما اذا كان ذلك صادراً عن ام تجاه اولادها ، او عن وصي تجاه من وكل اليه امر مساعدته والعناية به .

هذه امثلة قليلة للسياسة الجمركية التي اتبعوها طيلة ربع قرن مضى ، فقد كانت خراباً على اقتصاديات البـــلاد ، وماذا كانت النتيجة ؟ زيادة الوارد ، وتناقص الصادر ، فكانت نسبة الاول الى الثاني تعادل نسبة خمسة الى واحد ، وهل تعيش بلاد يخرج منهـــا خمسة غروش ليدخلها غرش واحـــد مقابل الخمسة ؟ كيف كانت تصرف الاموال المشتركة ؟ فهذا سؤال يجيبك عليـــه الموظفون الفرنسيون في تلك الادارات ، اذ ان ميزانية المصالح المشتركة لم تكن تنشر ، بل كانت تقرأ في كل سنة مرة ، على مندوبين من الحكومتين اللبنانية والسورية يرجع الفضل في تعيينهم لأسيـــاد المفوضية العليا ، بدون ان تسلم اليهم نسخاً عنها للدرس ، وكان الله يحب المؤمنين ، ولكن الامر الذي يعرفه الجميع ، هو ان الموظف الفرنسي كان يتقاضى من المعاشات والتعويضات ما يستنفد اكثر

المداخيل ، له معاش اساسي كبير ، وله عـــدا عن ذلك تعويض لانتقاله من بلاده يضاعف المعاش الاساسي ، وله تعويض عائلي على حدة ، ثم تعويض تدفئة ، ثم تعويض غـلاء المعيشة ، ثم تعويض اجازة في الصيف ليذهب في اثنائهـــا الى فرنسا مع عائلته ، واذا كانت العائلة من ذوات الرحمة على الحيوانات فألفت كلباً او هراً ، فلها الحق ان يرافقها في السفر وعلى الخزينـة ان تدفع النفقات ، والاغرب من ذلك ان العائلة ، اذا ما رغبت عن السفر في الاجازة ، فلها ان تأخذ مجموع هذه النفقات وتضعها في صندوقها الخاص ، كل ذلك على حساب الخزينة السائبة . ولقـد كان الموظف الفرنسي يتقاضى الاموال الطائلة ، بينما زميله الوطني يتعثر بميزانيته فلا يقوى على العيش الا قانعاً بالضروريات من الحيـاة ، فعندما كان المدير الوطني في الدولة اللبنانية يتقاضى مائتي لـــيرة ، كان المستشار الفرنسي لدى ذلك المدير يتقاضى من ثمانماية الى الف ليرة ، والضاربة على الآلة الكاتبة من الفرنسيات ، تتقاضى من ثلاثماية الى اربعماية ليرة . وفوق كل ذلك ، للفرنسي الحق في ان يعفى من كافة الرسوم الجمركية ، على ما يستورده من البضائع والمواد الغذائيـة والبنزين لسيارته ، كل هذه يشتريها بارخص الاثمـان من المخازن التعاونية المختصة به وبابناء جنسه ، معفاة من كافـــة الرسوم والضرائب والتكاليف ، اذ لا رسوم عـلى الفرنسيين وبضائعهم ، بينما كان على رئيس الجمهورية نفسه ان يدفع ، او ان تدفع عنه خزينة الدولة رسوماً جمركية عن الوارد له ، من سيارات او بضائع او اي مادة تدخل البلاد من الخارج . امتيازات غريبة كان يتمتع بها الفرنسيون

عندنا ، مما لم يتمتع بمثلها المنتدبون الآخرون ، لا في فلسطين ولا في غيرها من الاقطار المجاورة .

وعلى ذكر الامتيازات ، لا بد من بعض التوضيح عن الشركات الاجنبية الاستثمارية التي كانت تنعم بخيرات البلاد ، وتتحكم بمرافقها ، دون ان يكون لنا منها اي حصة من الغنم ، فمن شركة الكهرباء والتراموي ، الى شركة سكة الحديد ، الى شركة الماء ، الى شركة البور ، الى شركات غيرها ، اصغر من التي ذكرت ، لكنها ليست اقل تحكماً من اخواتها الكبيرات . اما شركة احتكار الدخان ، فسنفرد لها كلمة خاصة ، ان هذه الشركات واكثر مساهميها كانوا من الفرنسيين ، لها من السلطان اكثر بكثير مما للحكومة المحلية ، اذ ان كلاً منها لها تشريعها الخاص ، ولها نفوذها الاقتصادي والسياسي ايضاً . واذا كان لكل منها شروط مكتوبة ، فما من واحدة من تلك الشركات كانت تتقيد بتلك الشروط ، الا عندما تكون هذه مؤاتية لمصلحتها الخاصة ، اما عندما يكون هناك شرط يقيدها تجاه البلاد ، او تجاه المكلف اللبناني ، فهناك في المفوضية العليا دائرة تسمى دائرة الشركات ، تفسره حسب رغبات الشركة ومساهميها ، ضاربة بحقوق اللبنانيين عرض الحائط . ولطالما ضج الاهلون وشكوا سوء معاملة هذه الشركات ، ولكن عبثاً يحتجون وعبثاً يضربون . فالاستعمار يقضي بالاستثمار ، والاستثمار لا يرحم ، واذا كان المفروض في الشركات الاستثمارية ان تعطي حصة من ارباحها الى الحكومات ،

فحكومتنا لم تأخذ مرة واحدة شيئاً من هذه الارباح، لان ميزانيات هذه الشركات ، كانت لا تظهر الارباح التي كانت تربحها . ولم يكن للحكومات المحلية صلاحية للاطلاع على هـذه الميزانيات ، فالمفوضية هي المراقبة الوحيدة ، هي « تدقق » في الحسابات، وعلى البلاد ان ترضخ لتقاريرها مهما كانت وكيفما كانت، اما الموظفون الموكلون بتلك الدائرة ، والذين كانوا رقباء على الشركات ، فانهم ينعمون بالرفاه والثراء . اذن ، فلتصرف هذه الميزانيات كما تريد الشركات ، ولتقنع البلاد بالتفرج على هذه المهازل .

— ٤ —

نفخ في الهواء

وعدتك ايها القارىء بكلمة خاصة عن قضية احتكار الدخان من قبل شركة الريجي ، وها أنا أسوقها اليك باختصار:

عندما انتهت مدة احتكار الدخان من قبل الريجي التي سيطرت على هذه الثروة في ايام الدولة العثمانية ، رجع الى البلاد حقها في استثمار هذا المورد . وزراعة الدخان في لبنان وفي اللاذقية زراعة واسعة ، وموسم الدخان موسم خصب ، بامكانيته سد حاجات البلاد ، وتصدير كميات منه الى الخارج ، فازدهرت عندئذ هذه الزراعة ، وانبثق عنها تجارة واسعة ، وتعددت مصانع التبغ ، وكان عمال هذه المصانع يعدون بعشرات الالوف ، ووضعت الحكومة على الدخان ضريبة « البندرول » ، كما فعلت بقية الدول

المجاورة التي كانت تحت الحكم العثماني ، كفلسطين والعراق وشرق الاردن وغيرها . وكانت ضريبة « البندرول » تغذي خزينة الدولة بايرادات لا بأس بها ، في حين ان الوفاً من الاهلين وجدوا في زراعة الدخان وتجارته باباً مفتوحاً للعمل والتعيش . ولكن شركة الاحتكار ، التي كانت تنعم بامتيازاتها عندما كانت تقبض على هذا المورد ، واغلبية مساهميها من الفرنسيين ، لم يرقها ان تذهب من يدها هذه الغنيمة ، فقامت تسعى ، بما لها من نفوذ على اقطاب السياسة في فرنسا ، لكي تستعيد امتيازاً خسرته . واقطاب السياسة ، في فرنسا ، كانوا ينفذون أغراض اقطاب المال . وكانت ايام المفوض السامي « الكونت ده مارتيل » ، وهو من الحزب الاستعماري ، والكونت ده مارتيل رجل ضلب ، مستبد ، لا يحترم احداً ، ولا يبالي بآراء الغير ، قال ده مارتيل يجب ان يعود الاحتكار ، وتذرع بسبب ظاهري ، ان في الاحتكار ربحاً للخزينة ، ولكن ابسط الناس ايقن ان الدافع الحقيقي هو ان الشركة الاحتكارية الماضية ، التي بقيت تعمل في لبنان كشركة خاصة بعد سقوط امتيازها ، هالها ان تزاحمها الشركات الوطنية المتعددة ، فاخذت تلحف في الطلب ، وكان مساهموها في باريس يطالبون حكومتهم بفتح باب الاحتكار لهم ، والبلاد الموضوعة تحت انتدابهم يجب ان تكون مجالا لاستثمار اموالهم ، وايدهم في طلبهم المفوض السامي ده مارتيل ، ولا غرو فهو رجل استعماري ، وله مصالح استثمارية خاصة في هذا الاحتكار ، فضلاً عن مصلحة الكثيرين من بني قومه ، وقامت البلاد بامرها تحارب الفكرة ،

وتزعّم حركة المقاومة البطريركية المارونية، ومقام البطريرك الماروني في لبنان رفيع، وهو يتمتع بزعامة روحية وزعامة زمنية، فأرسل الى المفوض السامي مذكرة في ٩ كانون الاول سنة ١٩٣٤ يطلب ان لا يزج البلاد في مصيبة الاحتكار، ولما لم يأخذ جواباً عنها ارسل برقيات ومذكرات متعددة الى حكومة باريس بتاريخ ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٤، و ١٥ شباط سنة ١٩٣٥، و ٢ نيسان سنة ١٩٣٥، وكلها بقيت بدون جواب. ولم يتورع عن مخاطبة جمعية الامم رأساً، ولكن من يستمع لصوت لبناني شرقي يشكو من ظلامة اوروبي استعماري، وهل تضحي الحكومة الفرنسية بمصالح ابنائها محافظة على مصلحة بلاد هي منتدَبة عليها؟ أيكون الانتداب عائقاً عن المضي في موجبات الاستعمار؟ وهل يجسر مجلس جمعية الامم ان يرفض ما تطلبه فرنسا مسايرة للبنان او سوريا؟ مسكين «ولسن» الرجل الطيب القلب، فما لهذا خلق جمعية الامم، ولكن هو الاستعمار الاوروبي ذهب بولسن وبمبادئه، وولسن اليوم هادىء في قبره، وروحه تتألم في عالم اللاوجود، والمستعمرون الاوروبيون لا يأبهون للارواح.

ثم قويت المشادة بين المفوض السامي ده مارتيل والبطريرك الماروني، وعمد الرجل القابض على السلطة الى وسائل التهديد، وحقد على سيد بكركي، وخلق له في لبنان سلطة روحية اعلى من سلطته في شخص البطريرك تبوني، بطريرك الطائفة السريانية، وهي لا تزيد عن الثلاثة الاف نسمة في لبنان، فعمل منه بامر المملكة البابوية كردينالَ، والكردينال امير من امراء الكنيسة

البابوية ، تعلو رتبته الكنسية على رتبة البطريرك ، ولكن اللبنانيين لا يعرفون في الكردينال الا اميراً دينياً ، ويحتفظون بالزعامة الحقيقية للبطريرك . واشتدت الحركة ، واضرب المدخنون عن التدخين ، ولم يجرؤ المجلس النيابي على الموافقة على الاحتكار ، وجبنت الحكومة الوطنية عن القبول به ، وعمت سوريا ولبنان حركة وطنية جارفة ، ولكن ده مارتيل تمادى في غيه ، وضرب بارادة البلاد باسرها عرض الحائط ، واصدر قراراً بالاحتكار للشركة المعهودة ، فاذا كان اللبنانيون والسوريون لا يقبلون برضاهم ، فلتكن القوة واسطة لاخضاعهم . وايدت باريس معتمدها في سوريا ولبنان ، وسكتت جمعية الامم عن هذه الجريمة ، وخرست الشرائع الدولية عن هذا العمل ، ووضع كابوس الاحتكار على البلاد ، فليضرب الضعفاء رؤوسهم في حائط المبكي القاسي ! وليطلب اللبنانيون عونهم من الله .

انا لا ادعي اني احطت بكافة الاساليب الاستثمارية التي اخضعت لها البلاد طوال ربع قرن ، ولكني قد اكتفيت بنماذج من هذه الاساليب التي اتخذت صفة ظاهرية مشروعة ، وتغاضيت عن امور كثيرة لا تعترف بها الشرائع ، وتأبى ان تقرها الانظمة المدنية والاجتماعية . امور لا تجيزها الا القوة والجشع والاستهتار بحق الضعيف . امور اعف عن ذكرها وادفن ذكراها في صدور اللبنانيين الذين قاسوا مرارتها . وليسامح الذين اقترفوها من اجانب او من ساعدهم عليها من الوطنيين . ولعلها تبقى عبرة يعتبرون بها في المستقبل .

الفصل الرابع

معركة لبنان

- ١ -

العودة الى القتال

في فجر شهر ايلول سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب العالمية الثانية . ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلت ، ان في ايلول سنة ١٩٣٩ استؤنفت الحرب العالمية التي ابتدأت سنة ١٩١٤ بعد هدنة مسلحة تتخللها مناوشات موضعية دامت من سنة ١٩١٨ – ١٩٣٩ . ولم يكن هنالك بد من استئناف المجزرة ، اذ ان المعاهدة التي وضعت في فرسايل على اثر توقف القتال في « كامبيني » كانت افظع واخطر معاهدة دخلت في التاريخ . فهي لم تقس على المغلوب لتسد عليه طريق الانتقام شأن المحاربين في الفتوحات السالفة . ولكنها بالوقت نفسه لم تنصفه لتؤمن له العيش في ظل السكينة والسلام ، ليقلع عن فكرة التحفز للوثوب عندما يرى فرصة سانحة . معاهدة مبطنة فيها الكثير من الاحاجي والمداورات ، كأنها وجدت قصداً لتكون سبباً لمجزرة ثانية لا تتأخر الى اكثر من مدة لا تزيد على العشرين من السنين . ومهما كان من امر ، فان معاهدة فرسايل جاءت خالية من ضمانات للسلم العالمي الدائم . ولعل التزاحم والتحاسد فيما بين

الدول المنتصرة نفسها كان السبب في ذلك. كل دولة تسعى ليكون نصيبها من قرص الحلوى اكبر من نصيب شريكتها . والشركاء كانوا متعددين . وهم وان جمعتهم النكبة في اثناء الحرب انما فرقت بينهم الغاية والثقافة والمطامع بعد توقفها ، فضلاً عن ان الجبهة المنتصرة التي دخلت الحرب انتصاراً للحرية ، ومحاربة لقوى الاستبداد ، ودفاعاً عن حقوق الضعفاء — على حد قولها وادّعائها — تغاضت عن هذه المبادىء التي اتخذتها احد اسلحتها في اثناء العراك ، عندما آل اليها الامر ، وحلت في مجلس التنفيذ تقضي في الشعوب بما يوافق مصالحها هي ، دون مصالح المحرومين من وسائل الدفاع عن انفسهم ، بل يتمسكون بحق اعترفوا لهم به عندما كانوا يقاتلون ، وانكروه عليهم وهم منتصرون . فالحرب التي ادعوها حرباً لنصرة الحق على القوة ، لم تكن في نتيجتها الا حرباً استعمارية بالرغم مما اختلقوه من المظاهر المغرية ، وما ابتكروه من انظمة وشرائع . وما عصبة الامم ، وانظمة الانتدابات ، وحق تقرير مصير الشعوب ، الا من مداورات رجال السياسة واقطاب التوسع والاستعمار .

ان معاهدة فرسايل وملاحقها ومتفرعاتها المتعددة ، بما اوجدته من حقد في صدر المغلوب ، وبما سببته من كره الضعيف للقوي ، وبما خلقته من التحاسد بين الاقوياء ، وبما فرضته من العسف والارهاق على المحكومين والضعفاء ، كان لا بد لها من ان تكون سبباً لمجزرة ثانية ، بل بالاحرى لثورة عالمية شاملة ، علّ هذه تأتي بنتيجة افضل ونظام اصلح لكافة الامم والشعوب . لا بد من

نقلاب خطير في الانظمة المعمول بها ، والا بقيت الحرب سجالا بين اصحاب المطامع ومتطلبي السيادة من الدول والشعوب والافراد والمستعمرين ومحتكري السلطات المختلفة ، حكومية كانت ام مالية ام جنسية .

— ٢ —

بين الديموقراطية والدكتاتورية

عندما وقعت الحرب انقسم العالم الى جبهتين : الجبهة الديموقراطية ، والجبهة الدكتاتورية . الاولى تدعي العمل في سبيل استقلال الشعوب ، ونصرة الضعيف ، وحرية الفكر ، والثقافة والمعتقد ، والثانية تحارب تحت لواء الوطنية المتطرفة والفوارق الجنسية ، سلاحها القوة ، وحجتها تنازع البقاء وبقاء الانسب . وقد كنا نحن من جنود الجبهة الاولى لاتصالنا المباشر بفرنسا ، الدولة التي تحكمنا باسم الانتداب . وفرنسا دخلت الحرب زعيمة في المعسكر الديموقراطي . ونحن مفروض علينا الاعتراف بان فرنسا تحكمنا حكما ديموقراطياً مهما كان اعتقادنا ضئيلاً ، وبالرغم من التزييف المفضوح في هذه الديموقراطية .

وفي السنة الاولى من الحرب تضافر معظم اللبنانيين مع المنتدبين وايدوا قضيتهم ، البعض عن اعتقاد بعدل القضية ، والبعض عن خوف من انظمة الحرب واحكامها ، والبعض عن امل باصلاح النظام بعد الحرب ، والبعض اخفوا شعورهم لعدم تناسبها مع المناضلين

في سبيل السيادة العالمية خشية ان يزيد النصر في ارهـــاق القوي للضعيف . وهكذا اختلفت البواطن بالرغم من توحيد المظاهر .

والحقيقة يجب ان تقال : ان الادارة في هذه السنة كانت على نسبة من الاصلاح لا بأس بها ، بفضل رجلين وجدا على رأس السلطة في البلاد . المفوض السامي « غبريال بيو » . والقائد العـــام لجيش الشرق « الجنرال ويغان » . الاول مشهور بنزاهته واخـــلاصه ، والثاني بحزمه واقدامه ، صفات ضمنت للبلاد مصالحها بالرغم من فساد متغلغل في اوكار الدوائر المختلفة . هي حالة استثنائية ، وفي الحرب يجب على المرء ان يقنع بقسم من الرفاه الذي يتطلبه في ايام السلم . وقد كانت الحالة الاقتصادية في البلاد موفورة بفضل المواصلات مع العالم الخارجي ، تشرف عليها وتحميها اساطيل الحلفـــاء في البحر المتوسط ، فلم تبل البلاد بالحرمان الذي افقرها واجاعها في الحرب العالمية الماضية ، وشكر اللبنـانيون ربهم لوجود انكلترا وفرنسا على جبهة واحدة . وكانت الدعاية تمجد التحالف البريطاني الفرنسي ، وتقاوم الدعاية الالمانية الايطالية بكافة ضروب المقاومة . والناس قانعون بحالهم ، يعقدون على احلامهم آمالا يصبون الى تحقيقها في المستقبل الزاهر الذي ينتظرونه ويتطلعون اليه .

لم يشعر اللبنانيون بالحرب طوال هذه السنة ، فلا طيـــارات تطير في سماء لبنان ، ولا دوي مدافع يسمع ، اللهم الا مدافع التمارين والمناورات ، اذ ان الجيوش كانت تروح وتجيء متحفزة لاي طارىء يطرأ . كانت الاستعدادات للحرب قائمـــة بدون ان تقوم الحرب نفسها ، والاستعدادات وحدها لا تخيف ، بالرغم من

بعض مضايقات طفيفة كمصادرة السيارات والبيوت ، وغير ذلك من مقتضيات الحروب. غير ان الليالي كانت مصبوغة بصبغة الحرب، اذ ان قانون خنق الانوار قد طبق منذ ساعة اعلان القتال ، فاصبح الليل حالك الظلام . وكانت الظلمة هذه سبباً لتكاثر السرقات واقتراف الجرائم ، وقد تعددت هذه مبتدئة بافظع جريمة ارتكبت في تلك الآونة ، وهي ذبح عائلة البشباش المؤلفة من رجل كهل وشقيقتيه، طمع الجناة بسلب اموالهم الوافرة ، فانتهزوا فرصة الظلام الدامس ليقترفوا جريمة وحشية بقيت حديث الناس والمنتديات وشغل دوائر القضاء مدة طويلة ، وانزلت الرعب بالكثير من الاغنياء والمقترين خوفاً على اموال اختزنوها ، والغنى اذا رافقه التقتير جعل صاحبه مطمحاً لانظار اللصوص والمجرمين . حبذا لو ادرك اصحاب الثراء ، وايقنوا ان ثرواتهم وبال عليهم اذا حرموا ذوي الحاجة من الاستفادة من شيء منها .والغني الحكيم من يدرك انه قيم على ماله وليس مالكا له ، فاذا حرم الناس منه رأوا فيه مجرماً يستحق العقاب . والعقاب من العامة قدلا يخلو من الاجرام ، والعامة قاسية في حكمها، بطّاشه في تنفيذ احكامها ، والويل لبلاد تتهامل سلطاتها في فصل الخلاف القائم ابداً بين العامة والخاصة ، بين الفقير والغني ، بين الضعيف والقوي . انه اهمال يذكي نار الحقد في صدور الضعفاء ، ويشعل لهيب الثورة في البلاد ، وما الثورة الفرنسية والثورة السوفياتية الا من نتائج تحكم القوي بالضعيف، ومساهمة السلطات الحاكمة في سيطرة الخاصة على العامة .

— ٣ —

فرنسا تستسلم

كان موقف ايطاليا اللامحارب في بدء الحرب من اكبر اسباب الراحة والرخاء في لبنان ، وفي كافة الاقطار العربيـــة . اذ ان منطقة البحر المتوسط بقيت كل هذه المدة منطقة سلامة ، الملاحة ميسورة ، والبواخر تمخر آمنة ، والتجارة مزدهرة . ولكن ايطاليا حليفة المانيا ، والمانيا بالرغم من القوة الجبـــارة التي ظهرت بها ، تحتاج الى معونة حليفتها مهما كانت هذه الحليفة هزيلة . وايطاليـا تطمع في الكسب على ظهر فرنسا جارتها وابنة عمها ، وفرنســـا تحرجت حالها عندما غزتها الجيوش الالمانيـة بعد غزوها النروج ، وهولندا ، وبلجيكا. واصبحت القوات الالمانية على ابواب باريس، وتضعضع الجيش الفرنسي ، وتوالت الانقـــلابات في الحكومة الفرنسية ، ولغط رجالها بالتسليم وطلب الصلح من الفاتح ، وخشي العالم ان تحذو بريطانيا حذو حليفتها المغلوبة (مساكين الـذين لا يقدرون صلابة الامبراطورية البريطانية وارادة الشعب البريطـاني الجبار) . خشيت ايطاليا ان تنتهي الحرب ولا يكون لها يـد في كسبها فتحرم حصتها من قرص الحلوى .فاعلنت الحرب على فرنسا في ١٠ حزيران سنة ١٩٤٠ ، عندما كانت فرنسا تغرغر في صدرها حشرجة الموت . فجاء عمل الطليان كذاك الذي يطعن ميتاً ويفخر بشجاعته ، ولكن يظهر ان الدول لا تعاب بما يعـاب به الافراد ،

والمجازي الدولية يسمونها سياسة ودهاء ، بينما هي في الافراد غدر وخيانـــة .

عندما تحرجت الحالة على الجبهة الفرنسية طلب الجنرال ويغان، فسافر على متن طائرة ، علّه يستطيع اصلاح الموقف اذا كان هناك من امل يرجى. والجنرال ويغان، بلا جدال، من اعظم قواد فرنسا، وصاحب اليد الطولى في نصر ١٩١٨ ، عندما كان رئيساً لاركان حرب المريشال فوش الذي اوصى الفرنسيين ، وهو عـــلى فراش الموت، ان يلجأوا الى ويغان عندما يداهم فرنسا اي خطر. وفرنسا اليوم على شفير الهاوية . ولكن ويغان الذي كان ضحية السياسة الفرنسية ورجالها ، والذي ابعدته أغراض الاحزاب الحكومية عن المركز الـذي كان يجب ان يكون له دون غيره ، لم يستطع ان يجترح العجائب في الساعة الاخيرة عندما كانت اسباب الانهيـــار مهيئة كلها ، وبعد ان كانت عوامل الفساد قامت بعملها . وكان لا بد للجيش من ان يُغلب ولفرنسا من ان تنهار. فاوعز للحكومة ان لا سبيل الى اصلاح الحال، ولا مناص من الرضوخ الى الفاتح . فانقلبت الحكومة وتسلم الامر المريشال « بيتان بطل فردان » ، والشيخ الذي يحبه ويتعشقه الشعب الفرنسي . فكان اول عمل قام به ان طلب الى الفاتح الالماني وقف القتال واملاء شروط الهدنة ، محافظة على البقية الباقيـة من الارض الفرنسيـــة ، وضناً بارواح الفرنسيين في معركة لا يرى فيها الا الفشل . ومهما تضاربت الاراء في عمل بيتان ، وفي صوابيـــة نظريته ، وفي انفصاله عن حلفائه ، فالحقيقة هي ان ذلك الشيخ الوقور ما اقدم على خطوته الا مدفوعاً

عامل الاخلاص نحو بلاده التي احبها وضحى بكرامته ، وجاهد في سبيلها كل حياته. وليس هنا مجال للبحث في خطيئات ارتكبت، او شائنات اقترفت من قبل الرجال الذين اتخذهم بيتان ليساعدوه فاستفادوا من شخصيته ، واخفوا وراء اخلاصه لبلاده ولشعبه اغراضاً مريبة . وكان وقر الخمس والثمانين سنة على بيتان عوناً لهم على الوصول الى تلك الاغراض والغايات .

— ٤ —

السلطة الفرنسية في الشرق تعصي فيشي

وقف العالم اجمع مدهوشاً اذ رأى معركة فرنسا تنتهي بالذل والخذلان ، وامبراطورية شاسعة كالامبراطورية الفرنسية تنهار بسرعة لم يذكر مثلها التاريخ . وحزن الناس على امجاد امة عريقة حملت مشعل الثقافة والنور والحرية الى اطراف المعمور . والامة الفرنسية كانت تتمتع باحترام دولي عز نظيره ، والشعب الفرنسي كان له لدى شعوب الارض اجمع ميزة خاصة من المحبة والعطف . وسخط العالم على الذين كانوا سبب النكبة من رجالات السياسة في فرنسا ، في الفترة التي تلت النصر في الحرب العالمية الاولى . هذه الفترة التي دامت عشرين سنة ونيف ، طغت ، في اثنائها ، على السياسة الفرنسية ، روح الفردية والنفعية الخاصة ، واصيبت اخلاق الامة بالفساد ، والامم باخلاقها ، واختل الجهاز الحكومي بطريقة لم يسبق لها مثيل ، وسادت الفوضى بين الهيئات المختلفة . وكان

كل ذلك نذيراً بانهيار لا بد منه، لا سيما واعداء فرنسا لها بالمرصاد، يتحفزون ليصوبوا اليها ضربتهم، ويقضوا على مدنية سطعت اجيالا، ويذلوا امة كانت زعيمة بين الامم المتمدنة.

ولقد كان لتسليم فرنسا للفاتح الالماني، تأثير موجع في الممتلكات والقوات الفرنسية خارج الوطن الام. واعلن قسم من اولئك عصيانهم قرارات الحكومة الرئيسية. وكان من المتمردين عميدا السلطتين الملكية والعسكرية في لبنان وسوريا غبريال بيو، والجنرال ميتلهوزر الذي خلف ويغان في قيادة جيش الشرق، عندما طلب ويغان الى باريس لانقاذ الموقف. فاعلن العميدان في بيان اصدراه ان جيش الشرق سيتابع النضال مع حلفائه البريطانيين غير عابىء بالهدنة الالمانية الفرنسية، رافضين الاعتراف بالحكومة الفرنسية الجديدة التي اتخذت «فيشي» مركزاً لها، بعد ان دخلت باريس في منطقة الاحتلال الالماني مع ثلثي مساحة فرنسا. ولدن صدور هذا البيان اجتمع ممثلو السلطتين الفرنسية والبريطانية واتفقوا على السير معاً في متابعة الحرب. وتعهد ممثلو السلطة البريطانية بكافة النفقات التي تتطلبها القوات الفرنسية بدون اي فرق او تمييز بينها وبين القوات البريطانية، كما تعهدوا بتسليف المفوضية العليا الفرنسية كل ما تحتاجه للقيام بالادارة الملكية. وقد كان لهذا الاتفاق وقع حسن بين الناس، خشية قطيعة فرنسية انكليزية ينتج معها وقف الاتصال مع بقية الاقطار العربية ومع العالم الخارجي. فتكون ويلات الحصار اشد وطأة من ويلات الحرب. ولما سمع صوت «ده غول» من لندرة يدعو ابناء فرنسا،

البعيدين عن الكابوس الالماني والمنتشرين في الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار، للالتفاف حوله لمتابعة الحرب، كانت السلطة الفرنسية هنا تؤيده، واخذت الاذاعة تشجب الهدنة وتتهم رجالات فرنسا المهادنين بالخيانة. وظهر التضامن الانكليزي - الفرنسي في الشرق، وابتهج بهذا التضامن ابناء الشرق كي لا تتحقق فينا قصة «المركب والريح والبحارة» اذا وقعت الواقعة بين انكلترا وفرنسا.

ولكن لم يمض على هذه الاتفاقات غير ايام معدودة حتى نزل الرجلان «بيو» و «ميتلهوزر» على ارادة «بيتان» و «ويغان». وشاع ان ذلك تم على اثر زيارة خفية من الجنرال ويغان الى بيروت، واعترف العميد عندئذ بحكومة فيشي، ووضع نفسه والبلاد تحت امرتها، قالباً ظهر المجن لحركة الجنرال ده غول، وبالتالي لبريطانيا العظمى. ومنذ ذلك الحين اصبحت مقدرات البلاد بيد الحكومة الفرنسية المغلوبة التي لم يكن امر نفسها بيدها، بعد ان فرض عليها الالمان شروطهم القاسية، وكبلوها بقيود مذلّة، واصبحت اقرب الى دولة مستعبَدة منها الى دولة مستقلة صاحبة سيادة.

— ٥ —

الذعر العام

منذ ان اعترفت السلطات هنا بحكومة فيشي اصبحت البلاد اللبنانية السورية منفصلة عن بقية الاقطار العربية، ولكن العلاقات التجارية في بادىء الامر ظلت متواصلة لحد محدود. فقد اعلنت الحكومة

البريطانية عندئذ انها لا تتخذ اي اجراءات عدائيـــة ضد سوريا ولبنان ، الا اذا اصبح هـــذان القطران مسرحاً لمناورات او دعايات محورية. وبالرغم من القطيعة الرسمية بين السلطتين الانكليزية والفرنسية، فقد كان يدخل البلاد بعض المواد والبضائع من الاقطار المجاورة . غير ان هذا السماح لم يمنع حصول الذعر في البـلاد على اثر قطع العلاقات الرسمية بين الدولتين . فارتفعت اثمان الحاجيات ارتفاعاً هائلاً ، واختفت البضاعة من الاسواق ، وظهر في ميدان التجارة الاحتكار . وتجار بيروت ادهى تجار العالم . قلبهم لا يلين، وجشعهم لا يعرف حداً . وخف الاهلون للاسواق ، الاغنيـــاء يتمونون الى مستقبل يرونه مظلماً ، والفقراء يشـــترون ما لا يستغنون عنه لدفع الجوع عنهم وعن عيالهم ، والمحتكرون يخزنون ما يجدونه في الدكاكين ليبيعوه باغلى الاثمان عندما تفقر البـلاد . وكانت اثمان البضائع ترتفع ارتفاعاً فاحشـــاً بين ساعة واخرى ، حتى بلغت حداً لا قبل للفقير به . فبلغ ثمن كيلو الخبز المائة غرش، وصفيحة البنزين ثلاثين ليرة ، وصفيحة الكاز عشرين ليرة ، وكيلو السكر مائة وخمسين غرشاً ، وكيلو البن مائتين وخمسين غرشاً ، وقس على ذلك بقية الاسعار . تقول الامثـــال « من اكتوى بسخونة الحليب نفخ اللبن » ، و « من عقصته الحية خاف من جرة الحبل » . وهؤلاء اهل لبنان ، الذين ذاقوا في الحرب العالميـــة الاولى ضائقـــة الحرمان ، وقاسوا مرارة الفقر والعوز والجوع ، وابتلوا بالاوبئة والامراض ، رأوا في بوادر الحالة تكرار المأساة التي رزحوا تحت اثقالها ، ولم يمض عليهم بعد ربع القرن . كان همّ

العامل والفقير الحصول على الرغيف ، وكان همّ التاجر الاستفادة والربح ، وكان همّ المحتكر المغامرة والاثراء . والاكثرية الساحقة من اللبنانيين هي من الطبقة الفقيرة والمتوسطة . العامل فقير ، والموظف نصف فقير ، والطبيب ، والمحامي ، والمهندس ، ورفقاؤهم من اصحاب المهن الحرة ، يعدون متوسطين ، وان كان كثيرون منهم فقراء محتاجين ، حتى الملاك (اللهم الصغير) اصبح فقيراً او متوسطاً ، بعد ان حدد له النظام ايراد ملكه ، وترك حبل المعيشة على غاربه ينطلق كالسهم بين عشية وضحاها . ولذلك كان تسعون في المائة من اهل لبنان ينوءون تحت اعباء الفاقة والحرمان . وعندها اصدرت السلطة قراراً يقضي بمنع الاحتكار ، ويوجب على التجار التقيد باسعار ١٠ حزيران ، وهو تاريخ دخول ايطاليا في الحرب ، وبدء المصاعب والعراقيل في طريق الاستيراد . قرار استقبله الرأي العام بالشكر ، أملًا بوضع حد لمطامع التجار وجشع المحتكرين . وانطلق رجال المكافحة في الاسواق ، يراقبون الباعة وينظمون المخالفات بحق المخالفين . وبالفعل كان لهذا العمل تأثير حسن ، وشمت المجموع من التجار الذين نزل بهم عقاب السلطة ، واودعوا السجون ليلاقوا قصاصاً على جرائمهم . ولكن — لعن الله لكن — ما مضى على ذلك اسابيع قليلة ، حتى ظهرت عوامل الخلل والفساد والفوضى في الادارة . وهي امراض مزمنة فيها ، اذا كبتت يوماً تحت تأثير الشدة من رئيس شريف ، لا تلبث ان تتخلص من كابوسه ، بطرق ألفتها ومداورات تعودتها . وباء حل بهذه البلاد من عهد العثمانيين ، ثم اتى من بعدهم الفرنسيون ،

فأوقدوا ناره واضرموا شعلته، وعوامل اللهيب موفورة في البلاد .
هو داء الرشوة ، نقيصة الحكومات ومفسدة الامم .

كان لقرار السلطة ، بعد ان دب الفساد في القائمين على تنفيذه، تأثير معكوس . فرجع الذعر الى الاسواق ، واستعاد التاجر أو المحتكر سيطرته ، متسلحاً بنفوذه لدى اصحاب السلطة ، وبما يغدق على المتسلمين مقدرات الشعب من اموال وهدايا ، لا تحسب شيئاً بالنسبة لارباح يجنيها ، وثروات يكدسها ، لا يخشى عقاباً ، ولا يبالي بقرارات . انني لا ارسل القول على عواهنه ، ولا ابالغ فيما اقول ، ولديّ شواهد لا تحصى تؤيد هذا الاتهام ، ولا ازال اذكر حادثة جرت مع نسيب لي ، اهتممت لامره ، وتابعت مصيره ، وهو تاجر من تجار البلد المعدودين ، وفي مدة الحرب كان في عداد المغامرين والمحتكرين ، طاله قرار المكافحة في اول امره ، وحكم عليه القانون بالغرامة والحبس ، وكلف بالمرافعة عنه كبار المحامين ، واختفى من البلد مدة حتى لا تراه عين الشرطة ، وقامت الدنيا وقعدت ، ولا غرو ، فهو شاب في مقتبل العمر يتحدر من عائلة معروفة ، وفي صناديقه اموال مكدسة ، والحبس في بلادنا ليس للاغنياء والرأسماليين . ان في خزائن اولئك اموالا تحميهم وتدفع عنهم موجبات الانظمة والقوانين . هكذا جرى في حادثة نسيبي — الذي راقني خلاصه — وفعلت الرشوة مفعولها، وحكم سيف المال ، وضرب اولئك الذين اصدروا القوانين بقوانينهم عرض الحائط عندما تبينوا من ان الدفعة تستحق النظر . وهل تفوتهم هذه الغنيمة ليحافظوا على

قانون هو في مصلحة شعب ضعيف استعبدوه واستثمروه منذ اكثر من عشرين سنة. اذن ليكن لنا من ارباح هذا الشاب حصة نربحها، وليكن الله في عون اللبنانيين.

— ٦ —

الاعاشة المجوعة

اقتصرت سياسة البلاد في هـذه الآونة على مسألة واحدة هي مشكلة الاعاشـة. ولم يتطلب الشعب من حكومته، ومن القابضين على مقدراته سوى تأمين المعيشـة له. وانشئت في ذلك الحين دائرة سميت دائرة التموين والاعاشة. القائمون على أمرها كلهم من الفرنسيين الفيشيين. واحتكرت هذه الدائرة، مشترى وبيع ونقل الحبوب وبقية المواد الغذائية. كما انها منعت التجار من الاستيراد والتصدير، الا بسماح منهـا. هو تدبير حكيم تلجأ اليه الحكومات في الحرب وفي الظروف الاستثنائية. ولكنه تدبير خطر اذا اساء استعماله الذين يتولون تنفيـذه. وهو ما حدث مع الاسف في لبنـان. فهذه الدائرة اصبحت مقراً للتلاعب بقوت الشعب. وكانت تدابير هـذه الدائرة، مما يستوجب الخجل «والقرف» والسخط.

اتخذ هؤلاء الموظفون، من قضية الاعاشة، وسيلة لتحكمهم وتغذية جيوبهم، غير عابئين بشعب يفتقر ويتضور جوعاً. يصدرون القرارات التي تبيح لهم المصادرة والاحتكار، ليمنعوا عن المستهلك

ما يوفر لهم المواد الغذائية ، يبيعونها باسعار باهظة لمنفعتهم ، او يبيحونها لزبائنهم ، او يبعثون بها اعانة لذويهم في بلادهم الجائعة ، عندما تسمح لهم الفرصة بارسالها . وهكذا شحت هذه المواد ، حتى اصبح السكر اندر من الكبريت الاحمر ، والارز يباع باغلى الاثمان ، لا يستطيع شراءه الا كبار الاغنياء . لقد كانت المستشفيات والمؤسسات والمدارس تحرم من هذه المواد الضرورية ، بينما كان بعض المحظوظين يتلقونها دون حساب . ولا ازال اذكر مرة ، انه عندما كان الناس يتشوقون لحفنة من السكر كانت تأتي امرأة اجنبية ، تدير بيتاً من بيوت الدعارة ، فتحصل على اجازة من دائرة الاعاشة تبيح لها شراء ثلاثين شوالا من السكر بسعره الرسمي ، ثم تبيعه بسبعة اضعاف ثمنه لمقهى معروف . اني اعرف الامرأة ، واعرف المحل الذي ابتاعت منه السكر ، واعرف المقهى الذي ابتاعه منها . وقد اوصلت الخبر بنفسي في حينه الى المرجع الاعلى . اما كيف استحصلت على الاجازة ، وما هي الطرق التي اتبعتها ، فذلك سر من اسرار دائرة الاعاشة . اما البنزين ، هذا السائل الذهبي المحي ، فقد ندر في تلك الايام ، واحتكر الموجود منه المحتكرون ، واكثرهم من الذين يتمتعون بنفوذ الدوائر الرسمية ، حتى ان احدهم ، وهو طبيب اجنبي كبير ، جنى من وراء تجارته هذه الالوف من الليرات ، في حين ان سيارات الاطباء الوطنيين توقفت لافتقارهم اليه . وهناك في المفوضية كان الموظفون يستغلون وظائفهم لجمع الغنائم بدون حساب . هناك كانت ادارة الشؤون الاقتصادية ، يرأسها رجل لا يذكر اسمه

هنا الا مرفوقاً باللعنات ، يتصرف بالاعمال، ويحلل المحرمات ، لقاء مبالغ معلومة حسب اهمية المصلحة . وعندما افتضح امره ، ولم يكن في مقدور السلطات التجاوز عن فضائحه ، نقل من هذه البلاد حاملاً معه ثروة ذهبية ، حولها الى سبائك وصواني من ذهب مطلية بالفضة ليخفيها عن عيون الرقباء . « ر » هذا يحفظ له اللبنانيون والسوريون ، في تاريخ الانتداب ، ذكراً قاتماً مؤلماً .

والخبز غذاء الانسان وقوت الفقير اصبح قبلة الانظار وهاجس العيلة ، واصبح الفرن مزار الناس ، من نصف الليل الى ظهر النهار ، ليحصلوا على ارغفة ، تارة سوداء ، وطوراً سمراء ،واحياناً مختلفة الطعم والالوان ، تحوي من القمح الشيء القليل القليل ، ومن الشعير ، والعدس ، والكرسنة ، والحمص ، والتراب ، الجزء الاكبر. وفي كل يوم معركة تحتدم على باب الفرن. النساء يولولن، والشيوخ يتوكأون على عكازاتهم ، والولدان تخترق صفوف المتزاحمين ، ورجال الشرطة يدفعون هذا ، ويرفسون ذاك ، مستعينين باسواطهم عند الحاجة ، والناس تصيح : الخبز ! الخبز ! والخبز في حيازة الاغنياء والمتسلطين ، والطحين والقمح في عنابر تجار القمح والمحتكرين ، والسلطة تتفرج وتنظر الى الناس بعين العجز وعدم الاكتراث ، وماذا يهمها من اولئك الجائعين ، وهم من العمال والفقراء ، لا حول لهم ولا قوة ، مازالت الطبقة الغنية ، واصحاب الاقطاعية والنفوذ مرتاحين ، وما زال صوت العامل والفقير ، وصياحه وضجيجه ، لا تتعدى باب الفرن . والسلطات في لبنان تعودت مسايرة الطبقة المتنفذة ، من المتزعمين

والارستقراطيين . اما العـــامل ، هذا المخلوق الذي وجد لخدمة اسياده ، ولاشباع مطامع اصحاب الثراء والرأسماليين ، والذي لم يحظ يوماً بتشريع عادل ، ينصفه ويؤمن له الحياة ، فهو لا يستحق اهتمام اولي الامر ، مادام اولو الامر يرون فيه الاستسلام والخنوع ، لا يُخشى منه شراً ، ولا يُحسب له حساباً . وقد كانت اجرة العامل ، وسط هذه الازمة ، لا تزيد على الخمسين غرشاً في اليوم ، عندما كان رطل الخبز الاسود يساوي خمسة اضعـــاف هذه القيمة . واذا استثنينا طبقة صغيرة موسوعة ، فان الاكثرية من الاهالي ، صناعاً ، وعمالا ، وموظفين ، واصحاب اجور محـــدودة ، واصحاب مهن حرة ، كل اولئك كانوا يقاسون الامرّين في سبيل تأمين معيشتهم ، ومع هذا كان الناس هادئين ساكنين ، سمهم ما شئت : مسالمين او آمنين ، اما انا فاسميهم : خاملين ، اذلاء ، اموات .

— ٧ —

كياب ٠ دانتز

وفي وسط هذه الحالة القلقـــة ، صدر امر « فيشي » باقالة المفوض السامي « بيو »، وتعيين « كياب » مكانه ، فاسف اهل البلاد لهذا التغيير ، لما كان في الاول من ضمانة للنزاهة والعدل ، بقدر ما تسمح له الظروف المضطربة ، وبقدر ما تساعده شخصيته التي لم يشوبها غير ضعف تتغلب عليه قوى الفساد والشر المتغلغلة في الدوائر العامة . وفوق ذلك فقد تشـــاءم الناس من ابداله برجل

مثل كياب ، مشهور بعـــدائه للانكليز ، وتقربه من الالمان ، عكس ما كانوا يعتقدونه في بيو . واللبنانيون والسوريون يهمهم من المفوض السامي الا يكون مبغضاً للانكليز ، مخافة ان تسوء العلاقات بين السلطتين في منطقتي الانتداب الفرنسي والانكليزي، الى حد يشتدّ عنده خناق الحصار على البلاد. فتزيد الضائقة، «بعبع» اللبنانيين والسوريين . ولم تكن الميول السياسيـــة ، وحدها ، هدف اهل لبنان وسوريا، ففي هذه الفترة كانت هذه الميول منقسمة بين الجبهتين المتحاربتين ، والناس لا يفكرون الا بحالتهم الاقتصادية التي كانوا يرونها تسوء يوماً عن يوم . ولذلك عندما عين كياب مفوضاً سامياً ، اصبحوا ينتظرون قطيعة انكليزية فرنسية، نتيجتها وبال عليهم ، ولكن شاء القدر ان لايكون قاسياً على هذه البلاد، فقضى ان يُقتل كياب في اثناء مجيئـــه بطيارة اصيبت خلال معركة جوية في سماء البحر المتوسط . هو القدر سيـد الحاكمين ، وشفيع الاكثرية من الشرقيين ، وموطن الضعف ، والاستسلام ، والجمود عند ابناء الاقطار العربية .

بعد ان قتل المفوض المعين « كياب » ، تمددت اقامة بيو في هذه البلاد ، ريثما يعين سلف له ، ثم بشرنا الاثير بوقوع اختيـار اسيـــاد فيشي على الجنرال « دنتز » ، الذي كان حاكم باريس العسكري عندما دخلها الجيش الالماني، واذا كان الناس لم يتشاءموا من قدومه كتشاؤمهم من كياب، لكنهم لم يظهروا ارتياحاً لرجل عرفوه ، عندما كان في دوائر الاستخبارات في المفوضية العليا قبل عشر سنوات مضت ، وعرفوا فيه ميولا لاتتفق ومصلحة البـلاد

في ظروفها الحاضرة . وعندما وطئت رجلاه اليابسة، كانت باكورة اعماله ان انذر الفرنسيين الموجودين في الشرق، ومن ورائهم جميع اصحاب السلطات هنا ، انه سينفذ ، الى اقصى حدٍ، سياسة فيشي ومبادىء فيشي ، والويل لمن تحدثه نفسه بانتهاج سياسة مخالفة . وبالفعل ، بعد وصوله بايام معدودة ، ظهرت تدابير الارهاب بحق نفر من الفرنسيين ، اتهموا بمماشاتهم حركة ده غول ، وقد اصابت هذه التدابير عدداً من الوطنيين ايضاً ، رأت السلطة فيهم ميلاً الى حركة فرنسا الحرة وحليفتها بريطانيا . وكان ان ارسل الى السجن بعض المواطنين ، وارسل الى فيشي عدد من الفرنسيين ليحاكموا فيها . وقد قطع الحدود بعض الفرنسيين هرباً للمنطقة الانكليزية . اما المغضوب عليهم من الوطنيين ، فقد ارسلوا الى اقامة جبرية في بعض قرى لبنان . وكان اكثرها حظاً قرية ريفون في اعالي كسروان .

ان عهد الجنرال دانتز كان عهداً قاتماً . ففيه ساءت الحالة الاقتصادية ، وفيه اشتدت وطأة العوز والجوع على سواد الجماهير . وفيه لجأت السلطة العليـــا الى تدابير الارهاب ، وفيه انتشرت الدعاية المحورية ، وظهر تأثير الضغط الالمـــاني على شؤون البلاد السياسية والاقتصادية . وفي نهاية هذا العهد وقعت الواقعـة ، وزحف الجيش البريطاني من فلسطين على لبنان وسوريا ، وشهد هذان القطران ، لا سيما لبنان ، حرباً منظمة، ومعارك طاحنة، من برية ، وبحرية ، وجوية ، اهلكت الكثيرين من ابنائه ، وانزلت

الخراب ايضاً في كثير من مدنه وقراه.

والجنرال دانتز كان فيشياً متعصباً. وفيشي كانت تحت تأثير وضغط غزاتها الالمان. والالمان وحلفاؤهم الطليان كانوا ينظرون الى سوريا ولبنان بعين الرغبة، يهمهم ان تكون هذه البقعة من الشرق تحت مطلق نفوذهم، اذ يعتبرونها مفتاحاً للشرق الادنى والاوسط. وهذه البقاع مطمح انظار النازيين، ولهم فيها مآرب يعملون في سبيلها. ولهذا اشتد اهتمام الالمان والطليان بمنطقة الانتداب الفرنسي، وارسلوا لجنة منهم لمراقبة تطورات الحالة. هم اتخذوا من شروط الهدنة الالمانية الفرنسية واسطة لارسال لجنة تراقب تطبيق هذه الشروط، على حدّ ادّعاءاتهم. ولكن، في الحقيقة، لقد كانت هذه اللجنة وكراً للدعاية المحورية، تعمل، مع مختلف الهيئات المؤيدة، لتمكين النفوذ الالماني في البلاد، حتى اذا ما حان الوقت، وسنحت الفرصة، اصبحت بلادنا مسرحاً للحركات التي ينوي المحور ان يقوم بها في هذه الاقطار.

— ٨ —

العرب في حيرة

ولا يسعنا، ونحن نبحث اعمال الدعاية المحورية، لا سيما الالمانية منها، الا ان نقول كلمتنا بوضوح وتجرد، في شعور اهل البلاد وميلهم السياسي في هذا العراك العالمي، والقراء يفضلون معرفة الحقائق، على الاطلاع على الاميال والآراء.

ارتبطت مصلحة العرب والبلدان العربية بمصلحة الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ، وقام العرب بثورتهم على الحكومة العثمانية بزعامة الملك حسين الهاشمي ، بعد مخابرات طويلة بينه وبين السلطات الانكليزية ، وانتهت باتفاقات تفتح المجال امام العرب للاستقلال، ولوحدة الامبراطورية العربية. غير ان تلك الاتفاقات لم تخلُ من عوامل الغموض والابهام . وقد تجلت في مداورات ومحاولات يحتفظ بها رجال السياسة للتهرب من تعهداتهم تارة ، وللتمسك باغراض لهم طوراً ، كأن السياسة عدوة الصراحة ، ولا بدّ لها من اضاليل واكاذيب . لقد قطع الانكليز عهداً للملك حسين بتشكيل حكومة عربية مستقلة استقلالاً كاملاً ، من آخر حدود حلب شمالاً الى الحدود المصرية جنوباً ، ومن البحر الابيض الى خليج فارس شرقاً، مستثنياً منها ممتلكة عدن، والى أجل محدود، البصرة (اتفاقية الملك حسين مع لورنس في اول سنة ١٩١٦) وفي ايار، من السنة نفسها ، عقدت معاهدة (سيكس بيكو) ، القاضية بتقسيم النفوذ بين بريطانيا وفرنسا، على ان يكون نفوذ الاولى على العراق وفلسطين ،ونفوذ الثانية على سوريا ولبنان. وفي غضون هذه السنة نفسها صدر وعد «بلفور» المشهور، الذي تعهدت فيه بريطانيا بانها تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . ثلاثة وعود ، وثلاث اتفاقيات ، فيها من المتناقضات ما يجعلها مسؤولة عن اكثر الاضطرابات والثورات التي حصلت في جميع الاقطار العربية ، بعد الحرب العالمية الاولى ، والتي دامت —يتخللها فترات هدنة وقتية— الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية.

اما كيف عقدت هذه المعـــاهدات ، وما هي الظروف التي قضت بهذا التناقض ، فهذا لا مجال له في هذا الكتاب. غير ان امرين ، لا يستطيع المتتبع شؤون القضية العربية اغفالهما، وهما «حرد» لورنس على حكومته، وارجاعه جميع اوسمته اليها بعد الحرب، لعدم قيامها بوعود كان هو ناقلها الى العرب في اثناء الحرب ، وهياج العرب انفسهم، لاعتبارهم بريطانيا ناكثة بعهودها تجاههم. وكانت فلسطين، والقضية الصهيونية في رأس هذه الاسباب .

انقلبت محبة العرب لبريطانيا ، بعـــد الحرب الماضية ، الى استنكار ، فنفور ، فكره . واشتعلت في العراق ثورة على الانكليز . اما في فلسطين ، وقد كان الخطر الصهيوني يتزايد فيها يوماً عن يوم ، وسنة عن سنة ، فقد قامت ثورتان ، الثانية منهما ادهشت العالم بصلابتها وجهادها . وفلسطين ، القطر الصغير ، الذي لا يزيد عدد سكانه على المليون ونصف المليون ، يقف بوجه امبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، ومن ورائها يهود العالم اجمع ! ! ونفخت فلسطين الثائرة في الاقوام العربيـــة روح الحقد والضغينة على الانكليز الذين اتهمهم العرب ، بانهم ينوون قطع فلسطين من جسم البلاد العربية ، واعطاءها لليهود وطناً قومياً . وفلسطين مقدسة عند العرب ، مسلمين ومسيحيين ، فيها الحرم ، وفيها المسجد الاقصى ، وفيها قبر المسيح . ولكن ، أصحيح ان الانكليز يريدون ان تكون فلسطين لليهود ، ام انهم يرغبون في ان يكون في فلسطين وطن قومي لليهود؟ ان بين الاثنين فرقاً ظاهراً، وفلسطين ان أقرّوا بوطن قومي فيها لليهود ، في وقت يعترفون

بها بلاداً عربية ، الاكثرية فيها من العرب ، فهم بذلك ، يضمنون لانفسهم حق المراقبة عليها، والتربع في دست الحكم عند اختلاف الشعبين : العربي واليهودي ، « وهذا لا مناص منه » فبذلك يبقى اشرافهم مضموناً . ومصلحتهم الستراتيجية في الشرق تقضي بأن تبقى فلسطين منطقة من منـــاطق نفوذهم . أليست جارة ترعة السويس ، شريان القلب في الامبراطورية ، ونقطة الوصل بين اجزائها المترامية الاطراف .

انا لا اريد ان ابحث هنا فيما اذا كان لبريطانيا فضل على العرب أم لا ، ولا اريد ان اضع في كفتي الميزان مساعدة العرب للحلفاء في الحرب الماضية ، ومساعدة الحلفاء ، وبالاحرى بريطانيا ، للعرب بعد الحرب ، لنرى ايّ الكفتين تكون الراجحة ، وليكن التاريخ حكماً . غير ان ما اقوله ، واعتمد الصراحة به ، مهما سببت هذه الصراحة من سخط بعضهم ، هو ان العرب انقسموا في موقفهم تجاه بريطانيا الى فئتين : فئة تؤيد بريطانيا ، وترى فيهـــا اقرب الدول الغربيـــة الى التفاهم مع العرب وضمان مصالحهم . وهذه الفئة تضم بالاكثر ، المفكرين وابناء الطبقة المثقفة ، وهي — ايضاً بالصراحة — بين العرب أقليّة . وفئة ثانية تضم الاكثرية من العرب ، زعماؤها يعتمدون على تأييد الرأي العام العربي وقد اثاروا فيـه روح الحقد على الانكليز ، مستعينين بالدين تارة ، وبالقومية طوراً ، حتى اظهروا لهم ان بريطانيـا هي عدوة العرب ، وعدوة الدين الاسلامي . والعرب لا تثير حماستهم عقيـــدة كالعقيدة الدينية . الفئة الاولى محرومة من تأييد الرأي العام . تكتم امرها وتعمـل

بحذر. والثانية متسلحة بالرأي العام ، فتعمل جهراً. انا ، من جهتي ، وكما افهم السياسة — مع اقراري اني لست من ابطالها — أرى في القضية الفلسطينية غبناً على العرب . واعتقد — دائماً على قدر مفهوميتي السياسية — ان الانكليز ، في هذه القضية ، انكروا على العرب امانيهم الى حد بعيد . ولكن أترى خطيئة الانكليز في فلسطين تقضي بمحو كل ما هنالك من تبادل المصالح بينهم وبين العرب في جميع الاقطار ؟ وماذا كان السبب في ثورات العراق الاولى ، قبل ان يتفاقم الخطر الصهيوني في فلسطين ؟

قال العراقيون : هؤلاء الانكليز يريدون ان تكون لهم قدم ثابتة في العراق ، ويريدون ان تكون المعاهدة بين بلدينا ضامنة لحقوق لهم عندنا ، لا تليق بدولة مستقلة ذات سيادة كاملة . وقال الانكليز : اننا لا نضمر للعراق الا الخير والنجاح ، ولا نريد ان نتدخل بشؤون العراق ، واستقلاله، وامانيه الوطنية والقومية. ولكن، مقابل مساعداتنا اياه على نيل الاستقلال، ومقابل تضحيات بذلناها في الارواح والاموال ، وقبور ملأناها وتركناها في ارض العراق ، يحق لنا بعض امتيازات وافضليات لا تضر بالعراق ، وتكون ضامناً لاستراتيجيتنا ومصالحنا في الشرق . وكما كنا شركاء في الجهاد ، ألا يحق لنا ان نشترك في المصلحة ، لا سيما ونحن لا نقف عثرة في سبيل العراق ، واستقلاله ، وتقدمه ؟ وليس هذا فحسب ، بل ساعدناه ونساعده على الوصول الى غايته ، وها هو قبل ان تمضي بضع سنوات على نجاته من الحكم العثماني ، ينال استقلالاً ومكانة بين الامم تحسده عليهما بقية الاقطار المحررة .

ولكن للانكليز اعداء بين الدول الاوروبية ، وهؤلاء يجب ان يستفيدوا من نقمة العرب ، فأخذوا يوسعون دعاياتهم ، ويبذلون المعونة بسخاء لبعض الزعماء من العرب الحاقدين على الانكليز ، والنافرين منهم . وها هي قضية فلسطين موضوع مهيأ لهذه الدعايات ، فلماذا لا يغتنمون الفرص . وانتشرت من فلسطين الرسل ، تدعو العرب الى الثورة على بريطانيا عندما داهمتها الحرب . وكان الضعف الذي ظهر من الانكليز مشجعاً لاعدائهم عليهم ، فقامت حركة الكيلاني في العراق ، وأعلنت حكومته الثورة على الانكليز ، وكان من الطبيعي ان يتأثر العرب في جميع الاقطار بهذه الثورة ، ويعطفون على القائمين بها ، حتى ولو لم يكونوا مؤيدين لهذه الحركة التي لم يكن منهـــا اي نفع للعراق ، والتي أجمع اصحاب الرأي الصائب على انها بنت الطيش وعدم الروية .

وبعد هذه الفذلكة الطويلة ، لنرجع الى لبنان . فهـذا القطر العربي تأثر بمجموعه بالمحنة التي نزلت بالعراق ، وعطف على اخوان له يستشهدون في سبيل غاية ، اختلف فيها مفكرو العرب انفسهم . ووسط هذه المأساة وجدت في بيروت اللجنة الالمانية الطليـانية ، وأخذت تسعى لاثارة الحقد على الانكليز ، وسلطات فيشي تجيزها على تدابيرها : فريضة الغالب على المغلوب . وكان الجنرال دانتز يأتمر بأمر رئيس اللجنة الالمانيـــة في تلك الآونة ، ويضع تحت تصرف الطائرات الالمانية مطارات الرياق وحلب ، عند مرورها الى العراق ، فضلاً عن ان كميات من المواد الغذائية اجتازت لبنان وسوريا عن طريق تركيا ، وهي وان لم تكن كبيرة ، فانها زادت في

تحرج الحالة الاقتصادية في البلاد ، الى درجة زاد معهـا الذعر والخوف من الجوع والعوز القاتل . وكان فندق « متروبول » (مقر اللجنة) مزاراً لهيئات مختلفة ، منها الناقم يأتي متظلماً ، ومنها صاحب مصلحة ، عسُر عليه قضاؤها ، يأتي مستنجداً ، واللجنة لم تأنف من التدخل في جميع الامور لما كان لهـا من التأثير في السلطات ، حتى اصبحت المرجع الاعلى في جميع المسائل المهمة ، ان سياسية او اقتصادية. وتفاقم خطر الاحتكاك بين السلطتين: الانكليزية في فلسطين والفرنسية الفيشية في لبنان وسوريا ، واصبحت الحرب بينهما على قاب قوسين .

— ٩ —

في صميم المعركة

في اوائل حزيران سنة ١٩٤١ ، تحرجت الحالة بين الجارتين الى حدّ لا مناص معه من الاحتكام الى المدفع . فقد أخذت الاذاعات الانكليزية والموالية لها في مصر ، وفلسطين ، واميركا ، وانقره ، تتهم سلطات الانتداب في سوريا ولبنان ، بانها تفتح السبيل امام المحور ودعاته ليكون له من هذين القطرين ملجأ لطائراته ووكراً لدعاياته . وانذرت السلطات البريطانية سلطات الانتداب هنـا ، بانها ستتخذ التدابير القمعيـة لمنع هذه الامور . فأنكر الجنرال دنتز ، باذاعة من راديو بيروت ، التهمـة التي وجهتها اليـه لاذاعات البريطانية والحليفـة . وأعطى عذراً لبعض طائرات

المانية حطت في رياق او حلب ، مضطرة لعطب طرأ عليهـا . ولكن الحقيقة التي عرفناها نحن ، بقطع النظر عن التهمـة من الانكليز ، والتكذيب من دانتز ، هي ان الطائرات الالمانيـة لم تكن تحط في المطارات الفرنسية فحسب ، بل كانت تستعمل هذه المطارات لعملياتها الحربية عندما كانت ثورة العراق قائمة ، وكانت تتمون منها وتتخذها ملجأ . وقد كادت تتسلمها تسلماً باتاً لو لم تنته ثورة العراق الى الفشل بوقت قصير . غير ان الاشاعات التي كانت تشيعها بعض المحافل الغربيـة من انكليزية وتركية وغيرها عن وجود جيش الماني هبط سوريا ولبنان ، فهي غـير حقيقية . وما وجد في المنطقة الفرنسية من اولئك ، غير بعض افراد وضباط من رجال الطيران لا نستطيع ان نسميهم جيشاً . ولكن هي ذريعة اتخذها البريطانيون ليـبرروا الخطة التي اعتزموا القيام بهـا ، لدفع الخطر الذي شعروا به عندما قوي نفوذ المحور على منطقـة الانتداب الفرنسي ، هـذا الخطر الذي كان يزداد يوماً عن يوم . وبرأيي انه لو لم تقع الواقعـة ، ويستعجل البريطانيون قيامهم بالهجوم ، لكان تسرب الى هذه البلاد قوات محورية تزيد في تحرج الموقف . هذه هي الحقيقـة التي لمسناها هنا . اما وجود طائرات المانية في اثناء المعركة البريطانية الفرنسية فامر لا يقبل الجدل . واما النفوذ الالماني فقد كان ظاهراً ظهور الشمس في رابعة النهار . كان ظاهراً في الادارة المدنية ، وفي الضغط عـلى السلطات العسكرية الفرنسية التي لولاه لمـا بلغت مقـاومة الفرنسيين الحد الذي بلغت اليه ، بالرغم من اعتقاد اولئك ان مقاومتهم مهما طالت فهي

غير مجدية ، بالنظر للتفوق الحربي البريطاني في هذه الجبهة ، اذ ان القوات الافرنسية واعتدتها كانت هزيلة جداً اذا قيست بقوات اخصامهم ، مما يدع المطلع ان يسمي هـــذه المقاومة انتحارا . والظاهر ان الانكليز كان في خلدهم ان المقاومة الفرنسية لن تطول، ولربما كان لاستخبارات مساعديهم الفرنسيين الاحرار تأثـــير في معتقدهم هذا . فكانت المعركة في بدئها كناية عن مناوشات تجنب فيها الجيش المهاجم انزال الضربات القاسية . ولكن وجهة النظر تغيرت بعد اسبوع من ابتداء الحملة ، عندما رأوا الجيش الفرنسي — تحت ضغط الجنرال الالمـــاني — يدافع مستبسلاً ويضحي بافراده قربانا على مذبح الاطماع الالمانية . وعندما اعلن تشرشل ان الحرب ستتخذ شكلاً شديداً لا هوادة فيه ، انقلبت المناوشات الى معارك محتدمة في البر والبحر والجو .

وقد كانت الطائرات البريطانية تحوم في سماء بيروت ، وتنثر النشرات المختلفة . منها ما هو موجه الى الجيش الفرنسي تنصحه بعدم المقاومة . ومنها ما هو موجه الى اللبنانيين والسوريين ، تطمئنهم انها لا تقصد بهجومها الا القضاء على النفوذ المحوري . وانهـــا لن تغير الا على الاهداف العسكرية ، وخزانات البترول . وبالفعل ، انه في العشرة الايام الاولى ، كانت تأتي هـذه الطائرات وتذهب تواً الى محلة الكرنتينا والدورة ، مقر هذه الخزانات ، وتضربهـــا . وقبل ان ترمي عليها قنابلها ، تشير الى العمال والسكان المجاورين ، كي يبتعدوا عن منطقة الخطر . ولهذا بقي الاهلون كل هذه المدة

مطمئنين لا يبدون ذعراً ، غير ان هـــذا لم يمنع قسماً كبيراً من اهالي بيروت ان يترك البلد الى الجبال . ولكن الذعر زاد عندما رأى الناس تطوراً في شكل الحرب ، وعندما حمي وطيس القتال وظهر شبح الخطر يهدد المدينة الآمنـــة بالرغم من بعـدها عن جبهة القتـــال .

— ١٠ —

جبهات القتال

زحفت الجيوش البريطانية وشرذمة من مناصري حركة ده‌غول من فلسطين منقسمة الى ثلاثـــة اقسام : القسم الساحلي متخذاً « الناقورة » قاعدة له ، والقسم الثاني اتجـه نحو « مرجعيون » ، والقسم الثالث ، وهو الميمنة ، زحف مستهدفاً الاراضي السورية تجاه « درعا » . وقد كانت مهمة الفرقـة الساحلية في الايام الاولى من المعركة اهون من سواها . اذ ان الدفاع في هذه الجبهة كان ضعيفاً ، فلم يمض اليومان الاولان حتى استولت عـلى « صور » ووصلت بزحفها الى « نهر القاسمية » ، وكانت الفرقة الوسطى تهاجم منطقة مرجعيون ، حيث كان الفيشيون حشدوا فيهـــا اكثر قواتهم . فحمي هناك القتال . واستولى الانكليز على بلدة مرجعيون ، ثم لم يلبث الفرنسيون ان استرجعوها ، وبقيت بيدهم اياماً حتى اندفع اليهـــا البريطانيون بقوات كبيرة ميكانيكية وجوية ، فطردوا الفرنسيين ، ووطدوا اقدامهم هناك ليجعلوا منها نقطة لحركاتهم .

بير ان هذه المعارك الطاحنة في جبهة مرجعيون ، كانت سبباً لخراب واسع النطاق ، نزل بالبلدة وبالقرى المجاورة ، فهرب السكان ، وكثر السلب والنهب من الجيوش ، ومن حثالة الناس الذين ينزلون الى ادنى دركات الانحطاط الخلقي ، فيغتنمون فرصة حرجة كهذه ليستفيدوا من بلية المجموع . اما الميمنة ، فتقدمت في الاراضي السورية على الخط الحديدي . فاحتلت درعا ، ومنها زحفت على دمشق الشام ، وفي هذه الجبهة وجدت مفرزة الفرنسيين الاحرار بقيادة الجنرال كوله الذي كان قد انتقل من معسكر « الفيشيين » الى معسكر الديغوليين مجتازاً الحدود الفلسطينية في بدء المعركة . ومع ان الميمنة اصطدمت بمقاومة قوات فيشي ، بين درعا ودمشق ، غير ان هذه المقاومة لم تلبث ان تلاشت تحت ضغط اخصامها ، وخلصت مدينة دمشق من الخراب الذي اصاب مدينة بيروت ، اذ ان رجال السلطات الوطنية في الاولى ، عندما وجه الجنرال « ولسن » انذاره بالتسليم ، ورأى اولئك ان لا مناص من الامر ، اشعروا السلطة الفيشية انهم لا يقبلون ان تدمر مدينتهم عاصمة سوريا ، لمجرد عناد لا يأتي بنتيجة لا لهم ولا للفرنسيين . وهكذا انسحبت الجيوش الفيشية من المدينة ودخلت جيوش الحلفاء ، وكان ذلك في الايام الاولى من تموز ، بينما كانت رحى المعارك دائرة في لبنان ، وبينما كانت بيروت تتلقى الاغارات الجوية الليلية .

ولم يدخل شهر تموز حتى حمي وطيس القتال على الجبهة اللبنانية ، وكانت الجيوش البريطانية المهاجمة الساحل اللبناني من الاوستراليين .

وفي هذه الآونة كانت القوة الانكليزية قد وصلت الى بلدة الدامور، التي جعل منها « الفيشيون » نقطة الدفاع الكبرى . وكان هذا الخط الدفاعي يبتدىء من الدامور على الساحل صاعداً الى الصرد عن طريق « روم » وهي مزرعة على قمة جبل ، مارا بشقيف « عبيه » و « كفر متى » مجتازاً الى « كفر حيم » و « بعقلين » ثم « الباروك » ليتصل بجبهة « جزين »، هذه البلدة التي اصابها ما اصاب بلدة مرجعيون ، اذ انها كانت هدف الانكليز ، بعد ان توطدوا في منطقة مرجعيون. وقد اخذ الفرنسيون منها حصناً لهم . وجزين هذه انتقلت اكثر من مرة من يد الجيوش البريطانية الى الجيوش الفيشية وبالعكس . وفي الفترة التي انتقلت فيها جزين من ايدي البريطانيين الى الفيشيين ، صب هؤلاء غضبهم وانتقامهم على السكان منزلين من الفظائع ما يذكره الجزينيون بألم وحقد . فعمل الجيش الفيشي في البلدة نهباً، وهرب اهل البلدة الى القرى المجاورة لينجوا من تلك الفظائع . ويسردون لك حوادث من اعمالهم تقشعر لها الابدان. وكانت نكبة جزين نكبة دامية ، بيوتها تهدمت ، واهلها هاموا على وجوههم في الفيافي والمناطق المجاورة ، تاركين وراءهم ارزاقهم واموالهم طعمة للناهبين .

ولعل معركة الدامور كانت اشد المعارك ، اذ ان الفيشيين في هذه البلدة صمدوا اكثر من اسبوعين ، وكانت مدافع الاسطول تشترك مع هجوم الدبابات والقوات الجوية في هذه المعركة . كانت قطعات الاسطول البريطاني مرابطة مقابل هذه الجبهة، تقصف مدافعها فتصيب كافة الحصون من البحر الى بتدين . ولو لم تتجنب

هذه القوات خراب المدن ، لكان الاسبوعان اللذان صمدت في اثنائهما هذه الجبهة ، كافيان لترك كافة القرى قاعاً صفصفاً ، ولكن لم يكن هدف الاسطول ولا القوات الميكانيكية والجوية تخريب البلاد ، الا عندما يتعذر عليها القضاء على مقاومة اخصامها بدون هذه الاضرار . وقد كان عناد الفيشيين السبب الاكبر لهذا التخريب ، ولو كان من مقاومتهم نفع يرجى لما لامهم اللائمون ، ولكن هو ضغط المستشارين الالمان الذين كانوا يديرون حركة المقاومة لغاية في نفوسهم . حتى ان اكثرية افراد القطعات المحاربة كانوا يتركون اسلحتهم هاربين ، فاذا وصلوا الى قرية ، خلعوا ثيابهم العسكرية وارتدوا ألبسة يتناولونها من الاهالي ، لينجوا من هلاك محتم ينتظرهم . وكان اكثر اولئك الافراد من فرقة القناصة اللبنانية ، التي دفعتها السلطة الفيشية الى مقدمة الخطوط النارية . فقتل من هذه الفرقة اكثر مما قتل من كافة الجيوش الفرنسية . مساكين اولئك الجنود من اللبنانيين والسوريين الذين احوجتهم الحاجة فتطوعوا في هذه الفرقة ، لتقدمهم فيشي ذبيحة لاغراض رجالها وسياستها. لو ذهب اولئك الوطنيون فدية لوطنهم ولكرامة بلادهم ، لما اسفنا على دماء تراق ، وارواح تزهق ، ولكن ان يساقوا الى الذبح ، اشباعاً لاطماع غريبة!! فهذا ما يثير كوامن الحقد والكراهية في صدور الاقوام الذين استعبدتهم السياسة الدولية الطماعة ، واستباحت ارواحهم واموالهم خدمة لمصالحها وغاياتها.

ودخلت الدامور في المعركة ، وكتبت بدماء ابنائها صفحة في تاريخ لبنان . لقد اتخذ الفيشيون منها ، ومن المرتفات المحيطة بها ،

حصناً لدفاعهم ، فنزلت بها نكبتان : نكبة الحرب والمدافع والدبابات والطائرات ، ونكبة الجيش المتحصن فيها وفي بيوتها وبساتينها . بعد ان تمركزت قوات فيشي في الدامور ، رأى اهلها الخطر يحيط بهم ، فهجروا بلدتهم الى الصرود والقرى المجاورة ، ولجأ منهم الكثيرون الى « دير الناعمة » ، وما دفعهم الى ذلك خوفهم من خطر المعارك فقط ، لكنهم هربوا من تعدي افراد الجيش عليهم . وبقيت الدامور صامدة اكثر من اسبوعين كاملين ، تتلقى من البحر قنابل الاسطول ، ومن البر رشاشات المدافع ، حتى انه لم يبق من بيوتها اكثر من الربع لم تصب بتخريب . اما بساتينها النضرة فقد اشترك في محقها عاملان : القنابل من جهة ، والاهمال من جهة ثانية ، اذ انه عندما هام اهل البلدة على وجوههم تجنباً للخطر ، لم يبق هناك من يعتني بالبساتين ، فماتت الاشجار من الجفاف . ولم تقتصر معركة الدامور على البلدة فقط ، فقد كان هدف الغزاة مؤخرات الجيش ومراكز تموينه . ولهذا كانت القرى الساحلية ، من « الدامور » ، الى « خلده » ، الى « الشويفات » الى « كفرشيما » ، كلها تحت خطر قنابل الانكليز من جهة ، وقنابل الفيشيين من جهة ثانية . فقد ركز الآخرون دفاعهم في مرتفعات الشويفات ، والجمهور ، والوادي ، ونقطة الورور . واصبحت القرى بين منطقتي القتال معرضة لنيران المعسكرين ، ولهذا لم تسلم قرية من هذه القرى من بعض التخريب ، ومن بعض ضحايا بريئة ، ومن الذعر والهجرة الشاملة وما يرافقها من الجوع والسلب ، خصوصاً عندما يفقد كل نظام ، وتحرم البلاد من اي تدبير او

تنظيم لمصلحة الاهلين . ولو لم يوضع حد للقتال في العاشر من شهر تموز ، لاصبحت هذه المنطقة كلها مجموعة خرائب . اما نحن الذين هربنا الى المناطق الجبلية ، في جوار عاليه ، فلم يصبنا من هذه الحرب غير زيارة الطائرات المغيرة ، تهددنا بمشاعيلها وازيزها ، وتقذف بقنبلة هنا وقنبلة هناك ، في طريقها الى « وادي حمانا » ، مخبأ « الجبخانة » الفيشية . ولكننا كنا نتألم لمشاهدتنا ضرب القرى الساحلية ، فكم ليلة قضيناها ساهرين قلقين على اخوان لنا هناك ، ينظرون الى الموت قادماً اليهم ، في سبيل اغراض المقاتلين .

— ١١ —

بيروت في النهار

لم تكن حصة مدينة بيروت من المعركة ، بأقل من حصة شقيقاتها الصغيرات في جبهة القتال . فالطائرات كانت تغير عليها كل ليلة بدون انقطاع ، عدا عن الاغارات النهارية المتقطعة . اما في الاسبوع الاول من المعركة ، فكما قلنا سابقاً : انحصرت الاهداف بالمناطق العسكرية ، لا سيما في خزانات البترول في حي الكرنتينا والدورة ، ولكن ، عندما انقلب شكل القتال ، وعندما بدا من الفرنسيين عناد في المقاومة ، تحت ضغط اللجنة العسكرية الالمانية ، وعندما اخذت جماعة فيشي ، عن نية مشبوهة ، تطلق نار مدافعها المقاومة للطيران ، من داخل احياء المدينة وشوارعها ، ومن بين بيوتها الآهلة ، عمدت الطائرات عندئذ الى القاء قنابلها على هذه الاهداف ،

متخذة من مقاومة الفرنسيين في قلب البلد ، عذراً لعملها المخرب . هو عمل قاس وغير مشروع لا يخلو من وحشية ، ولعلي لا اكون مخطئـــاً اذا نسبت هذه الوحشية الى الطرفين . فالفرنسيون لم يكونوا مخلصي النية تجاه السكان عندما سيروا سياراتهم المصفحة في الشوارع والاحياء الآهلة ، يطلقون منها مدافعهم على الطائرات ، والانكليز لم يكونوا انسانيين عندما رموا بقذائفهم المحرقة والمهدمة على البيوت ، فاخلوا بوعد نشروه على الناس في بدء القتال ، بانهم لا يستهدفون غير المناطق العسكرية البحتة ، لا سيما وان قنابل المدافعين في قلب البلد كانت اضعف من ان تطال طائراتهم المغيرة ، ولكن هو الاستفزاز ، والاستفزاز قد يخفف الجرم . وهنا لا بد من الاشارة الى امر استلفت انظار الناس في تلك الآونة ، ساقوله بكل صراحة . والواقع قد يبرر ما في الصراحة من الاتهام .

تعددت الاغارات الجوية الليلية ، وكانت تدوم الواحدة عـدة ساعات ، يلقى فيها عشرات القنابل . حتى وصل الناس الى معرفة وقت زيارة الطائرات . وكنا نحن في الجبل عندما تـــدق الساعة العاشرة مساء ، نرقب وصول الزائرين المغيرين ، فنشرف على بيروت من المرتفعات ، فاذا انطفأت الانوار سمعنا ازيز الطائرات ، ودوت مدافع المقاومة ، ومن المستغرب ان هذه الطائرات كانت تستهدف الحي الشرقي من المدينة ، والحي الشرقي هو حي المسيحيين ، فما هذا التفريق والاجحاف من قبل القوات البريطانية ؟ فلنسمع ما يقوله النـاس ، والسلطات ، والمحبون ، والمغرضون ، ولننظر الى الامر الواقع لعلنا ندفع تهمة او نؤيد حجة .

لقد كانت اكثرية المسيحيين المطلقة في لبنان : الدولة ، وفي بيروت: العاصمة ، من الناقمين على سلطات فيشي وممثليها في هذه البلاد ، ومن المؤيدين لبريطانيا ولحركة الجنرال ده غول . وكانوا يرقبون مجيء القوات الانكليزية من فلسطين ، تخلصاً من الحالة التي وصلت اليها البلاد في تلك الفترة . وكانوا يؤمنون ان خلاصهم لا يتم الا اذا احتلت لبنان الجيوش الانكليزية ، ورجعت العلاقات مع فلسطين والاقطار المجاورة الى ما كانت عليه. ولم يستثن من اولئك غير الاقلية الضئيلة من الاغنياء والموسرين الذين لم يتأثروا كثيراً بالضيق ، والعوز ، والجوع ، ويهمهم من الدنيا ان يبقوا متمتعين براحتهم ، يسهرون لياليهم على اشعة الكهرباء ، لا تفوتهم اجتماعات اللهو والرقص واللعب ، ولا يخدش آذانهم قصف المدافع ولا ازيز الطائرات ، ولا يخشون خطراً على حياتهم العزيزة ، ولا يهمهم ان تشقى العامة او يموت الفقير . والخاصة في بلادنا مشهورة بحب الذات ، وبالعجرفة ، وبعدم مشاركة العامة شعورها ومحنها ، غير ان هذه الفئة لا تتعدى الخمسة في المائة ، اما الخمسة والتسعون ، فقد كانوا يعيشون عيشة الحاجة والذل والضيق ، ولهذا آثروا الاحتلال الانكليزي ، بالرغم مما سيكون وراءه من خطر الحرب ، التي رأوا فيها خطراً اقل كثيراً من خطر الفقر . هذه كانت حالة المسيحيين، وهذا ما جعلهم يفرحون عندما ابتدأ الزحف الانكليزي على لبنان .

اما المسلمون فلم يكن نصيبهم من الضائقة بأقل من نصيب اخوانهم المسيحيين ، ولم تختلف حالتهم العامة عن حالة اولئك .

ولكن ، هنالك حقد يغلي في صدورهم على الانكليز ، يزيده سعيراً الدعاية المحورية في العـــالم الاسلامي. ولذلك رأيناهم يتقربون الى الفرنسيين الذين ما كانوا غير عمال عند الالمان ، يتصرفون بمشيئتهم ويأتمرون باوامرهم . هـــذا ما اوجد في الفيشيين كرهاً للطوائف المسيحية ، وعطفاً مصطنعاً على المسلمين . واذا امنت شر عدوك ، فلا تأمن شر صديقك متى انقلب عدواً لك . وتجاه هذه الحالة فتق للفرنسيين حيلة . ولربما دلهم عليها اسيادهم الالمان، يثيرون بواسطتها حنق النصارى على الانكليز . قالوا ، لننزل عـلى اولئك الخراب من الطائرات الانكليزية . وللوصول الى هذه الغـــاية ، لنسيرنّ السيارات المصفحة في شوارعهم واحيائهم ، فتضرب هذه الطائرات المناطق التي تقصف منها مدافعنا ورشاشاتنا ، لعلهم يقولون : من بيت ابي ضربت . وليباركوا الانكليز . ولقد نجحت الحيلة وعلت من بين النصارى اصوات النقمة على المغيرين ، ولو الى امد قصير . هو تفسير يجيزه الامر الواقع ، والامر الواقع هو انـه بينما كانت مصفحات المقاومة تتخطر كل ليـــلة في الحي الشرقي المسيحي ، لم تذهب مرة الى الاحياء الاسلامية . وكانت نتيجة الامر ، انـه في كل ليلة كانت تتهدم بيوت عديدة في « الجميزه » ، « ومار نقولا » موطن النصارى ، ولم يتهـدم من بيوت الحي الاسلامي الا القليل القليل . وذلك من تأثير قنابل سقطت بالجوار . لرب قائل يقول انه تفسير مغرض . ولكن هو الامر الواقع الذي دعا يوماً مطران الروم في بيروت ، ان يطلب من الجنرال دانتز ، عـدم تعريض احياء ابناء طائفته للخراب ، ولكن من هو مطران الروم في ذلك

الوقت ، والجنرال دانتز واسياده الالمان ، لا يهمهم اذا احترقت البلاد كلها في سبيل غايتهم الخاصة .

ويتهمهم الخبثاء بتهمة ثانية ، اذا صحت اعوذ بالله من فظاعتها ، قالوا : ان التخريب لم يكن من الطائرات الانكليزية فقط . ان الطائرات الفرنسية ، والالمانية معها ، قامت بنصيبها من الجرم . ويأتونك بأدلة يثبتون بها التهمة ، اذ استدلوا على ذلك من بعض قنابل وشظايا قنابل المانية ، وجدت في المحلات المخربة ، وقنبلة كبيرة سقطت في « محلة الصنائع » ولم تنفجر ، ثم قرر الخبراء انها المانية ، وبقيت في الارض حتى بعد دخول الانكليز ، فارسلوا اختصاصيين لرفعها . وايد التهمة تقرير وزارة الطيران الانكليزي ، وقد جاء فيه انه في اثناء معركة بيروت ، بعثوا فوق المدينة ١٧ غارة . واما اهل بيروت فقد عدوا الاغارات بسبع وعشرين . فمن قام بالعشر اغارات المنسية ، وهل القيشيون الذين اضمروا للبلاد حقداً في قلوبهم ، واظهروا عداءهم في مختلف المناسبات ، مسؤولون عنها . ربما يقوم التاريخ باظهار ما استتر ، وطالما جلا التاريخ من حقائق كانت مجهولة .

تباً لتلك الايام ولياليها الواقعة بين ١٥ حزيران و ١٠ تموز من سنة ١٩٤١ . فترة من العمر رهيبة ، ذاقت فيها بيروت من الجراح ما لا تنساه الى اجيال ، والبيروتيون لم يتعودوا على الحروب ، ولا عرفوا بمخاطرها ، واذا بهم اليوم يلاقون اشدها ويلاً وخطراً . هي حرب الطائرات لا تعرف جبهة ، ولا تراعي مسالماً ، ولا

تفرّق بين جيش محارب وعائلات في بيوتها آمنة وهاهي بيروت تقفر من سكانها ، في الحي الشرقي بالاكثر ، يؤمها في النهار بعضهم لعدة اشغال او مهام ، فما يحل العصر حتى يتراكض الناس الى الجبال ، ومن تأخر الى الغروب ، هرول مسرعاً الى خارج البلد . وكيف لا يخافون ، والطائرات تنتظر سدول الليل كي تصل متخطرة الى سماء بيروت . وارتفعت اجور السيارات ، الى حد قريب من الجنون . اربعون ليرة الى بحمدون ، خمسون الى صوفر ، مائة الى ضهور الشوير ، لا رادع ولا نظام ، ولا من يحزنون . والويل للفقير . وكانت هذه الهجرة سبباً لقلة الذين قتلوا بقنابل الطائرات . وكانت البيوت الفارغة من السكان تتهدم الواحد بعد الآخر . وكنت انا انزل من الجبل في الصباح ، فاشاهد خراب الليل ، واسائل نفسي ترى ايجيء دوري في احد هذه الايام ، خصوصاً عندما سقط في جواري اربع قنابل ، احداها محرقة ، في الليل الخامس والعشرين ، والليل السادس والعشرين من حزيران ، فتهدم من ابنية هذا الحي اكثر من عشرين . ولكن ، هذا نصيبه ان يخرب ، وهذا نصيبه ان يبقى ، والنصيب شقيق القدر ، والقدر سيد الحاكمين .

في تلك الاونة ، تألفت في البلد لجنة لاعانة المنكوبين ، وهم كثر في البقاع اللبنانية ، من اناس تهدمت بيوتهم فهاموا على وجوههم ، ومن اناس هجروا قراهم فآووا الى القرى المجاورة او البعيدة ، ومن عائلات اصبحت شريدة واطفال يتيموا وسكان نهبوا . وكانت هذه اللجنة تساعد على اعالة اللاجئين بما تجود به

ايدي المحسنين . وكان للسيدات النصيب الاكبر من الفضل . وكانت الاجتماعات تتوالى ايضاً للبحث في شؤون البلد . وقامت وفود عديدة تطلب الى السلطات ان تسعى لدى المراجع المختصة ، لتخفيف المحنة عن العاصمة . اذ من الحرام ان تتخرب مدينة آمنة لا ناقة لها في الامر ولا جمل . كنت عضواً في اكثر هذه الوفود . قلنا للفرنسيين . أيجوز ان تترك بيروت عرضة للتهديم دون ان يكون من وراء تهديمها اي فائدة ترجى ، لا للبلاد ، ولا للسلطة العسكرية . وهل هذه المدافع التي تطلقونها من الشوارع ، سيكون من ورائها لكم ربح المعركة . فلماذا لا تعلن اذن بيروت مدينة مفتوحة فيرجع الخصم عن ضربها عندئذ !؟ ولكن الفرنسيين حانقون على الاكثرية في بيروت وفي لبنان لميلهم الى الانكليز . والفرنسي بطبيعته حسود . فلماذا يحب اللبناني الانكليز وهم اليوم اعداء له . وهذا اللبناني الشرقي ، يجب ان يكون تابعاً لهم حتى في عاطفته . لقد كانت السلطة في بداية الحرب حليفة الانكليز ، تبث لهم الدعاية ، وتفرض محبتهم على الناس . واليوم هي عدوة الانكليز ، ومضطرة لكرههم . فعليك ايها اللبناني المحكوم ان تكون على رأي حاكميك . ان عاطفتك ليست ملكك . انما هي ملك اسيادك ومستعمريك — اعوذ بالله، المنتدَبين عليك — ويجب عليك ان تكيفها لمصلحتهم واغراضهم . هي فريضة القوي على الضعيف . وكيف تجسر اليوم ان تطلب بمراعاة مصلحتك . وما هي حقوقك ؟ وما هي قيمة ارواح بنيك واموالهم ، اذا كان لنا بالامر غاية ؟

اغتاظ الفرنسيون من مطالباتنا . واغلظوا القول . واقسم المتحمسون منهم انه اذا كان لا مناص من تسليم البلد ، فليتسلمها الانكليز خراباً . واذا لم يقووا على الانكليز ، فليكن انتقامهم من البلد الذي حكموه عشرين سنة ونيفاً ولم يكتسبوا محبة اهله . ولم يدر اولئك القوم ان المحبة لا تكتسب بالمعاملة السيئة ، وبالادارة المختلة ، وبجشع الاستعمار والاستثمار . والبلاد تئن من استعمارهم ، ومن تضحيتها على مذبح اطماعهم واطماع رجالهم . لقد كانت السلطة في هذه الآونة ، حرباً على البلاد وعلى اهلها . وكان معظم الجنود يغلظون المعاملة للاهلين . وكثيراً ما يعتدون عليهم بقسوة . ففي الدامور قتل ضابط فرنسي بمسدسه شقيقين وجيهين من سراة البلدة (الاخوان شكيبان) لمجرد تهمة بالرغم مما قدمه هذان الاخوان من المساعدة المادية للجيش . وفي قرية كفرشيما ، لحق جندي مغربي ، والمغاربة امتازوا بوحشيتهم ، بفتى من الشويفات (ط.ق.) عمره اثنتا عشرة سنة ، كان ذاهباً لشراء غذاء لابويه ، ففتكا به بعد ان اقترفا به الفعل الشنيع . ثم قطعوا جثته ارباً ارباً ، وطمروها في الارض اخفاء لجريمتهم الوحشية . ولم تظهر معالم هذه الجريمة الا بعد ثلاثة ايام من حدوثها . وفي كفرشيما ايضاً ، دخل نفر من اولئك المغاربة الى دكان لامرأة (و.ه.) ولما امتنعت عن قبولها بطالبيهم الشنعاء ، قتلوها شر قتلة . وفي جديدة بيروت ، وفي مناطق اخرى تعددت هذه الحوادث ، مما جعل الناس يرفعون الاحتجاجات الصارخة الى السلطات ، ويريدون رفع الحيف عنهم بواسطة السلاح . والنظام المفقود . والحقد المتأجج في الصدور ،

والمسؤولية الضائعة ، كل ذلك كان سبباً لهذه الفوضى الخطرة .

وذهبت الوفود الى رئيس الحكومة اللبنانية تطالبه بالتدخل لدى السلطات العسكرية لتوفر الخراب على البلاد . ومما لا ارى بداً من ان اذكره للرئيس نقاش ، اهتمامه واندفاعه وسعيه الحثيث في سبيل الوصول الى تخفيف وطأة الخراب . ومع ان الرئيس نقاش كان معيناً من قبل المفوض السامي ، وصلاحيته مستمدة من الجنرال دانتز ، فقد تعدى هذه الصلاحية ، معرضاً نفسه لملامة السلطة العسكرية . فتكررت مقابلاته للمراجع المختصة ، وارسل مذكرات شديدة اللهجة ضاق صدر الجنرال دانتز عن القبول بها . وهدد الرئيس باتخاذ تدابير قاسية بحقه . ويقال ان الجنرال الالماني نصح المفوض السامي باعدامه (كذا) ، ولكن وطنية النقاش سلحته بالاقدام غير عابىء بالتهديد والوعيد . حسنة تذكرها البلاد للنقاش .

وطرقنا باب القنصلية العامة للولايات المتحدة . فوجدنا في ممثل تلك الدولة الكبيرة ، رجلاً كبيراً . لقد سبقنا المستر « انغرت » الى العمل . فراجع السلطة الفرنسية ، لكي تمتنع عن تركيز المدافع المضادة في الشوارع والاحياء ، مستفزة الطائرات المغيرة . وراجع برقياً السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين كي تمتنع عن قذف المدينة بقنابلها . وتوسط دولته في الامر ، وألحف في المراجعات . ولا شك في ان المراجعات المتكررة ، والمخابرات التي دارت بواسطته بين الطرفين ، هي التي وضعت حداً للاغارات وللهدنة بعد ذلك

بيومين . ولكن من غريب المنطق ، ما أجابت السلطة الفرنسية حضرة القنصل ، عندما طلب منها التوقف عن استفزاز الطائرات باطلاق المدافع من قلب البلد . ها كم حجتهم كما بسطها القنصل للوفد ، وهو ساخر من قائليها . لقد قال له القائد الفرنسي : « اذا اردتم ان تنقطع المقاومة ، فبلغ انكلترا ان ترجع جيشها الى ما وراء الحدود ، وتقلع عن احتلالها سوريا ولبنان . » وضحك القنصل من جوابه كأنه يقول له ، ولربما قال : « ايها القائد دانتز ، لما اقترب الجيش الالماني من باريس عاصمة بلادك ، وكنت انت حاكمها العسكري ، هل طلبت الى الجيش الفاتح الرجوع عن الزحف واخلاء الاراضي الفرنسية ، عندما اعلنت باريس مدينة مفتوحة ، ام سلمتها الى الالمان كي توفر عنها خراباً اكيداً ؟ أتمتنع عن الدفاع عن بلادك ، لتدافع عبثاً عن بلاد وضعتها السياسة الاستعمارية تحت انتدابك ، فاستعملتها لغايتك واغراضك ؟ وها انت اليوم تعرضها للخراب المؤكد ، خدمة لاغراض نتيجتها الاخفاق . أليس لارواح الناس واموالهم من قيمة عندك ؟ » وظل هذا الرجل المخلص يسعى لانقاذ بيروت ، حتى اضطر الفرنسيون ، عندما تحرج موقفهم ، الى التسليم وطلب الهدنة . ان لبنان يحفظ في تاريخه للمستر انغرت صفحة مجيدة ، اقراراً بفضله واعترافاً بجميل صنعه .

كانت الايام الاولى من تموز ، صعبة على لبنان . لقد بلغ الذعر اشده ، والضيق حده الاقصى . لقد كانت القرى البعيدة عن مناطق القتال تغص بالمهاجرين واللاجئين . الاغنياء من اولئك استأجروا

بيوتاً لايواء عيالهم . والفقراء لجـــأوا الى الاديرة ، والمدارس ، والمحلات العامة . وكثير منهم لجـــأوا الى البراري ، يفترشون الارض ، ويلتحفون السماء . وبلغت الحاجة درجة لا قبل للاكثرية باحتمالها . خصوصاً عندما انقطعت داخلية البلاد عن ساحلها . فجاع كثيرون . وتغذى بالحشيش فئة لا تملك القوت الضروري. ودخلت الرحمة الى بعض القلوب . فهب اصحابهـــا يتعهدون اللاجئين ، والمحتاجين ، بما وصلت اليه ايديهم . وثارت عنـــد بعض الناس ، روح الطمع والجشع . فاغتنموها فرصـــة للاحتكار ، والاثراء ، والاستفادة من المصيبة . والمصيبة محك ، تدلك عـلى الصالح من الناس ، وعلى الطالح ، وعلى الجشع ، وعـــلى الخسيس . وبات الناس يرقبون الخلاص . والخلاص يحمله الجيش البريطاني الزاحف ، فهل يصل وفي لبنان رمق من الحياة ؟

ومرّ اليوم الثامن من تموز وليله . فكان سكوت يلفت النظر ، فالطائرات لم تقذف بالقنابل . وفي الجبهة ، وعلى خط القتال ، لا دوي ولا رعود . والسلطات في حركة مشبوهة . واعضاء اللجنـة الالمانية والايطالية يغادرون البلاد . وهناك همس بوقف القتال . واذاع المذيع اللبناني في المساء ، ان دانتز طلب الهدنـــة ، وان الجنرال ولسون وافق عليها ، وان الشروط في طريق التحضير . هل حلمت يوماً حلماً مزعجاً ، تحدق بك الاخطار ، وانت مشرف على هوة مخيفة ، ويد الشر تجرك الى الحافة ، لتقذف بك من عال لتلقى الموت المحتم ، فتصرخ وتستغيث وتستنجد بالله وبالنـاس ، ثم تصحو من نومك مضطرباً ، وتشكر العناية على خلاصك من هذا

« الكابوس » ؟ هكذا شعر اللبنانيون عندما ايقنوا من الهدنة . ومع ان الخطر المحدق كان حقيقة ، وليس حلماً ، غير ان المحنة التي نزلت بلبنان ، مرت مرور الاحلام ، اذ لم تتعد العشرين يوماً ، فشكر الله على الخلاص ، مترحماً على الارواح البريئة ، التي ذهبت على ذمة المستعمرين .

ووسط هذه الازمة القلقة ، والناس في هرج ومرج ، ورجال السلطة العسكرية في حيرة من مصيرهم ، لم ينس الجنرال دانتز ان هناك في البنك السوري ، كمية من الذهب الوهاج . فلماذا لا يحملها الى بلاده ، قبل ان تزول السلطة من يده . والبنك السوري يأتمر بامر المفوض السامي ؟ ولماذا لا نسلب البلاد من ذهبها الموجود في المصرف على الاقل ، اذا كنا عجزنا عن خرابها ، قبل ان نسلمها للعدو ؟ وهكذا تسلم دانتز الاربعمائة الف من الليرات الذهبية . ووضع المصرف في خزانته وصلاً يحمل توقيعه الشريف . وانتهت المأساة .

الفصل الخامس

بعد المعركة

— ١ —

وعود ووعود

عندما صمم الحلفاء على احتلال سوريا ولبنان ، بعد ان مهدوا السبيل لذلك ، بمختلف الدعايات ، وبالصاق التهم المتعددة بسلطات فيشي واسيادها المحوريين . وبعد ان رأوا ان الستراتيجية الحربية توجب ، بان تكون هـــذه البقعة المهمة من الشرق ، تحت مطلق تصرفهم ، بـدلا من ان تكون واسطة لتمركز سلطات المحور ، ونفوذ سياسته ، التي كانت آخذة بالازدياد . اقول بعد ان توطدت عزيمة الحلفاء على هذه الخطوة ، نشر القائد العام البريطاني لجيوش الشرق ، والجنرال كاترو القائـــد الفرنسي لجيوش الشرق الحرة ، بياناً على السوريين واللبنانيين ، نثر في المـــدن وبالقرى بواسطة الطيارات ، التي كانت تحلق في جو البلاد ، في الاسبوع الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، جاء فيه : « ان جيوش الحلفاء اعتزمت احتلال البلاد ، وغايتها الوحيدة هي طرد الالمـــان والطليان ، وعملائهم الفيشيين ، وانقاذ البلاد من سياسة الارهاق والتجويع ، التي درجت عليها سلطات فيشي ، خدمة لاسيادها الالمان . » وقد اعلن

البريطانيون والفرنسيون الاحرار ، انه بحال دخولهم سوريا ولبنان ينتهي عهد الانتداب ، وتصبح سوريا ولبنان ، دولتين مستقلتين صاحبتي سيادة . وقد ايد هذا التصريح السيد « تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، والسيد « ايدن » وزير خارجيتها ، في مجلس العموم البريطاني، والجنرال « ديغول » رئيس فرنسا الحرة. اذن هم دخلوا البلاد بوعد صريح ، لا يقبل الجدل ، واعتراف رسمي من اقطاب الحليفتين ، باستقلال كامل، وبسيادة قومية تامة. واذا كانت الحكومة البريطانية اجازت لرجال فرنسا الحرة ، ان يتولوا هم المفاوضة مع الهيئات الوطنية الرسمية ، لتنفيذ هذا الوعد والتصريح ، غير انهم اشترطوا ان لا يمس هذا التدخل او هذه الاستنابة ، سيادة القطرين التامة . وهم انما فعلوا ذلك ، لسياسة عالية ، تقضي بمسايرة الفرنسيين ، ولكي لا يتهمهم الاخصام ، بانهم يعتدون على حقوق فرنسا ، وهم في ظرف يقضي عليهم بان يظهروا للملأ ، انهم لا يعملون في سبيل مصلحة خاصة ، او بقصد ضم اراضي الغير . حتى بعد سقوطها ، ظلت فرنسا تدعي بحق لها ، وبريطانيا تساير « الديغوليين » طمعاً بمساعدتهم ، وخدماتهم ، وتهدئة لخواطر « الفيشيين » ، كي لا يزداد حنقهم عليها ، فيرتموا في احضان عدوها الالد « هتلر » . ولكن هي خطوة اولى في خطب ودّ البلاد السورية واللبنانية. فليعلن الاستقلال ، ولو على يد الفرنسيين ، والمستقبل يكفل لنا حق التدخل ، ويفتح امامنا مجالا كانت ترقبه دوائرنا السياسية ، منذ قرون عديدة . والانكليز في سياستهم ، يمشون خطوة فخطوة ، متذرعين بالثبات والصبر ،

ومتحالفين مع الأناة والوقت والزمن .

واسرف الغزاة بالوعود . وتعـــددت تصريحات اقطابهم ، بانقلابات خطيرة في البلاد لمصلحة اهلهـا ، من الوجهات السياسية والاقتصادية . وترنح الاهلون ، وعللوا الآمال بعهد جديـــد ، ينسيهم ما قاسوه من عذاب ، وما واجهوه من صعوبات ، ان في الاحكام او في الاعاشة ، او في التعامل التجـاري والاقتصادي . وها هم الحلفاء يعدونهم باستقلال كامل ، وبتعامل حر مع جيرانهم من الاقطار العربيـــة ، وتثبيت نقدهم على الاساس الاسترليني ، وبتموين البلاد التي افقرها « الفيشيون » . واكثر من كل ذلك ، بتحقيق حلمهم ، وذلك برفع كابوس الانتداب عنهم . هذا الانتداب الذي كان اشد ظلماً ، واقسى حكماً من الاستعمار . فاطلقوا على الجيوش الفاتحة لقب « جيوش الانقـــاذ » ، واستقبلوها بالفرح والسرور والزغردة . وباتوا يرقبون تحقيق الآمـــال . وكانت الاحتفالات تتوالى هنا وهناك ، في المـــدن ، وفي القرى ، وفي البيوت ، حيث يدعى افراد الجيش الفاتح من ضباط وافراد ، مما دعا البريطانيين الى ان يصرحوا بانهم لم يلاقوا بـــلاداً استقبلتهم بحسن وفادة وبضيافة ، كما استقبلوا من اللبنانيين . فاحبوا لبنان ، وسمعت من كثيرين منهم ان هذه البـلاد هي احب البلدان اليهم بعد بلادهم . والانكليزي يحب العيلة ، ويسر بالاجتماعات العائلية . وعليّ ان اعترف لهم ، وانا في هـذا الحديث ، بطيب الاحدوثة ، وبآداب الســـلوك ، في مخالطتهم الاسر ، ودخولهم الى بيوت المستقبلين . واذا عاب البعض على فئة منهم ، تصرفهم في الشوارع

والمقاهي ، عندما كانت تلعب في رؤوسهم الخمرة ، فما كان هـذا كافياً لحرمان المجموع من ميزات وصفات ، اتصفوا بها وكان منها فائدة للبلاد ، وللكثيرين من اهلها .

— ٢ —

يقظـة الطمع

لا شك في ان دخول الجيش البريطاني الى لبنـان ، فتح باب الرزق بوجه الكثيرين من اصحاب الاعمال والارتزاق . فمقاولات السلطة العسكرية البريطانية ، ومشترياتها ، والاشغال الكثيرة التي كانت تقوم بها ، باسراف ، اوجدت عملاً للمتعهدين ، والمهندسين ، والعمال ، والتجـار ، واصحاب المصالح . ورمت في اسواق البلاد كميات وفيرة من النقد . فازدهرت التجارة . وكثرت الارباح . وارتفعت الاسعار ، الى حدود جنونية . ناهيك بالبـذل السخي ، الذي تميز به الاستراليون المسرفون . فكانت المقاهي بالوعة لاموال اولئك الجنود ، وكان المتاجرون بالجعة (البيرة) في رأس الرابحين . واني اعرف مصنعاً للجعة كان معدل ربحه اليومي ، الف ليرة ولربما الالفين . والمغالون من الناس قالوا انه بلغ الاربعة آلاف ، ولم تقل ارباح غيره من المصانع والمتاجر عنـــه بكثير . ولم يبق هنالك عاطلون عن العمل ، اذ لم يحرم الاستفـادة ، الا من كان كسولاً متقاعساً . حتى الاولاد كانوا يربحون . والبريطـــانيون ، لا سيما الاستراليون منهم ، يعطفون على الاولاد . هي شعلة انسانية في

صدورهم ، تنم عن خلق طيب . ولا بأس في ان اذكر عن اولئك الجنود ، استهتارهم بالانظمة ، وتبذيرهم مقتنيات الجيش ، اذ كانوا يفرطون بها ، حتى عن طريق السرقة ، فيبيعون ما يسرقونه باسعار بخسة لبعض المنتفعين ، والمنتفعون كثيرون . وكانت هذه الارباح سبباً لتضخم النقد ، مما لم يسبق له نظير . وكثر التعامل بين الناس ، وازدهرت الاسواق ، واثرى عدد كبير من اصحاب الاشغال والاعمال . ومع ان الغلاء الذي تفشى في البلاد ، كان مثيراً لشكوى الكثيرين من اصحاب المداخيل المحدودة ، واصحاب المهن الحرة ، فان المجموع لم يشعر بالفاقة التي استحوذت عليه ، في اثناء الحرب الماضية . ولو كان في البلاد حكومة ساهرة كغيرها من حكومات البلدان الاخرى ، لما كان لهذا الغنى التي طافت به البلاد غير الاثر المستحب . ولكن بلية هذه البلاد كانت دائماً من حكوماتها المستهترة الفاسدة . فبدلا من ان تكون هذه عوناً للضعفاء ، وحرباً على الجشعين والمحتكرين ، فقد كان اولئك يهزأون منها ، ويستخدمونها بشتى الاساليب المغرية لمصالحهم الخاصة ، لا يردعهم رادع ، ولا يوبخهم ضمير ، حتى خلتهم في اعمالهم ومتاجرهم ، ينقلبون الى ذئاب ضارية يسعى واحدهم لافتراس غيره . اني لم اشهد في حياتي تكالباً على المال ، وطمعاً اشعبياً مخجلاً كهذا الذي شهدته في هذه الآونة . لقد جعل اولئك من الغنى عرشاً تربعوا فوقه . ولعب بهم الغرور ، فتوهموا انهم يفوقون اقرانهم ذكاء ونباهة ، فانصرفوا الى التبجح ، وادركتهم الخيلاء . لله من قوم تضخمت جيوبهم ، وضمرت عقولهم ، فحاولوا ان يروا في المال فقط

سبيلًا الى العلاء. وقد غاب عن مداركهم الهزيلة ، ان العالم الذي يتخبط اليوم في ديجور حرب عالمية مضنكة ، ستذهب بكثير من النظم القديمة البالية ، لن يرضى بان يقيم من ابنائه حراساً على اموال اغترفها بعضهم ، وجعلوا منها آلهة تستحق التمجيد والتقديس. وهذه الدماء التي سفكت بسخاء ، لم تهدر لتروي مطامع الطماعين من اصحاب الثراء ، ورؤوس الاموال والاقطاعيين . فما هذه الحرب الا ثورة عالمية شاملة ، ستنقلب المدنية بعدها الى مدنية تسود فيها الاشتراكية الصحيحة والديمقراطية الحقيقية ، المؤسسة على العمل والانتاج : مادياً كان ، ام فكرياً وثقافياً .

— ٣ —

محاولة للنكث بالعهود

بعد ان هدأت الحركات العسكرية ، واستقر الامر للجيوش ، بدأت المساعي السياسية تنجلي ، فكان على السلطات الحليفة ، ان تبرّ بعهودها وتعترف باستقلال لبنان كدولة مستقلة ذات سيادة ، وكان ان سبق الاعتراف بدولة سوريا في شهر ايلول . وانتظر اللبنانيون ان ينالوا من الحلفاء ما نالته سوريا ، ولكن الفرنسيين ، الذين هالهم ان تفلت من يدهم مقدرات لبنان ، وهم يعتبرونه « فرنسا الشرق » ، ويطمعون في ان يبقى نفوذهم فوق كل نفوذ ، اخذوا يعدون العدة لحملة سياسية في هذا السبيل ، لا سيما بعد ان لاحظوا اهتماماً مستمراً ، من قبل حلفائهم البريطانيين. وكان

اللبنانيون قد اظهروا بشتى الاساليب تقربهم من السلطات البريطانية التي رأوا فيها ، ضمانات اجدى من ضمانة فرنسا بعد انهيارها ، وسوء تصرف عمالها هنا ، ورأوا في السلطة الانكليزية مساعداً لهم على انقاذهم من براثن الازمة المستحكمة ، بما بذلته هذه السلطة من الجهود في سبيل تموين البلاد ، وتشغيل عمالها وازدهار الحركة التجارية فيها . وفوق هذا فهم لا يخشون من الانكليز طمعاً يهدد كيانهم الاستقلالي ، وايقنوا ان اولئك لا يخشى من مزاحمتهم لهم ، في استثمار مرافقهم كما كانت الحال مع الفرنسيين ، ولولا خشية البعض من «بعبع» الصهيونية ، التي كانت السبب في ابعاد العرب عن الانكليز ، لكانت البلاد كلها تظاهرت علناً تأييداً لهم . ولذلك احتفظ هذا البعض متربصاً الى ان ينجلي موقف الحلفاء . والانكليز في سياستهم كتومون ، وهم يتظاهرون بحياد تام من القضية اللبنانية السياسية ، فسياستهم مع « الديغوليين » تقضي بعدم التدخل في شؤون لبنان ، فلفرنسا حق المفاوضة معه واعلان استقلاله ، وهم لا يتدخلون الا لتسهيل هذه المفاوضة . ألا يكفيهم الآن حق اثبته وزير الدولة « لتلتون » ، في مكتوبه من نزل صوفر ، الى الجنرال ديغول في شهر ايلول يعترف فيه باستقلال لبنان وبسيادته ، وبحصر حق المفاوضة معه بفرنسا الحرة الى ان يعلن هذا الاستقلال ، وباستعداد بريطانيا للتدخل لتسهيل هذه المفاوضة ، وبجواب ديغول رسمياً انه اخذ علماً بذلك ؟ اذن لقد اصبح لبريطانيا سهم في القضية اللبنانية ، وهي به قانعة في الوقت الحاضر . فلتفاوض فرنسا الحرة ، ولتعترف باستقلال لبنان وبانتهاء عهد الانتداب في حفلة رسمية ، وعندما

يصبح هذا حراً مستقلاً له الصلاحية المطلقة ، بالتعامل والتعاقد مع الدول الاجنبية بدون ضغط السلطات الفرنسية ، وعندما يصبح لهذه الدول الحق بمخاطبته رأساً ، وبدون واسطة الدولة المنتدَبة ، فلا خوف أذ ذاك على السياسة الخارجية البريطانية ، ان تفشل في جذبه اليها ، وعوامل الجذب في « دوننغ ستريت » اكثر من ان تحصى ..!

ولكن ، هل يسكت الفرنسيون عن هذه البلفة الانكليزية ؟ وهل يرضيهم استقلال كامل في لبنان يمنع عنهم لذة الحكم وطعم الاستثمار ، ويجردهم من امتيازات تمتعوا بها ، وحقوق مارسوها بدون رقيب او محاسب ، وارباح جناها افرادهم وموظفوهم وشركاتهم ، نيفاً وعشرين سنة ؟ واولئك الذين وجدوا منهم هنا ، في هذه الظروف التحق منهم من التحق ، بالحركة « الديغولية » طمعاً بسعة العيش الذي كانوا يأملون به من هذا الالتحاق ، وليس حماسة للمبدأ الذي اعلنه الجنرال ده غول ، والقلائل الذين تبعوه ، وقد كنا ، نحن اللبنانيين ، نعرفهم واحداً واحداً . هم في داخلهم «بتانيون» ويكرهون الانكليز ، تتأجج في صدورهم نار الحسد منهم ، وينتقمون ممن يتظاهر بميوله لاولئك ، والفرنسي بطبيعته حسود ، والحسد رفيق الضعف والمسكنة . هم تناسوا حالة فرنسا وانهيارها ، وسقوط حقها في الانتداب ، بعد ان اصبحت مستعبَدة . حتى دولياً ، لم يبق لها حق في انتداب اعطتها اياه جمعية الامم ، التي انسحبت منها رسمياً بعد ان ماشت حكومة فرنسا سياسة المانيا . وحكومة فرنسا هي حكومة فيشي ، والدول باجمعها بقيت تعترف بها حكومة فرنسا

الحقيقية . وما الحركة الديغولية ، الا حركة شرود اذا كانت تعمل في سبيل خلاص بلادها بمساعدة الحلفاء ، فالقوانين الدولية لا تجيز لها ان تكون وارثة حقوق فرنسا وامتيازاتها . وهؤلاء الفرنسيون الموجودون هنا ، لا يهمهم من خلاص بلادهم وبعثها ، الا ان يبقوا في هذه البلاد يستعمرونها ، ويستثمرون خيراتها ومرافقها، حتى اذا لحظوا اي مسعى لحرمانهم من هذه الامتيازات، طغوا وتجبروا ونادوا بالويل والثبور ، وذكروا امجادهم وتقاليدهم، ورجعوا الى اصدقائهم التقليديين ، يسترضونهم ويستعطفونهم ، واستعملوا سلطة تركتها بيدهم السياسة البريطانية . وكان سلاحهم، كما كان دائماً ، بعث العنعنات الدينية والمذهبية ، في بلد تعددت طوائفه ، وتحاسدت ابناؤه ، وبلاه القدر باديانه وزعمائه . والانكليز هم اشد رغبة منهم في استعمار هذه البلاد ، ولكنهم الآن يتفرجون ، اذ ان السياسة العليا تقضي عليهم بتطويل الحبل، الى ان يأتي يومهم فيعملون . المهم كسب الحرب ، واذا كسبوها يكون لكل حادث حديث .

— ٤ —

الجنرال ديغول على المسرح

وها هو الجنرال ديغول يصل الى بيروت ، بعد ان استقرت فيها جيوش الحلفاء ، ليفتتح سياسة فرنسا الحرة فيها . والجنرال ديغول لا يزال في طور الشباب ، طويل القامة ، مهاب الطلعة ،

تبـــدو على وجهه امارات العزم والحزم . وهو الذي تمرد على الحكومة الفرنسية ، ولم يذعن لاستسلامها للعدو . ففضل النضـال بجانب حلفائه الانكليز ، ففتحت له حكومتهم ذراعيها ، ووعدته بالمساعدة المادية الى اقصى حد . عاهدته على المحافظـة على كيان فرنسا وعظمتها بعد النصر . وهذا الجنرال الشاب ، ذو تاريخ مجيد في حياته العسكرية ، وقد دعي للوزارة الفرنسية قبل الانهيـــار بقليل ، واستطاع ان يغادر بـــلاده الى انكلترا قبل الاستسلام ببضعة ايام . ان في صدر ديغول روحاً وثابة ثائرة ، وفي عقله شعلة من الذكاء نادرة ، يظهر على محياه الاقدام ، ويتجلى في خطبـــه الاخلاص . هو خطيب مصقع ، ذو بيان وذو جاذبية خاصة تحببه الى مستمعيه ، والمقربين اليه . هو يعرف اغلاط مواطنيه ، ويلوم الرجال الذين قاموا على مقـــدرات بلاده ، ويسعى لاصلاح الخطيئات . ولكن ليس كل ديغولي ديغول في اخلاقـه وعقيدته واخلاصـــه .

منذ ان وطئت اقدام الجنرال ديغول ارض لبنـان ، ابتدأت الحركات والمناورات السياسية . وكثر المشتغلون في القضيـــة الوطنية . بعضهم يرون الفرصة سانحة للتخلص من نـــير الحكم الاجنبي القاسي . هذا الحكم الذي سموه انتداباً ، ولم يكن في الحقيقـة الا استعماراً قاسياً . وآخرون يرغبون في ان يكون لبريطانيا العظمى يد في مقدرات البلاد ، لانها اقـدر على المساعدة من فرنسا . وهناك فئة من الانتهازيين ، لا يهمهم من الامر ، الا ان يتربعوا في دست الاحكام ، ولو على يـــد اي كان . وها هو

الجـــنرال ديغول يشرع في مفاوضاته . ومن الطبيعي ان يحصر استشاراته بالزعماء الذين سبق توليهم الحكم ، في السنوات العشرين التي مضت ، والرجال الذين كانوا يسمونهم نواباً ، معينـــين او منتخبين، باشارة وتأثير رجال الانتداب. (راجع التعليق عـــلى الانتخابات في الفصل الثاني). وهؤلاء المستشارون كلهم من صنائع الفرنسيين وعملائهم ، ولا يزالون يسايرونهم ويعفّرون وجوههم ، امام سلطانهم ويرغبون في دوام نفوذهم في لبنـــان ، لمصلحتهم الشخصية لا سيما وهم قد رأوا من السلطة البريطانية حياداً (ظاهرياً) تجاه القضية اللبنانية .

لذلك كثرت اجتماعات هؤلاء الرجال الى الجـنرال ديغول ، وتعددت الولائم والزيارات. وتناثرت البلاغات عن هذه المجاملات، وقطعت الوعود والعهود، وارتاح ديغول ومعاونوه الى هذه المحادثات، وأمل في دوام العز الذي كان لفرنسا في هذه الديار، وبدأوا يهيئون العـدة لمعاهدة تعقد بينهم وبين السلطات الوطنية في لبنان ، تبنى على اسس العلاقات القديمة ، وتفرض على لبنـــان مساعدة فرنسا دون سواها . والمستقبل كفيل بتفسير هذه المساعدة . قديماً فسروا في جنيف وباريس ولندرة الانتداب . وغداً يقوم ساسة غـــير الاولين ليفسروا هذه المساعدة . ولكن هنالك فئـة من اللبنانيين ادركوا مغزى هذه المناورات ، ووقفوا حائلًا دونها ، وطالبوا السلطات الوطنية والبريطانية والفرنسية ، بالاكتفاء بالغاء الانتداب والاعتراف بالاستقلال الكامل ، وبتأجيل عقد المعاهدات الى ان ينقشع الجو وتضع الحرب اوزارها ، وتستقر السياسة الدوليـة ،

لا سيما وان الحركة الديغولية لم يُعترف لها بصفة الدولة التي يحق لها عقد المعاهدات السياسية . وها هي بريطانيا نفسها واميركا لا تعترفان بها ، الا حركة قائمة بوجه الحكومة الفرنسية الحقيقية . فما الفائدة من معاهدة تعقد معها ؟

اما استشارات الجنرال ديغول لبعض الشخصيات المختارة ، فكان لها وقع سيء ، واوجبت احتجاجات وانتقادات لم يكن هناك بد من توجيهها للقائمين بها ، لعدم شمولها فئات مفكرة معروفة بميولها الاستقلالية ونزعاتها السياسية . وفي ذلك الحين وجه احدهم الى الجنرال ديغول الرسالة المضمونة التالية ، ومع انه اخذ علماً من دائرة البريد بارسالها بتاريخ ١٢ اب سنة ١٩٤١ ورقم ٤٥٩ ، ووصولها الى دائرته في ١٣ منه ، فانه لم يتسلم عنها جواباً . فهل كان ذلك استهتاراً من حضرته ، او ان بعض اعوانه وقفوا صداً دون وصولها اليه ، واولئك الاعوان الذين ذاقت منهم بلادنا الامرّين ، في اثناء وجودهم فيها ، لا يرغبون ان يتصل به الا من كان على هواهم ، عاملاً لهم ، خادماً لاغراضهم ونياتهم ومصالحهم . وهذه هي الرسالة :

يا فخامة الجنرال .

اسمح لي ان اتجاسر واخاطبكم رأساً ، هرباً من ديكتاتورية المراقبة المتطرفة ، التي قد تمنع وصول كلمتي الى فخامتكم ، في حال اتباعي الطريقة الرسمية .

ان البلاد قادمة على وضع سياسي ، يضمن لها استقلالها بعد ان

اصبح الانتداب ملغى كما صرحتم فخامتكم ، وهي مع شكرها الجزيل تأمل الوصول الى اهدافها على يدكم .

ولقد بادرتم في الآونة الاخيرة ، للاتصال ببعض الشخصيات الوطنية ، لتقفوا على رغبة البلاد ، فبرهنتم على انكم تعتمدون الطرق الديموقراطية في عملكم المقبل .

ولما كان الاستفتاء الذي تقومون به ، لا يمكّنكم من الوقوف على آراء مختلف الطبقات ، اذ انه ينحصر في بعض الشخصيات الذين تجتمعون بهم ، واكثرهم من الذين تولوا المناصب والمراكز في العهد الفائت . ولما كانت الصحافة هي الطريق الوحيدة ، لايصال آرائنا اليكم نحن الذين لم نتبوأ ، ولن نطمح الى تبوؤ اي مركز حكومي ، ولا مصلحة خاصة توجه افكارنا .

ولما كانت المراقبة التي ظننا انها ستكون اخف وطأة من ذي قبل ، تكمّ افواهنا اذا صارحنا ذوي السلطة برغبات البلاد الحقة .

لهذا اتينا بكتابنا هذا ، راجين الى فخامتكم ان توعزوا للموكول اليهم امر المراقبة ، كي لا يجعلوا من تشددهم المتطرف عثرة في سبيل ابلاغ السلطات رغبات الشعب وشكاويه وآماله . بهذا فقط يا صاحب الفخامة ، يأتي استفتاؤكم منطبقاً على الروح التي اظهرتموها في تصريحاتكم . اما اذا دامت هذه القيود ، وبقي الاستفتاء محصوراً بفئة من اللبنانيين ، لا يسمح ماضي اكثرهم بان يكونوا ممثلين للرأي العام باجمعه ، فاسمح لي يا صاحب الفخامة ان

اصارحكم بكل تواضع ، ان العمل الذي يقوم على رأي هـذه الشخصيات فقط ، لن يُضمن له النجاح الذي نرغبه نحن ، وترغبونه فخامتكم . واني ارجو ان تتنازلوا باجابتي على هذا الكتاب ، كي اتيقن من ان الذين لا يريدونكم ان تتعرفوا الى رأي المجموع ، لم يعبثوا به قبل وصوله الى فخامتكم وتفضلوا ..... »

— ٥ —

الحرية الفكرية في سلاسلها

ولكن يظهر ان الايدي عبثت به على باب مكتبه . ولا بد ان اذكر ان المراقبة كانت في يد السلطة الفرنسية ، تقبض عليها بيد حديدية تسيرها لغاياتها ، تجيز ما كان يوافق اغراضها وتمنع ما كانت لا ترغب فيه ، ولو قضت بـه المصلحة الوطنية . واذا عرفت ايها القارىء مدى الاهتمام الذي كانت تظهره السلطة الفرنسية في سياسة البلاد المحلية ، ادركت معي شدة وطأة المراقبـة على حرية القول والفكر في هذا البلد . لقد كانت هذه سلاحاً بيد الفرنسيين تحارب به ، بلا هوادة ، كل من كان خارجاً عن ارادتها ، عاملا في سبيل استقلال يمنع على الفرنسيين تدخلهم في صلب حياتنـا الداخليـة . لقد اتخذوا من الحرب ذريعة لابقاء هـذا السلاح بايديهم . اذ انهم يمثلون السلطة العسكرية . فلماذا لا يستعملون هذا السلاح لمصلحـة رجالهم وعمالهم ؟ ايرمون سلاحهم امام اللبنانيـين كما رموه امام عدوهم المخيف في اوروبا ؟ لا ، ان اللبنانيين شعب ضعيف لا يقوى

على مجابهتهم بقوته . والشعب الضعيف اذا كان من شعوب الشرق، لا يلاقي بين الامم الغربيـــة من يساعده على احداها . وها هم البريطانيون ، مع انهم تعهدوا باستقلال لبنان استقلالا تاماً ، ومع ان سلطتهم اليوم هي فوق كل سلطة في هذه الاقطار ، لا يرون ، لحكمة نجهلها ، ان يساعدوا اللبنانيين اذا اشتكى هؤلاء من تبرم الفرنسيين من عهودهم، واذا طالبوا بحقوق اعترفوا لهم بها ظاهرياً، انمـــا هم يعملون على انكارها بشتى الاساليب التي وضعتها في يدهم القوة : هذه القوة التي نراها متجلية في بعض الامور ، ثم تضمحل تجاه سياسات ومماحكات ، احياناً تقليدية، واحياناً طائفية، ولكنها دائماً هدامة ومضرة . وليت المراقبة اقتصرت على الشؤون العسكرية والسياسة الدولية ، اذن لخفت المصيبة نوعاً .

غير ان المراقبـة كانت عثرة في سبيل كل من طلب اصلاحاً : ان في حقل السياسة الداخلية ، او في الحيـــاة الاجتماعية ، او فيما يتعلق بالعقائد الدينية . اكتب كلمة او جملة ، يشتم منها انتقـــاد احد الموظفين الفرنسيين، او قل ان اللغة العربية مغبونة في معاملات الدواوين ، او كن من مؤيدي التآلف والتآخي بين الاقطـــار العربية ، او انتقد احد التقاليد الدينيـة والطائفية ، والطوائف في بلادنا تعد بالعشرات ، ورجالها يغذون عنعناتها المفرّقة ، او قم بحملة صحفية ضد رئاسة دينية ، او ضد ارسالية اجنبيـة ، لا هم لها الا بث الدعاية المغرضة ضد الاتحاد الوطني وخدمة الاستعمار، او كن من مؤيدي الطبقة الفقيرة العاملة، ضد جشع الاغنياء والمحتكرين، او بيّن الفساد المتغلغـــل في تدابير السلطة في حقول الاعاشة ، وفي

المحاكم الاستثنائية التي اقاموها في هذه الآونة ، فكانت وكراً للفضائح والرشوة والاختلاسات ، ما لم تسمع بها اذن في بلد من بلدان الله . واذا تجرأت على قول الحق ، وكان الحق لا يوافق رغباتهم ، فكن واثقاً من ان ما تكتبه ، سيمر عليه القلم الاحمر في دائرة المراقبة ، التي بقيت رغم الاعتراف بالاستقلال من صلاحيات السلطة الفرنسية . قالوا ان الحرب توجب المراقبة . ولكن تناسوا ان هذه المراقبة وجدت فقط في جميع البلدان المحاربة لمنع التحرش بالامور العسكرية ، والتي قد يستفيد منها العدو ، او لمنع دعايات هي ضرر على سير الحرب . ولكن هنا اخذوها وسيلة للضغط على الحرية الفكرية ، ولتسيير الامور حسب رغباتهم ولمصلحتهم . ولا عجب ان يكون هذا امرهم ، ففي السنوات العشرين التي حكمت فيها دولة الانتداب في هذه البلاد ، لم يكن لحرية القول والكتابة الضمانة التي كانت لها في بقية البلدان الديمقراطية . فكان بالمفوضية قلم للمراقبة في دائرة المطبوعات . واذا كانت هذه الدائرة لا تستلزم مراقبة الصحف قبل نشرها ، غير انها كانت تعطل الصحف ، عندما تنشر هذه شيئاً تعده دائرة المطبوعات غير مطابق لآرائها وغاياتها . وسياسة قلم المطبوعات كانت قائمة على قتل الروح الوطنية ، وانعاش السياسة الاستعمارية ، واطلاق المجال للمصالح والمعاهد والمؤسسات الاجنبية ، ومسايرة الارساليات الدينية ، والسلطات الاكليريكية ، والاحزاب الطائفية ، بلية لبنان في كل ادواره . واني استطيع القول ، بدون ان اتهم بالمغالاة ، انه لم يكن يمضي اسبوع او اسبوعان ، حتى يصدر امر

هذه الدائرة المستبدة بتعطيل جريدة ، او اقفال مجلة ، او توقيف نشرة ، او منع بيع كتاب ، او انزال عقاب ، بحق كاتب او خطيب . انه يكفي لبطريرك ، او مطران ، او مفتي ، او مدير شركة اجنبية ، او اقطاعي متنفذ ، او موظف كبير ، لا سيما اذا كان فرنسياً ، ان يحتج على مقال نشر ورأى فيه اجحافاً على حقه المزعوم ، او افتئاتاً على امتيازاته المقدسة ، لتتحرك سلطات الانتداب وتنزل ضربتها على المدعى عليه ، متسلحة تارة بالمحافظة على الامن العام ، وطوراً بالتوازن الطائفي ، ودائماً بالغيرة على المصلحة العامة . والفرنسيون ، الذين كان همهم الوحيد التسلط على هذه البلاد واستعمارها ، لم يلاقوا سلاحاً افضل من التفرقة الطائفية ، والحزبية ، والثقافية ، للوصول الى اغراضهم . فكانوا يعملون لمقاومة اية فكرة تقضي على هذه السياسة الهدامة الغاشمة . وبالرغم من كل ذلك ، وبالرغم من هذا التقيد ، هم يقولون ، والامم الاوروبية تصدق اقوالهم ، وجمعية الامم توافق على تصريحاتهم ، انهم انتدبوا على هذه البلاد ليسيروا بها الى الاستقلال . هذه هي مهازل السياسة الدولية ، وهذه هي مقاصد الدول الاوروبية في الشرق ، عندما خلا لها الجو بعد حرب ١٩١٤ .

— ٦ —

زعم باطل

وفي وسط هذا الجو الموبوء ، وتحت الضغط على الحرية الفكرية ،

زعم الديغوليون انهم خلفاء فرنسا المنتصرة، في حرب سنة ١٩١٤ ، ووارثو حقوقها ، متناسين او متجاهلين ان فرنسا الحقيقية بعد انهيارها في حزيران ١٩٤٠ ، واستسلامها لعدوها وعدو الحلفاء ، وانسحابها بعد الاستسلام من جمعية الامم التي انتدبتها على سوريا ولبنان ، لم يبق لها من حق ، يخولها السيطرة على مقدرات هذين القطرين . فكيف بالديغوليين الآن ، وهم شرذمة من الفرنسيين الناقمين على فرنسا ، التحقوا بانكلترا ، تمرداً على دولتهم ، كيف بهم يدعون ارثاً لا حق لهم به. وها هي انكلترا نفسها ، واميركا ، وبقية الحلفاء، لم يعترفوا بهم دولة لها حقوق الدول وعليها واجباتها. وهؤلاء لا يزالون يعترفون بان الحكومة الفرنسية الرئيسية والاصلية هي حكومة فيشي ، أكانت تلك حليفة ، ام عدوة ، امينة ام خائنة . ولكن الانكليز قوم دهاة : هم لم يعترفوا بديغول وحكومته دولة قائمة بدل فرنسا الام ، بل قالوا لهم انتم قسم ثائر، نحن نؤيدكم في نضالكم ، ونساعدكم، بعد ان نضمن النصر، على بعث فرنسا المغلوبة . غير انهم فتحوا لهم باب السلطة في سوريا ولبنان ، طمعاً في مساعدة يأملونها من فلول جيوش التقطوها من هنا وهناك . وما هي سوريا ، وما هو لبنان ، ليغضبوا من اجل هذه او ذاك ، بضعة الوف من الفرنسيين المحاربين . فليكتف لبنان وسوريا باستقلال يعترف به اولئك الفرنسيون ، ونحن الانكليز ، تقضي سياستنا وغاياتنا ، ان نغمض اعيننا عن مغايرات في تصرفات الديغوليين ، ولو كان بذلك غبن على حقوق هذين القطرين . ان هما الا قطران شرقيان ، والشرقي مفروض فيه ان

لا يكون متعنتاً تجاه ابناء الغرب .

— ٧ —

استقلال مزعوم

كان على السلطة الفرنسية بعد الاستقرار ، ان تبر بعهودها التي قطعتها ، بالاتفاق مع السلطات البريطانية ، للبنان ، فتعترف باستقلاله استقلالا كاملاً بدون وصاية ولا انتداب . فرأت نفسها تجاه خطوة لا بد لها من ان تخطوها . ولكن هل تعلن هذا الاستقلال ، وتحتجب هي عن مسرح السياسة اللبنانية . ولبنان في نظرها نقطة الارتكاز لسياستها في الشرق العربي ؟ ومتى عادت فرنسا الى مصف الدول العالمية ، أيكون لبنان خارجا عن منطقة نفوذها ، وهل تجد في غيره بلاداً فيها من التفسخ الطائفي ، والاختلافات المشربية والثقافية ، وسيطرة المعاهد والمؤسسات الاجنبية ، لا سيما الفرنسية منها ، ما يساعدها على التغلغل في مصالحه ، والتدخل في ادارته ، والاشراف على مقدراته ، والاستفادة من تفرق طوائفه واحزابه ؟ اذن ، اذا كان لا بد من هذه الخطوة فلتخطها بحكمة وحذر . ولتكل امرها الى ممثلها السامي في هذه الديار الجنرال كاترو . ان فيه من الدهاء واللباقة السياسية ما يؤهله للقيام بهذه المهمة الشاقة .

قبل الجنرال كاترو المهمة . وانبرى لها بعزم وصلابة . فكان عليه ان يهيء الجو لاستقلال لا يخرج نطاقه عن الاستقلال الذي

وقع عليه مندوب فرنسا : « ده مارتيل » ورئيس الجمهورية اميل اده ، ورفضت ابرامه الحكومة الفرنسية ، (راجع الفصل الثاني) ، وهو استقلال اسمي ظاهري . يقيد لبنان بفرنسا الى خمس وعشرين سنة ، قابلة التمديد من نفسها ، اذا لم يتفق على الغائها الطرفان ، ويجعل مندوب فرنسا حكماً عند اول اختلاف يقع بين الطوائف . واثارة هذه الاختلافات ، لا تحتاج الى كبير عناء في هذه البلاد ، وفيها من الرؤساء الدينيين ، والمعاهد الاجنبية ، والعنعنات الحزبية ، والطائفية ، والمصالح الشخصية ، ما يكفل وقوعها لدى الطلب .

وقال كاترو ، لا بد من استفتاء البلاد قبل اعلان الاستقلال . واذا كانت ظروف الحرب الاستثنائية غير مؤاتية لاجراء انتخابات شعبية ، فاني اقوم برحلة استفتائية في انحاء لبنان ، اقف فيها على رغبات الشعب ، واستمع الى آراء زعمائه واحزابه ، وابني بعد ذلك صرح الاستقلال المقبل . طريقة سياسية غريبة عجيبة . ان يذهب ممثل فرنسا الى منطقة من مناطق البلاد ، بعد ان يكون قد هيأ لزيارته ، بالاوامر المعطاة للسلطات المحلية والبلديات ، اقامة الزينات والمهرجانات ، واعداد الخطب في بيروت ليلقيها الخطباء في لبنان . فاذا قال الناس «لتحي فرنسا» ، قال هو ، لبنان لا ينسى ما يربطه بفرنسا من اواصر المحبة وروابط التاريخ . واذا ما زار بلداً او مقاماً وجرى له استقبال مرموق ، ولا اهون من الاستقبالات والحفلات في هذه البلاد ، قال الا ترون في هذا ، ما يدلكم على ان الشعب لا يرضى بان تلقى مقدراته في غير يدي ؟

ولقد كان المحافظون والقائمقامون في المناطق يتبارون في اقامة الحفلات ، يعطون الاوامر للبلديات والمخاتير ، ليحشدوا الاهلين ، وينشدوا الاناشيد في حضرة القادم الكبير ، مسرفين بالوعود لبعضهم ، ومهددين بالوعيد للاخرين . واكثر اولئك كانوا من ضنائع الدولة الفرنسية ، التي يرونها للان قادرة على الثواب ومستعدة للعقاب. والموظفون في بلادنا ، تعودوا على الخنوع ، وممالقة اصحاب السلطان . وكانت هذه السلطات تنظر بعين الحذر ، للمنطقة التي تشعر بعدم اندفاعها في تمجيد السلطات الفرنسية ، وتضمر الحقد للتي تعرف فيها ميلاً للبريطانيين ، حتى بلغ الامر ببعضهم ان منعوا رفع الراية الانكليزية في اثناء هذه الاستقبالات : هو الحسد ، وهو الخوف من ان يحتل الانكليز في قلوب الناس ، مركزاً يرون فيه خطراً على فرنسا في لبنان . ونذكر بلدة « الشويفات » وما نزل عليها من نقمة السلطة ، عندما فرضت هذه « غرامة السلاح » على لبنان ، فاصابها من وطأتها ما يرجع سببه الى تباطؤ الشويفاتيين في الاستقبال المفروض ، عندما قدم اليها كاترو في رحلته الاستفتائية .

وعمد كاترو الى مسايرة المقامات الدينية . وللمقامات الدينية في لبنان كلمة مسموعة . ولرؤسائها تأثير كبير في البلاد ، يتبارون في التقرب من السلطة التي تقضي لهم مصالحهم الشخصية والطائفية . وكان الزائر السياسي يسعى لارضاء الجميع والتقرب الى الجميع . فاذا زار مقاماً من اولئك اعدوا العدة ليكون الاستقبال فخماً . هنا القلانس المتعددة الالوان ، وهناك العمائم المزركشة ، بيضاء ، وخضراء ،

وسوداء . والجنرال كاترو يفيض بلاغة بخطبه، وهو اديب موهوب، فصيح الكلمة ، طلق اللسان ، ينثر الوعود على المحتشدين فيصيحون « ليحي كاترو ولتحي فرنسا » فتنشر البلاغات في الجرائد والراديو عن تعلق البلاد بفرنسا وبرجالها . والبلاغات صادرة من قلم المطبوعات . وقلم المطبوعات في قصر المفوضية يهيمن عليه الفرنسيون وحدهم . والمراقبة تمنع النشر الا اذا كان هذا تمجيداً لهم دون سواهم . هكذا شاءوا ان يظهر الرأي العام ، واليه استندوا في تنفيذ عهودهم الاستقلالية .

وانتهى كاترو من زياراته ورحلاته . وعين يوم ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ موعداً لاعلان الاستقلال. فازدان قصر الحكومة بالرايات المتعددة ، وارسلت الدعوات الى السلطات والمقامات . فوقف كاترو في الجمع خطيباً وقال : ان الاستفتاء الذي قام به في لبنان ، على طريقته الغريبة ، اظهر تعلق اللبنانيين بفرنسا ، وعدم قبولهم الا ان تلقى مقدراتهم بيدها ، وهو يعدهم بقبول رغباتهم (كذا) ، وان فرنسا ستساعدهم وتدافع عنهم ولن تتخلى عنهم . ولذلك فهو يعلن استقلال لبنان معتمداً بذلك اتفاق سنة ١٩٣٦ ، الى ان يعقد بين البلدين معاهدة تجدد العلاقات بينهما . وهو يعين السيد « الفرد نقاش » رئيساً للجمهورية الجديدة « المستقلة ...»

ثم اجابه الرئيس ، وكان جوابه اكثر تحفظاً ، فلم يأت على ذكر اتفاق سنة ١٩٣٦ ، لمعرفته ان ذلك لا يرضي اهل البلاد. واطلقت المدافع ايذاناً واحتفالا بالعهد الجديد .

الفصل السادس

استقلال جديد

— ١ —

استقلال وتحفظ

من سنة ١٩٢٠ ، الى سنة ١٩٤١، شهد لبنان اربعة انواع من الاستقلال : فمن استقلال لبنان الكبير الذي اعلنه الجنرال غورو، الى استقلال السيد جوفنيل الذي تطور فيه لبنان الكبير الى الجمهورية اللبنانية ، الى استقلال الكونت ده مارتيل الذي بني على اساس معاهدة بين حليفتين هما فرنسا ولبنان ، الى هذا الذي اعلن اخيراً في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ . وانا الذي عشت في لبنان طوال هذه المدة ، اشهد بضمير مرتاح ، انه لم يكن في هذا البلد يوماً من معالم الاستقلال سوى اسمه . انهم كانوا يعيّدون له ، وكانت الحكومة تتشبه بالحكومات المستقلة ، فتتألف من رؤساء ووزراء ومجالس نيابية . وكانت المحاكم تحكم باسم الشعب اللبناني. ولكن — لعنات الله على لكن — كان هناك في قصر المفوضية قوة، تارة ظاهرة ، وطوراً خفية ، تتدخل في كل امر من امور الدولة ، وتفرض ارادتها غير عابئة باستقلال معلن او سيادة موهوبة . فاي قرار يصدر، او اي تدبير يتخذ ، كان عرضة للرفض ، او للتعديل

باسم المفوضية . وكثيراً ما كان هذا الرفض نزولا عند ارادة شعبة من شعبها ، او شركة اجنبية ، او ارسالية من الارساليات الدينية ، او محافظة على مصلحة شخص له في دوائرها نفوذ مرموق . ولم يخل عمل من الاعمال في هذه البلاد ، من تدخل مباشر او غير مباشر من قبل السلطات هذه. حتى أتفه الامور كان لها فيها الرأي الاول. وما هو هذا الاستقلال الموهوم ، اذا كانت السلطة الوطنية لا تستطيع ان تستأثر بعمل ما ، او بتعيين موظف ، كبير أو صغير ، حتى ولو كان مختاراً او كاتباً او ناطوراً ؟ ولماذا لا يتدخل المستشار او الموظف الفرنسي ، اذا كان باب التدخل مفتوحاً لديه ، وله من ذلك منفعة ؟ والفرنسيون الذين مارسوا السلطة في هذه البلاد، في اثناء الانتداب، كانوا يطمحون الى السيادة، ويطمعون في الثراء. وفي لبنان ميل الى الوظائف . واللبناني شغوف باحتلال المراكز الحكومية ، مستعد لشرائها من اي بائع ، او على يد اي سمسار ، يساعده على الاستمتاع بها .

ولكن الحرب، ومركز فرنسا الدولي بعد انهيارها سنة ١٩٤٠، ووجود السلطة البريطانية ، التي رغبت في ان يُعترف باستقلال لبنان ، اوجبت على السلطات الفرنسية ان يكون استقلال سنة ١٩٤١ ، غير ما سبقه عندما لم يكن هناك رقيب ، او شريك ، اللهم ما عدا رقابة جمعية الامم الاسمية . والآن ، منذ السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، اصبح لبنان مستقلا استقلالا لا بأس به، اذا ما أسميناه استقلالا فعلياً. واذا كان لم يخل من بعض الشوائب ، فهي ترجع الى حالة الحرب الاستثنائية من جهة،

وسيادة السلطات العسكرية من جهة ثانية، والى ضعف وميوع اكثر الرجال الوطنيين ، الذين عينتهم السلطة الفرنسية، ليديروا مقدرات البلاد بعد تنازلها عن الانتداب من جهة ثالثة . وكان من الطبيعي ان اولئك الذين تعودوا على الخنوع والاذعان ، لرجال الانتداب في الماضي ، لا يجرؤون على مجابهتهم وانتزاع الصلاحيات من يدهم . فممارسة الاستقلال الفعلي ، يلزمه رجال غير الذين كانوا يمارسون قبلاً استقلالا موهوماً .

وللمرة الاولى تعترف الدول الكبرى باستقلال لبنان ، وتعين من قبلها معتمدين سياسيين تجاه حكومته، كما تفعل تجاه الدول المستقلة . فقد عينت حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، الجنرال « سبيرس » وزيراً مفوضاً . وعينت حكومة الولايات المتحدة ، « المستر وادسورث » معتمداً سياسياً . وقد قدما اوراق اعتمادهما الى رئيس الجمهورية اللبنانية بصفة رسمية . واذا كان موقف الحكومة البريطانية ، فيه شيء من الابهام السياسي ، مسايرة للفرنسيين المنضمين اليها ، والخائفين من ان يفلت لبنان من يدهم ، كما عودتنا المداورات السياسية الاوروبية الاستعمارية ، فها هو المستر وادسورث الوزير الاميركي ، يعمد الى الصراحة الاميركية في خطابه ، عندما قدم اوراق اعتماده الى الرئيس ، فيقول فيه : « اني اعلن بتأكيد قول الرئيس روزفلت ، ان قصد الحكومة الاميركية من تعييني ، هو ان تظهر بصراحة عطفها على اماني الشعب اللبناني نحو الاستقلال التام . ان حكومتي لتدري بان ممارسة حكومة فخامتكم للسلطات المطلقة ، مقيدة اليوم بحدود

تقتضيها ظروف الحرب . ولكنها تتطلع بيقين الى اليوم الذي تصير فيه هذه القيود غير لازمة ، الى ذلك اليوم عندما يتمتع العالم بمنافع السلام . فيتمتع الشعب اللبناني ، بالحقوق والتبعات العائدة الى الدولة المستقلة ، استقلالا ناجزاً .» وبعد ان يشجب اعمال اقطاب المحور يقول: « وتجاه كل هذا ، تقف بوضوح سياسة حكومتي واهدافها في الحرب، كما نشرها على العالم ميثاق الاطلنتيك. ولست بحاجة ان اذكّر فخامتكم ، انها تشمل احترام حق جميع الشعوب لاختيار شكل الحكومة التي تريد ان تعيش تحت لوائه ، وان اذكركم بما كرره حديثاً وزير خارجيتنا .»

انه اعتراف صريح ، لا لبوس فيه ولا ابهام . والحكومة الاميركية معقل الحرية والديموقراطية الصحيحة ، ستحافظ على مبدئها ، ولن تنعزل بعد الحرب هذه ، كما فعلت بعد الحرب الماضية ، فتترك الساسة الاوروبيين يقضون في الشعوب كما يريدون. هكذا كان يصرح القنصل الاميركي السابق المستر « انغرت » ، وهذا ما اعاده حرفياً المعتمد السياسي الجديد « وادسورث » ، وكرره مراراً هو ورجال دائرة الاخبار الحربية الاميركية . لقد قالوا لكل الوفود الوطنية ، التي ذهبت اليهم ، ان الخطأ الذي ارتكبته الحكومة الاميركية بعد الحرب الماضية ، بانسحابها من السياسة العالمية ، لن ترتكبه هذه المرة . اذ هي قد رأت ان لا مناص لها ، من ترك سياسة العزلة واتباع سياسة دولية تقربها من جميع الشعوب ، وتكون ضمانة للشعوب الصغيرة . والحكومة الاميركية تعطف على لبنان واللبنانيين بصورة خاصة . وها هم

الالوف منهم يعيشون تحت لوائها، ويتمتعون بخيراتها، ويعملون في ارجائها الواسعة . وفي هذه الحرب لا اقل من ثلاثين الفاً منهم ، حملوا السلاح في صفوف مقاتليها ، وهي لا تترك مناسبة لتظهر رضاها عنهم ، واستعدادها لنصرة قضيتهم وقضية بلادهم ، وما هذه القضية الا قضية استقلال لبنان ، استقلالا كاملاً .

— ٢ —

الفرنسيون يندمون

لا مشاحة في القول : ان الاستقلال الذي اعترف به هذه المرة ، لم يكن كغيره في السابق . اذ ان السلطة البريطانية اعترفت به ، وضمنته رسمياً ، ولو تغاضت عن اعتداءات بعض الديغوليين عليه . والحكومة الاميركية اعترفت به رسمياً بارسالها معتمداً سياسياً . ولكن ما لم تستطع السياسة المحلية ، والسلطات الانكليزية والاميركية ، في هذه البلاد ، ادخاله في عقول الفرنسيين الموجودين هنا، هو ان ينظروا الى هذا الاستقلال نظرة جدية. فهم تعودوا ان يروا في لبنان بلداً يحكمونه لمصلحتهم ، ويديرون مقدراته لما يوافق اغراضهم . فهل يتنازلون اليوم عن امتيازات تمتعوا بها زمناً ، وموارد استثمروها ، مدة ربع قرن ، وهم باشد الحاجة اليها في الوقت الحاضر ؟ لقد قبلوا ان يتنازلوا عن بعض صلاحيات ، ويقيموا بعض مظاهرات ، يقضي بها استقلال البلاد . ولكنهم غضبوا ، عندما طلب اليهم ان يسلموا الى البلاد

مواردها الجمركية ، وأبوا بشدة ، والحكومة المحلية عجزت عن ارغامهم ، اذ ليس بيدها قوة تساعدها على الارغام . والسلطة البريطانية — لسياسة عليا دائماً — لا تريد ان تخرج عن سياسة المسايرة مع الفرنسيين ، مهما بلغ من ضرر يلحق بالبلاد من هذه المسايرة . هذه المسايرة التي جعلت الديغوليين ، يتمادون في اعتداءاتهم على استقلال البلاد ، واغتصابهم حقوقها . فبينما كنا نراهم في الفترة الاولى التي تلت اعلان الاستقلال ، ينكمشون ويقنعون بالقليل من بقايا امتيازاتهم القديمة ، اذا بهم يعودون الى التمسك بحقوق يزعمونها لهم ، عندما رأوا من السلطة البريطانية سكوتاً عن اعمالهم . والسلطات المحلية لا سلاح بيدها لتحاربهم به ، غير سلاح الحق ، وهو سلاح لا يقطع ، متى كان بيد الضعيف ، ومتى كانت القوة تنتحل مختلف الاعذار لحرمان صاحبه اياه ، اذا كان من ذلك الحرمان خدمة لاغراضها وغاياتها . ويل للضعيف من جشع القوي ، في نظام ماكر يتزيا بازياء مزيفة من الحرية والديموقراطية الكاذبة ، وفي داخله ينخر سوس الممالقة والجشع والاستعمار . وما هي حقوق الضعيف بنظر اولئك ؟ ليكتف هذا ببعض العطف الذي قد يرمقه به القوي . اما ان يتطلب حقاً له ، قد يحرم بواسطته القوي من جزء ، ولو ضئيل ، من سيطرته وتعسفه وكبريائه ، فان ذلك يعد منه تطاولا مستنكراً ، وشروداً على السلامة الاجماعية ، والنظام الاجتماعي ، الذي سنوه وطبقوه ووصفوه بالديمقراطية ، وحكموا به طوال العشرات من السنين . وفرنسا ، وان كانت غلبت على امرها ، وانكسرت في عراكها ،

مع عدوها الالماني، واصابها من الذل والهوان ، ما افقدها المركز الذي كانت تتبوأه بين الامم الكبرى ، الا انها ما تزال في اعين اولئك الامم في مصاف الاقوياء ، بالنسبة الى شعوب الشرق المستعمرة . اذن واجب الاخوة يقضي على تلك الامم ، بان تحفظ لفرنسا مقامها تجاه الشعوب الشرقية الضعيفة ، حفظاً لهيبة الغرب، وتبعاً لمقتضيات السياسة الاوروبية الاستعمارية . وماذا يكون لبنان ، وسكانه يكادون لا يبلغون المليون ، تفرقهم دول مختلفة وعقليات متباينة ، يتمذهبون بعشرات المذاهب الدينية والثقافية، تتحكم بناشئتهم ارساليات علمية متفرقة الاهداف ، وتزرع البغضاء في قلوبهم طائفية عمياء ، هوجاء ، تتغذى على موائد الحكام والمتزعمين ، وبعض معاهد التعليم ، ورجال الدين ، ويغازلها اولئك الذين يرون فيها اساساً ، يبنون عليه سيادتهم وسيطرتهم ، على بلاد جاؤوها مستعمرين مستثمرين ؟ هل يستحق لبنان هذا ، في نظر السلطات المحاربة الحليفة ، رعاية وانتباهاً اكثر من فرنسا مهما خسرت هذه من قواها ونفوذها ، بين الامم ؟ اذن فليبق لبنان مرتعاً رحباً لجماعة تربعوا فيه زمناً ، فاسترضاؤهم أفيد للقضية الحربية ، من استرضاء حفنة من الناس يعيشون في بقعة من بقاع الشرق ، يقال لها لبنان .

وهكذا استيقظ الفرنسيون ، من السبات الذي تحكم بهم في بادىء الامر ، ورجعوا الى اقناص السيطرة ، وكان رئيسهم الاعلى هنا ، الجنرال « كاترو »، رجلاً سياسياً فطناً ، عرف وجهة نظر الحكومة البريطانية الرئيسية ، فانتهزها فرصة للتمسك بحقوق

وصلاحيات ، كاد الاستقلال يحرم ابناء وطنه منهـــا . والجنرال كاترو فرنسي . وغاية مبتغاه ان يحافظ على مركز بلاده في الشرق لا سيما في لبنان . ففرنسا في نظره لن تدوم غفلتها ، وستعود الى اليقظة السياسية . فعلى ابنائها العاملين والمشتتين في مختلف الاقطار التي كانت تحت نفوذها ، ان يعملوا ليحتفظوا بهذا النفوذ ، لكي لا تخسر فرنسا سلطاتها الاستعمارية . والجنرال كاترو رجل سياسي اكثر منه عسكري ، بالرغم من رتبته العسكرية العالية . اذ ان حياته العملية الماضية ، كان اكثرها في الناحية السياسية ، وليست في الناحية الحربية . هو جنرال سياسي ، وبحق استحق هذا اللقب هنا ، اذ انـــه عرف كيف يساير السلطات البريطانية ويقاومها بالوقت نفسه . فاستفاد من ضعف ساستها احياناً ، ومن عـــدم صراحتهم احياناً اخرى. واني استطيع القول، انه في كل الاوقات عندما كانت تتصادم النظريات ، بـــين السلطة الفرنسية والسلطة البريطانية هنا – وطالما كان يقع هـذا التصادم المستتر – كانت النظرية الفرنسية في النهاية هي الرابحة ، أضعفاً كان ذلك ام دلالا ، ام مسايرة ، ام سياسة ، لا اعلم . ولكن ما اعلمه ، هو ان هـذه البلاد كانت هي الخاسرة ، بعد كلٍ من هذه المصادمات الخفية.

— ٣ —

ديغول يغضب

في صيف ١٩٤٢ ، قـــدم الجنرال ديغول ، رئيس الفرنسيين

الاحرار ، هذه البلاد . والجنرال ديغول في تلك الفترة كان عاتباً على الحلفاء ، لا سيما الامريكيين ، لعدم اعتباره حليفاً لهم بالمعنى الكامل . وكان قد وجه خطاباً يرد فيه على كتابات الصحف الاميركية ، وتصريحات بعض رجالها ، وتربصهم من موقفه ، ومواصلة العلائق السياسية ، بين حكومة الولايات المتحدة ، وحكومة فيشي . فهو يريد ان تعتبره اميركا ، كأنه فرنسا . والولايات المتحدة تقول ، ان فرنسا هي باقية في الاراضي الفرنسية ومهما كان من موقفها ، فانها فرنسا الام . وغضب ديغول على الاميركيين ، واصيب الانكليز بشرارة من غضبه . ولكن الاميركيين لا يهمهم غضب ديغول ، ما داموا يتمشون على سياسة تقرب اليهم الرأي العام الفرنسي ، وتمكنهم يوماً من انضمام الامبراطورية الفرنسية في افريقية اليهم . وها ان الجنرال ديغول ، الذي مضى على انضمامه الى صفوف الحلفاء اكثر من سنتين ، لم يستطع كسب هذه الاجزاء من الامبراطورية . وهم لم يعتبروا انضمام سوريا الى الحلفاء فوزاً لحركة ديغول ، اذ ان سوريا فتحت بقوة الحراب ، وكان فتحها على يد القوات البريطانية . وما تسليمها الى ادارة فرنسية ، الا من قبيل المجاملة التي درج عليها الانكليز مع حركة ديغول . وافريقية الاستوائية التابعة لفرنسا الحرة ، اين هي من تلك القطاعات الهائلة من افريقية الشمالية والغربية ، التي لم تزل تدين بسياسة فيشي ، وتقاوم حركة ديغول مقاومة شرسة ! اذن على الاميركيين ان يعملوا في سبيل كسب هذه الامبراطورية الشاسعة . وليست قطيعتهم لفيشي وتمسكهم

بديغول ، هو ما يوصلهم الى هذه الغاية . ولكن ديغول ، اما جهلاً لمقاصد الاميركيين ، او تشبثاً وغروراً ، اراد من اولئك ، قطع علاقاتهم مع فيشي ، واعترافهم به كما فعل البريطانيون . غير ان اميركا غير بريطانيا . وهي بسياستها تلك ، كانت تخدم المصالح الانكليزية كما كانت تخدم مصالحها ، والبريطانيون عارفون بذلك ، وراضون عن سياسة الولايات المتحدة . لذلك غضب ديغول على الولايات المتحـــدة ، واشرك الانكليز في غضبه ، ولكن « القافلة تمشي » . وكان مجيء ديغول الى لبنان وسوريا هذه المرة ، مثيراً لتأويلات مختلفة . فمن قائل انه اتى لبعث الروح الفرنسية اللبنانية القديمـــة ، وتذكير اللبنانيين بالروابط التاريخية والتقليدية التي تربطهم بفرنسا ، بعد ان رأى هـذه الروابط تعمل على تفكيكها عدة عوامل ، منها وجود الانكليز في هذه الديار ، وتقرب الكثيرين اليهم . ومنها السياسة السيئة التي يتمشى عليها رجال فرنسا الحرة ، الذين يفسدون سمعة فرنسا باعمالهم وتصرفاتهم ، لا يهمهم الا ان يستفيدوا من الحـــالة الاستثنائية التي تركت السلطة في ايديهم ، فاستعملوها لجمع الارباح عن اي طريقة كانت ، حتى اصبح معروفاً لدى الخاص والعام ان لكل شيء ثمناً عندهم . لقد قالوا ان من اختصاص هـذه السلطة ، محاكمة المخالفين ، ومكافحة المحتكرين ، فانبروا يطوفون المخازن ، وينظمون المحاضر ، ويسوقون المتهمين الى المحاكم والسجون . واذا بالاحكام تبلغ آلافـاً من الليرات ، تذهب كلها الى رجال السلطة . ناهيك بما تبذل لهـذا ، ولذاك ، ولتلك ، من السماسرة عندما يكون هنالك وجيه ، او غني ، يسرف

في البذل كي لا يدخل السجن ، ولو يوماً واحداً . ورجال السلطة يعرفون هذا الضعف ، ويعرفون كيف يستغلونه . وماذا يفيدهم سجن زيد من الناس ، فليكن هناك ثمن لهذا القصاص يقبضونه ، اما سرا على يد عمال معروفين، او جهراً تحت ستار التبرع للصليب الاحمر ، او لجيش فرنسا الحرة ، وغير ذلك من المختلقات المؤدية الى هدف واحد : هو جمع المال .

وكانت هناك ابواب مفتوحة ، يكسبون منها الارباح الطائلة ، ان ضربنا صفحاً عن ذكرها فلا يسعني الا ان اذكر مسألة تجارة الادوية . ففي هذا العهد ارتفعت اسعار الادوية الى حد الجنون . والسبب الاول لذلك لم يكن قلة الموجود فقط ، بل هو الاحتكار الذي فتح القبور لكثيرين من المرضى الذين لا تمكنهم حالتهم من الوصول الى العلاجات . انا لا انكر ان ابطال الاحتكار كانوا من تجار الادوية الوطنيين . ولكن عندما يعرف القارىء ، ان المراقبة على تجار الادوية كانت بيد فرع الاعاشة الباقية بيد الفرنسيين ، وعندما يعرف ان هذه التجارة كانت خاضعة لتدابير يبينها مستشار فرنسي ودائرته ، وعندما يعرف ان هذا المستشار وحده ، له الحق بتسعير الادوية ، او عندما يعرف ان زجاجة « المغنزيا بيلكيرينو » ، بعد ان كانت تباع بستين غرشاً ، اذا بها بين ليلة وضحاها ، يرتفع سعرها بامر المستشار الى مائتين وخمسة وثلاثين غرشاً ، فتبلغ ارباح وكيلها المحتفظ بكمية لا تقل عن عشرة آلاف زجاجة ، اكثر من عشرين الف ليرة . ويقول الخبثاء ان وضع السعر الاجباري، لم يكن اكراماً لسواد عيون الوكيل

فقط ، وعندما يعرف القارىء ، ان تموين البلاد بالادوية كان من خصائص هـذا المستشار وحده ، بحيث لا يباع ولا يشرى شيء بدون علمه وارادته ورقابته ، وعندما يعرف ان الادوية الجاهزة ، كانت لا تصرف الا بعد تأشير دائرة حضرة المستشار ، وان هـذا التأشير قد لا يجيء قبل مرور بضعة او عدة ايام ، والمرض اللعين يأبى الانتظـار ، فيلتجىء اهل المريض الى السوق السوداء ، التي يسيطر عليها المحتكرون ، واكثرهم مشمولون برعاية صاحب القول الفصل ، وعندما يعرف ان سعر الـدواء في السوق السوداء ، لا يقل عن عشرة امثـال السعر العادي . عندما يعرف القارىء كل هذه الامور وغيرها ، مما لا يتسع لي المجـال لذكره ، يدرك سوء الحالة التي كانت تتخبط فيها مسألة الطبابة والصحة العامة في لبنان ، بينما اصحاب الصلاحيات ، لاهون باصدار القوانين التي لم يستفد منهـا المرضى ، بل استفاد من مخالفتها المستثمرون ، الذين عرفوا كيف يغمضون اعين الذين وكل اليهم امر السهر على مصلحـة العباد . مسكين لبنان ، ومساكين اللبنانيون . لقـد تاجروا بصالحه ، واستغلوا اعاشته ، وها هم يجعلون من منكوبيه ومرضاه ، سوقاً يجنون منها الارباح . لو كان من آداب الكتابة ان اذكر الاسماء ، لاستعنت بقلم اسود ، اسوّد به صحيفة اولئك المجرمين ، ليعرف الناس ما الذي حل بالطبقة العامة في لبنان ، في هـذا العهد المشؤوم .

طالت اقامة الجنرال ديغول في سوريا لبنـان اكثر من شهرين ، قام في خلالها بزيارات متعددة لمختلف النواحي والمقامات ،

وبدلا من ان يعمل لوضع حد لتصرفات الموظفين الفرنسيين السيئة ، اذا به يقف خطيباً في ناديهم في احد الايام ، ويلقي خطاباً نارياً يمجد ما عملته فرنسا المحاربة ورجالها ، ويذكر اللبنانيين ، ان فرنسا وحدها دون سواها لها الحق والصلاحية في ان تعطيهم استقلالهم ، وهي وحدها لها الحق بضمانته ، ولا لاحد غيرها من الحلفاء حق التصرف بمقدراته . واذا به يذكر اللبنانيين ، ان الانتداب الذي فرض عليهم منذ ربع قرن ، يعطي فرنسا هذا الحق المطلق . وقد تناسى ، عفاالله عنه ، ان فرنسا الحرة لم تدخل لبنان وسوريا ، الا على حراب الجيش البريطاني ، وان اللبنانيين والسوريين ، لولا هذه الجيوش ، كانوا قضوا بمجاعة اشد هولا من مجاعة الحرب العالمية الاولى . والغريب انه عندما كان يخطب في الاجتماع ، كان يتصدر الحفلة الجنرال « سبيرس » ممثل جلالة الملك البريطاني ، وكانت البواخر الانكليزية ، تفرغ المواد الغذائية في مستودعات البلدة ، وكان الفرنسيون يتلقون المساعدات المالية من الانكليز ، وكان نفوذ الفرنسيين ، قائماً على تأييد السلطة الانكليزية وحراب جيشها . ولكن الجنرال غاضب على سياسة الولايات المتحدة ، وعاتب على مماشاة الحكومة الانكليزية لها ، فوجد في ربوع لبنان مجالا لاظهار سخطه ، واراد تأييد سلطته على هذه البقعة الضعيفة الآمنة ، فاذا به ينثر الوعود تارة ، ويلوح بالتهديد طوراً ، متخذاً لنفسه صفة رئيس دولة ، ذات سيطرة وبطش . اما تلميحه عن حلفائه بل مناصريه الانكليز ، وشركائهم الاميركيين ، فقد كان مثله مثل ذلك الذي شرب من بئر ، ورمى فيه حجراً .

ولكن المعتمد الانكليزي في تلك الحفلة كان اول المصفقين .

ان من تتبع سياسة الفرنسيين الاحرار في هـذه البلاد ، رأى ان رجالها ازدادوا في هوسهم الاداري ، بعـد ان سمعوا خطبة زعيمهم الجنرال ديغول ، اذ رأوا فيها مشجعاً لهم عـلى التمادي في غرورهم ، وتصرفاتهم هنا . فهو بدلا من ان يضع حـداً لاعمالهم غير المشروعة ، وسياستهم الحرقاء ، اذا بـه يظهر لهم ، ان فرنسا الحرة تحتل مكانة رفيعة . ويلوم الحلفـــاء لعدم تقديرهم أعمالها المجيدة . اذن فليسدل الستار على محنة فرنسا ، وليرجعوا هم الى تحكمهم في هذه الديار . أليس لبنان لهم ؟ لبنان هذا الذي يتغنى بتقاليده ، وعلاقاته مع فرنسا ، منذ عهـــد لويس الملك ، الى نابوليون الامبراطور ، الى بوانكاره رئيس الجمهورية . واذا كان رجال فرنسا حرموا سيادتهم على فرنسا نفسها ، فلتبق لهم سيادتهم عـلى لبنان واللبنانيين .

ورجع اولئك الرجال ، الى اعمالهم الاستبدادية المستمدة من سياسة الاستعمار التي درجوا عليها ، منذ وطئوا سوريا ولبنان . ورجع المستشار الى سابق عزه ، وكان من بعض الموجودين منهم في الملحقات ، ان عينوا فرقاً خاصة حرساً لهم ، تنفذ اوامرهم عـلى الناس . لا سؤال ولا جواب . وطالمـــا استعمل اولئك الحراس السلاح ، تنفيذاً لهوس رؤسائهم المستشارين .

انه لمؤلم حقاً ، ان يظل الفرنسيون بعـد اعلان الاستقلال المطلق ، واعتراف الدول بـه رسمياً ، وارسال ممثليها السياسيين الى حكومة البلاد صاحبة السيادة ، متمسكين بحقوق وامتيازات ،

يستغلون بواسطتها البلاد ، ويتحكمون بمقدراتها لمنافعهم وغاياتهم . وانه لمؤلم ايضاً ان تكون السلطة البريطانية ، التي كفلت هذا الاستقلال وتعهدته وضمنته ، ايام كانت على ابواب سوريا ولبنان ، تنازع الفيشيين السيطرة على هذه البقعة الستراتيجية ، بينما هي تقف الآن على الحياد كما تقول ، يشاهد ممثلوها جرائم الفرنسيين ، وتعدياتهم المتواصلة على هذه البلاد ، وسيادتها ، واستقلالها ، وهي معتصمة بالسكوت ، غير آبهة لارهاق ينزل بابناء البلاد ، وبارهاب وتهديد يلوح بهما عمال فرنسا الحرة ، لكل من تظهر عليه روح وطنية او استقلالية ، مما ساعد هذه الشرذمة من الفرنسيين الحائرين على متابعة مسلكهم ، الذي لم يكن في يوم من الايام مستهدفاً مصلحة لبنان واللبنانيين . ولكن ما هو اشد ايلاماً على النفس ، ان يستهتر الرجال الوطنيون ، الذين قاموا على مقدرات البلاد ، بالوديعة التي تسلموها ، ولم يحرصوا عليها . ولعل السبب هو في ان اولئك الرجال ، كانوا اياهم اياهم الذين تقلدوا المناصب في عهد الانتداب ، وتعودوا الاذعان والخنوع امام سلطته وجبروته . فالشعور بالاستقلال ، والتفاني في سبيل المحافظة عليه ، لا يرتجل ارتجالا ، اذا لم تتغير عقلية الموكول اليهم امره . وهذه العقلية لا تتغير بمجرد قرار يعطى . والرجل الذي كان بالامس ، يخضع لسلطة اجنبية ، ولا يعمل الا بما توحيه له ، تسيره فيسير ، وتأمره فيطيع ، ان رجلاً كهذا ، لا يستطيع قرار ، او ناموس ، ان يرتجله مستقلاً ، ابي النفس ، عزيز الجانب . والفرنسيون الذين تنازلوا عن الانتداب ، واعترفوا باستقلال البلاد ، اما جبراً او

مسايرة ، ظلوا يعملون لحفظ سلطانهم على لبنان . وكانت طريقتهم الى ذلك ، بعضاً من رجال لبنان الذين عرفوا فيهم ميوعاً ، وجبناً ، وعقلية وصولية ، فاستخدموهم لغرضهم ، واعتبروهم معبرين عن رأي المجموع . وقالوا لحلفائهم من الانكليز والاميركان ها هي البلاد تطلب تدخلنا ، ولا ترضى ان تحرم مساعدتنا . ولا اعلم اذا كان اولئك الحلفاء ، آمنوا باقوالهم او كان تصديقهم مسايرة ، بغية الوصول الى غاياتهم . ولما كانت دوائر الامن العام كلها ، تحت سيطرة الفرنسيين ، باعتبارها من المسائل العسكرية ، كان بيد اولئك سلاح طالما جردوه ليقاوموا الروح الاستقلالية ، منتحلين اسباباً مختلفة للانتقام من اي شخص ، شعروا انه غير مؤيد لهم . والناس في هذه البلاد ، لم يتعودوا تحمل الاضطهادات في سبيل العقيدة الوطنية . انه نقص في تربيتنا السياسية ، بل قل في تربيتنا الاخلاقية ، اتخذها الغرب ذريعة لبسط سيطرته علينا ، مدعياً انه ما انتدب احدى عاملاته : فرنسا ، الا لاصلاحه فينا ، فما كان همها في البلاد ، الا ان تجعل منه واسطة لاستعمارنا ، فارجعتنا القهقرى ، وظهرت لنا اغراض المستعمرين ، ومدى اخلاصهم الموهوم .

— ٤ —

تواطؤ استعماري

وقضت سياسة الحلفاء بان تعود الحياة النيابية الى لبنان ،

فاتفقت الحكومة البريطانية ، ولجنة فرنسا المحاربة ، واذاعتا من لندرة ان استقرار الحالة الحربية في الشرق الاوسط ، بعد معركة طرابلس الغرب ، وانسحاب المحور الى ما وراء حدود تونس ، لما يزيل كل العقبات من امام اعادة الحياة الدستورية . وأوكلا الى الجنرال كاترو ان يمهد السبيل الى هذه الغاية . فقام حضرته باستشارة بعض رجال البلاد ومقاماتها . وكان همه من كل هذه المناورات ، ان يأتي للبلاد بمجلس نيابي يصدق معاهدة ١٩٣٦ ، التي تجعل من فرنسا الدولة الوحيدة ، ذات النفوذ على لبنان وتمتعها بامتيازات لا يمتعها بها ، رسمياً ، حتى الانتداب . ولذلك كان سعيه في اول الامر ، ان يعاد المجلس القديم الذي حله المسيو بيو ١٩٣٩ ، وهو المجلس الذي عقد هذه المعاهدة ، في عهد ده مارتيل ، وقد كان مؤلفاً من واحد وعشرين عضواً عينتهم السلطة ، واثنين واربعين عضواً منتخبين بطريقة ، اذا بقي في عالم السياسة حياء ، فيجب ان ينكمش خجلاً ، الرجال الذين تسلموا في ذلك العهد ، مقدرات البلاد ، واداروا تلك الانتخابات المزيفة المخجلة . غير ان السلطات البريطانية ، كانت تعاكس ارجاع هذا المجلس . واصرّت على وجوب انتخاب جديد . وهنا لا بد لي ان اذكر الازمة التي وقعت بين الاستاذ نقاش رئيس الجمهورية اللبنانية ، والجنرال كاترو المندوب العام لفرنسا المحاربة ، فيتبين منها نيات مندوب فرنسا من جهة ، وموقف رئيس الجمهورية من جهة ثانية ، ليحكم التاريخ على تعدي الاول ، وعلى موقف الثاني المشرف ، الذي اكتسب اعجاب وتقدير الرأي العام ، المفكر والنزيه ،

بالرغم من انه اندحر امام القوة الاستعمارية : قوة السلطات من فرنسية وانكليزية ، وقد كانت تعطينا يومياً ، برهاناً جديداً على العقلية الاستعمارية المهيمنة على جميع اعمالهم فينا ، بالرغم من وعود تنثرها ، ومبادىء تتغنى بها الدول المسماة ديموقراطية ، وما هي الا مخدرات ، لا يلبث ان يزول تأثيرها ، فتظهر من بعد ذلك نيات اولئك المستعمرين .

عندما رجع الجنرال كاترو من لندرة ، بعد اقرار الحلفاء عودة الحياة الدستورية الى سوريا ولبنان ، اخذ يعمل لهذه العودة باستشارة بعض الرجال السياسيين ، وكلهم من الذين تولوا الحكم في عهد الانتداب . وكانت استشاراته تلك ، مقتصرة على الذين يرغب حضرته بآرائهم ، ويعرفهم مؤيدين لرغباته وغاياته . ولم يقم اي وزن للسلطة الوطنية القائمة ، ولا حسب اي حساب لرئيس الجمهورية ، بل اتخذ لنفسه صفة التشريع ، واحتكر سلطة كان تنازل عنها ، عندما اعلن استقلال البلاد في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤٢ ، ذلك الاستقلال الذي اعترفت به رسمياً ، الدولة البريطانية ، بايفادها وزيراً مفوضاً من قبلها ، هو الجنرال «سبيرس» الذي قدم الى رئيس البلاد اوراق اعتماده ، كما هي الحال في الدول المستقلة . وحذت حذو الدولة البريطانية ، كل من الولايات المتحدة الاميركية ، وبلجيكا ، وتشيكوسلوفاكيا وغيرها . عند هذا التعدي على حقوق البلاد ، كتب رئيس الجمهورية الى الجنرال كاترو ، يحتج على استئثار الجنرال بعمل لم تكن صفته كوزير مفوض ، تخوله اياه . فما كان من الجنرال الغاضب ، الا ان

اجاب الرئيس ، بكتاب ينقض فيه استقلال البلاد ، ويدعي انه ، هو ، لا يزال يمثل الانتداب الذي وضعته جمعية الامم ، ولا يزيله ، في عرفه ، الا جمعية الامم . مهزلة والله لا تبررها غير القوة . فاين هي هذه الجمعية ؟ الم تمت فدفنت واقتبل التعزية بدفنها ، اركانها من انكليز وفرنسيين وغيرهم ؟ وممن كانت تتألف هذه الجمعية ؟ ألم يكن اعضاؤها هم الانكليز والفرنسيس وحلفاؤهم الذين اعترفوا باستقلال لبنان ؟ وفرنسا ، الدولة التي يدعي باسمها الانتداب ، حضرة الجنرال الم تلعن جمعية الامم ، وتحكم عليها بالموت ، عندما انتقلت الى الجبهة الثانية ١٩٤٠ ؟ وها هو الجنرال « كاترو » باسم فرنسا المحاربة ، وهي لا تشكل دولة معترف بها ، لا من الانكليز ولا من الاميركان ، انما هي فئة من الفرنسيين المجاهدين الذين شقوا عصا الطاعة لدولتهم ، وابوا الاستسلام للغالب ، ها هو حضرته ، ينتحل لنفسه صفة الممثل الرسمي للدولة الفرنسية ، ويتمسك بحقوق خولتها اياها جمعية زالت من العالم السياسي . كل ذلك ليحتفظ بحقوق وامتيازات على بلد صغير ، ليس له من سلاح يدافع به عن استقلاله ، غير سلاح الحق ، واستعطاف الدول الكبرى التي تدعي نصرة الضعيف . ولكن في هذه الازمة المستحكمة ، لم يكن للرأي العام الا ان يوقن ان ادعاءاتهم مزيفة ، وعطفهم كاذب . وها هو الوزير البريطاني ، في عشية اعلان « حدث كاترو » يذيع بواسطة الاثير ، تأييد حكومته لهذا العمل .

هذا موجز للازمة التي اثارها حضرة المندوب العام في اواخر شهر اذار سنة ١٩٤٣ ، والتي شهدها لبنان بالم . وشعر اللبنانيون

ان مقدراتهم يتلاعب بهـا رجال الدول المتحاربة لمصلحتهم ، ولمصلحتهم فقط . وقد خيل اليهم ان الدول الديموقراطية الحليفة ، التي اقامت نفسها نصيرة للشعوب الصغيرة ، والتي ادعت انهـا لم تدخل هذه الحرب ، الا مدافعـة عن حرية الشعوب ، والتي وضعت عهدة الاطلنتيك ، ان هـذه الدول كانت السابقة الى الاستخفاف بهم ، وتضحيتهم على مذبح المطامع ، والحقوق التي تدعيها احداهن . فاذا كانت هذه نياتهم ، وهم لا يزالون في صميم الحرب ، فماذا ينتظر منهم غداً عندما يتم لهم النصر ، ويجلسون هم وحدهم في مناصب القضاء والحكم ، لا يخشون مناظراً ، ولا يهابون عدواً ؟

لقد اعترفت فرنسا المحاربة ، وبريطانيا العظمى ، والولايات المتحدة ، في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، باستقلال لبنان استقلالا كاملاً ، لا تقيده الا بعض ظروف عسكرية ، تقتضيها حالة الحرب . ولم يمض على هـذا الاعتراف ، اكثر من خمسة عشر شهراً ، حتى تقوم فرنسا المحاربة بمحاولات سياسية ، يتخذها القوي تجـاه الضعيف ، لتنقض هذا الاستقلال ، فتؤيدها بريطانيا ، وتسكت الولايات المتحدة عنها .

واذا اوجب علي القارىء ، ان اجيئه بتصريحات رجـال الدول الحليفـة ، والمعتمدين السياسيين ، فاني سأضع امامه مجموعة من هـذه المتناقضات ، واترك له ان يرى فيها ما تنويه سياستهم ، وغايتهم في مقدراتنا ، نحن الذين علقنـا عليهم كل

آمالنا ، ورضينا بحرمان وتضحيات ، اذا انكروها ، يكون انكارهم من قبيل الاستهانة ، وعدم الاعتراف بما يأتيه الغير ، متى كان هذا الغير ضعيفاً .

عندما قام الجنرال كاترو في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤١ ، يعلن اعترافه باستقلال لبنـــان ، قال في خطابه : « ان فرنسا الحرة ، الامينة على تقاليدها الحرة وتعهداتها ، تريد ان تكون باكورة اعمالها بعد دخولها سوريا ولبنان ، بالرغم من حالة الحرب ومقتضياتها ، ان تعلن استقلال لبنـان وتعترف باستقلاله ، وسيادته الكاملة . لقد جعلتكم احراراً مستقلين ، واصبحت امانيكم محققـة ، ومنذ الآن تتمتع الدولة اللبنانية بالحقوق والميزات ، التي تتمتع بها الدول المستقلة ذات السيادة ، وهـــذه الحقوق والميزات ، لا تخضع الا للقيود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة ، وامن البـلاد ، وسلامة جيوش الحلفـــاء . ان استقلال لبنان اصبح امراً واقعياً مفروغاً منه . ان هذا الاستقلال ، هو الغاية التي عينها لفرنسا الانتداب ، الذي تسلمته من جمعية الامم . » ومنه « ان واجبي الاول في هذه الظروف ، هو ان اسلم امر تنظيم العهد الجديـــد ، وادارته الى شخصية تتوفر فيها ، في الظروف الحاضرة ، الصفات العليا ، للقيام باعباء هذه المهمة الدقيقة . وبعـــد استشارات قمت بها ، للهيئات المختلفـة ، والمقامات العالية ، رأيت اتجاه البـــلاد الى شخصية الرئيس نقاش . »

لقد فهمت البلاد من هـذه التصريحات ، ان استقلال لبنان

اصبح امراً واقعاً ، لن يقع عليه اي اعتداء . ولذلك قامت الحكومة الوطنية ، بالرغم من ضعفها وتهاونها في كثير من المناسبات ، باعمال لم تكن تستطيع القيام بها الحكومة الماضية .

وفي ٣١ كانون الاول سنة ١٩٤١ ، توجه الى سراي الحكومة الكولونيل هاملتون ، القائم باعمال بعثة « سبيرس » ، وهنأ الرئيس نقاش مأموراً من حكومته ، ومؤيداً استقلال لبنان ، وقد اختتم خطابه « نحن مقتنعون بان الجمهورية اللبنانية ، ستأخذ مقاماً مرموقاً في عيلة الامم الحرة . عاش لبنان مستقلاً . »

وفي ٢٧ آذار سنة ١٩٤٢ ، وصل الى السراي الجنرال « سبيرس » ، الوزير المفوض البريطاني حسب البروتوكول الرسمي ، وقدم اوراق اعتماده لحضرة رئيس الجمهورية ، وكان كتاب صاحب الجلالة ملك انكلترا وامبراطور الهند الى رئيس الجمهورية ، لا يختلف في شيء عما يكتبه عندما يقدم سفراءه لاية دولة مستقلة . وفي ٩ كانون الاول سنة ١٩٤٢ ، ابرقت الحكومة البلجيكية بشخص رئيس حكومتها المسيو « بيار لو » ، الى رئيس الجمهورية معترفة باستقلال لبنان .

وحذت حذوها حكومة تشيكوسلوفاكيا .

وفي ١٩ تشرين ثاني سنة ١٩٤٢ ، قدم الى السراي المستر وادسورث ، اول معتمد سياسي الى جمهوريتي سوريا ولبنان ، مقدماً اوراق اعتماده مع كتاب موجه من الرئيس روزفلت ، الى الرئيس نقاش . وفي خطابه بهذه المناسبة قال : « اذا كانت ظروف

الحرب ، توجد بعض قيود لهذا الاستقلال ، حرصاً على مصلحة الحلفاء وجيوشهم ، فاننا ننظر بثقة الى اليوم الذي يتم به النصر ، وتصبح هذه القيود ملغاة ، فتنعم الجمهورية اللبنانية بجميع معالم الاستقلال والسيادة، في عالم يتمتع بحسنات السعادة والسلام.»

وهكذا توالت تصريحات رجال الدول الحليفة ، باستقلال البلاد استقلالا كاملاً ، لا يقيده الا بعض اعتبارات عسكرية محضة توجبها حالة الحرب . ويفهم من هذا ان مصلحة الحلفاء تقضي بالاشراف على ما له علاقة بالستراتيجية الحربية ، والامن العام والتموين . وهذه قيودات قبلتها البلاد ، ويشهد الله انها عملت وسعها وجهدها ، لتسهيل مهمة الجيوش الحليفة ، لا تضن بمساعدة ممكنة ، ولا تعبأ بحرمان يفرض ، ولا تستعظم تضحية .

ولننظر الى الجنرال « كاترو » نفسه ، الذي قال في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤١ : « ان استقلال لبنان اصبح امراً واقعاً مفروغاً منه » ، يكتب الى رئيس الجمهورية في ٢٧ شباط سنة ١٩٤٣ ، على اثر المشادة التي وقعت بينهما : « اني اذكرك بما كنت اردت ان اتجنبه، وهو بالرغم من اعلان استقلال لبنان بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤١ ، فان فرنسا تبقى منتدبة على لبنان ، الى الوقت الذي تحلها فيه جمعية الامم ، التي وكلت اليها هذا الانتداب ، ثم قال : « اما التدابير التي اتخذتها ، فقد صادفت تأييداً من الدول التي اعترفت بالانتداب .»

انه رجوع غريب عن سياسة فرنسا المحاربة الاولى ، وقد كنا

لمسناه في تصريحات ادلى بها الجنرال « كاترو » ، الى الصحافيين في مصر ، في عودته من لندرة ، واحتجت عليها بعض الهيئات : اولها نقابة الاطباء ، وجريدة «العمل» لسان حال« الكتائب اللبنانية ». « والكتائب » هي الحزب اللبناني الصميم ، الذي طالما صادف اضطهاداً من السلطات ، لاخلاصه للقضية اللبنانية واستقلال لبنان . فما هو الدافع لهذا الرجوع ؟ لقد قال الخبثاء ، والخبثاء صريحون ، ان ما اقدم عليه الجنرال كاترو باسم فرنسا المحاربة ، كان نتيجة تواطؤ اللجنة القومية الفرنسية في لندرة مع الحكومة البريطانية ، اقراراً للسياسة الاستعمارية ، التي ما تزال تسيطر في ذهنية قوى الاستعمار . ولقد ساء الرأي العام اللبناني ، نكول مندوب فرنسا المحاربة ، عن اعترافه باستقلال لبنان . ولكن ما ساءه اكثر ، هو تأييد وزير بريطانيا المفوض الجنرال سبيرس لهذا النكول ، بخطاب اذاعه من محطة الاذاعة في عشية اليوم الذي وقع فيه هذا الاعتداء المستنكر .

ومن مهازل الديموقراطية التي يتغنون بها ، ان السلطة اوجبت على المراقبة ان تمنع نشر اخبار هذه الازمة . ولم تسمح باي تصريح لرئيس الجمهورية . فلم يستطع حضرته ان يلقي بياناً عن الحوادث ، وعندما اقال الجنرال كاترو الجهاز الحكومي ، كانت دوائر الامن العام الفرنسي بالمرصاد للكثيرين من الذين اظهروا تأييدهم له ، واستنكارهم لعمل مندوب فرنسا الاستبدادي . وقد كانت خاتمة هذا المشهد الروائي ، ذلك الكتاب الذي اذاعه الجنرال ديغول من لندرة ، في شهر نيسان ١٩٤٣ ، الى بقايا محطمة من جمعية الامم

يقول فيه : ان انسحاب فرنسا من هذه المؤسسة لا يقره حضرته ، وحيث انه لم تكمل السنتان على هذا الانسحاب ، والانسحاب لا يعتبر امراً مفروغاً منه الا بعد ان يمضي عليه سنتان كاملتان ، فانه يرجع عنه ويعتبر نفسه عضواً في جمعية الامم ، له الحقوق التي كانت لفرنسا ، ويقبل المسؤوليات الملقاة عليها ، ويعني بها مسؤوليات الانتداب .

هي مهزلة والله تضحك الثكلى . ان يقوم قائد فرنسي ، ثار على حكومته ، ويدعي انه هو فرنسا . وفرنسا لا تزال قائمة في بلادها دولياً بالرغم من انكسارها . وحكومات العالم كلها ، صديقة كانت ام عدوة ، تعتبرها فرنسا الاصلية . ولكن هو التلاعب السياسي الاستعماري ، يجيز للمستعمرين هذه المداورات السياسية ، لهضم حقوق الامم الضعيفة . ومن المؤسف ان يبقى هناك نفر من الشعوب المحكومة ، يثق بوعود رجال الدول المستعمرة . ولعل ما اصاب لبنان في هذه الفترة ، يكون عبرة له تريه الطريق التي يجب ان يسلكها للوصول الى امانيه . هذه الطريق التي لا يعبدها ، الا التفاهم بين ابنائه وتوحيد جهوده واعماله ، والحذر من مواعيد ينثرها عليه غريب ، لم يعمل يوماً الا لمصلحته وغاياته .

— ٥ —

حكومة تذهب ، وحكومة تجيء ، بامر المندوب الفرنسي

تسلمت حكومة الدكتور ايوب ثابت الحكم ، في ٢٥ آذار

سنة ١٩٤٣ . واوجب عليها قرار تعيينها اجراء انتخابات نيابية بمدة ثلاثة اشهر ، ينبثق عنها مجلس نيابي يبدأ اعماله بانتخاب رئيس للجمهورية . ولم يكد يصدر هذا القرار ، حتى ابتدأت المناورات السياسية في البلاد ، ان من الاحزاب الوطنية ، او من المراجع الاجنبية . كل منها تستهدف غرضها وغاياتها . فكانت فترة نشاط وعمل ، سأسعى الى ان احللها . وعساني ان اعطيك ايها القارىء ، صورة مجملة عن الحالة السياسية ، والاعيب القوى الاستعمارية .

الدكتور « ايوب ثابت » رجل يناهز السبعين . لم تستهوه المرأة فبقي عازباً . ولربما لم تصقله معاشرة النساء فنشأ حاد الطباع ولازمته عصبية المزاج ، لا تتفق مع ما تتطلبه السياسة من مرونة ودهاء . ولكن الدكتور ثابت حر بمبادئه ، متصلب بارائه ، حتى ما كان منها متطرفاً او مخطئاً . ومع انه بروتستانتي المذهب (اسمياً) ، لكنه لا يتمسك بالطائفية ، ولا يميل الى العبادة . اما مبدؤه السياسي ، فقائم على استقلال لبنان ، وجعله وطناً قومياً مسيحياً ، تضمن سلامته الدولة الفرنسية ، التي يرى فيها افضل الدول للمحافظة على هذه القومية . غريب من رجل كالدكتور ثابت ، معروف بعلمانية متطرفة ، ان يتمسك بمسيحية لبنان ، مع ما فيها من خطر عليه وعلى مستقبله ، وهو محاط باقطار اسلامية ، من شرقه وشماله وجنوبه ، الا اذا سلم بصهيونية فلسطين ، شرارة النار في هذا الشرق . ولكن الدكتور ثابت صلب العقيدة ، يعمل الممكن وغير الممكن في سبيلها ، مستعيناً بعوامل غريبة لا يسع اللبناني المخلص الا ان يرى فيها عنصراً من عناصر الهدم لحياته

الاقتصادية ، وتقدمه وعمرانه . انا لا اتهم الدكتور ثابت انه يماشي الفرنسيين ، طمعاً بجاه او كسب شخصي . ولا يجرؤ احد على هذه التهمة . هي عقيدة راسخة في ذهنه ، لاشك انها مبنية على مبدأ يعتقده صواباً . والدكتور ثابت لا يجادَل في عقيدة يؤمن بها .

وقوي النشاط الانتخابي في لبنان ، ونشط الفرنسيون وعملاؤهم ، يعدون العدة لتأتي اكثرية تماشي سياستهم . وخافوا من انتخابات حرة ، قد لا تكون نتيجتها كما يرغبون ، وهم لم يتعودوا الحياد في الانتخابات . واذا كانوا اتفقوا مع حلفائهم الانكليز ، على اطلاق الحرية للبنانيين في هذه الفترة ، لكنهم ابوا الا التدخل لضمان الفوز لمصلحتهم . فكانت مشادات عنيفة بين رجال الحليفتين : تارة ظاهرة ، وطوراً مستترة . وقال الحبثاء : ان الانكليز ايضاً كانوا يتدخلون ، لاحباط مساعي الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يعملون من وراء الستار . اما الفرنسيون فلا يتسترون ، ولكل من الجبهتين عملاء ومريدون واصدقاء . وتسعى كل جبهة لتأييد اصدقائها ، والنكاية باخصامها . والفرق فقط في لباقة هذا وخشونة ذاك . هاك فصلاً من فصول الرواية .

« عنتر » زعيم اقطاعي ينطبق عليه لقب « شيخ قبضيات » تخافه العامة ، وتحذره الخاصة ، لغته لغة السيف . لا يطاله عقاب ولا تقيده شرائع . حالفته السلطة الفرنسية في اثناء الانتداب ، فماشى سياستها ، وكان احد اخصائها ، فايدت زعامته ، ومكنت اقطاعيته

ليخدم غاياتها . وما ضر المجتمع الانساني ، اذا اضطهد هـذا الزعيم الناس ، واستعبد العامة ، او احتكم الى سلاحه ، اذا ما عصاه عامل او خصم ، ما دام هو يطيع السلطـــة ، ويؤيدها في سياستها ، ويخضع بني قومه وعشيرته لارادتها ، فتحقق بواسطته رغائبهـــا . وكان الزعيم عضواً في المجلس النيابي، عندما كان الانتخاب والتعيين بيد السلطة ، تعين من تريد ، ويُنتخب من ترغب بانتخابه. وها نحن اليوم على عتبة انتخابات جديدة ، وهو يمشي الى الندوة النيابيـة ، بالطريقة نفسها التي كان يسلكها من قبل . وهو زعيم القائمـــة التي تؤيدها ، وترغب في نجاحها ، وتتوكأ عليهـا السلطات الفرنسية . وهو قوي جبار بطاش . ولكن هناك همساً ان الرجل يتجر بالحشيش ، وتجارة الحشيش من الجرائم الدولية ، واذا تغاضت عنها سلطات الامس لغرض في نفسهـا ، فلا يسع سلطات اليوم المرور بها مر الكرام . ووشى الواشي به للسلطـة العسكرية البريطانية فاخذت هـــذه الامر بيدها ، واعتقلت الزعيم بالجرم المشهود ، ثم سلمته الى السلطات الفرنسية ، لتجري محاكمته كما تقضي الاتفاقات بين الحليفتين . ولكن السلطة الفرنسية لا ترغب في معاقبة الزعيم ، صديقها المخلص لا سيما والانتخابات النيابية قد اعلن موعدها بعـد شهر او اثنين ، فاذا ادين هـــذا الزعيم افسح المجـال لاخصامه السياسيين ، وخسرت الجبهة الفرنسية، اكبر عضد لها في مقاطعته. واشتدت المنافسة بـين الحليفتين ، وكانت محاكمة المتهم ، ووثقت الجبهة البريطانية من ان حليفتها ستبرئه ،فتحفزت لاعتقاله فور التبرئة، وقال الحبثاء : ان السلطة الانكليزية دبرت هذه المؤامرة ، للايقاع

بحليفتها ، ولكن السلطة الانكليزية أمسكت بيدها الجرم غير المشكوك بصحته . اذن لا مناص من العقاب . وشهدت البلاد مشهداً من مشاهد المنافسة المستترة بين الجبهتين . ولكن قضت السياسة العليا ، ان تنكفىء النظرية الانكليزية ، وخرج الزعيم من السجن بعد ان لزمه شهرين . وسكتت السلطة الانكليزية على مضض ، لتحارب الرجل اذا ما عمل للوصول الى الندوة النيابية ، بالرغم من اشتهار الامر في الاوساط السياسية . قال الراوي : سئل « عنتر » مرة لماذا هو يصانع الفرنسيين ضد الانكليز ؟ ولماذا يرغب في الدخول الى الندوة النيابية ؟ فقال : « انا لا تهمني النيابة ولا ارغب فيها . ولا فرق عندي بين فرنسيين وانكليز ، فما رغبتي في المجلس ومصانعتي السلطة الفرنسية ، الا لاؤمن بذلك نفوذي بين عشيرتي ، وامنع الشرائع ان تطالني ، اذا ما اتيت عملاً يحرمه القانون . والسلطة التي تحميني اذا قتلت ، او اجرمت ،او خالفت ، هي السلطة التي اؤيدها واعمل لها ، لتكن هذه انكليزية او فرنسية او صينية او.... » هذا ما رواه الراوي . والراوي وان كان من الخبثاء ، فهو من المطلعين على المخابىء والخفايا .

وكانت ردة الفرنسيين من جنس العمل ، ولكنها لم تكن محكمة ففشلت في مهدها .

« كميل شمعون » محامٍ غض الشباب ، ظريف المعشر ، لا يتجاوز الثالثة والاربعين من عمره . هام بالمرأة والسياسة معاً . فتزوج وهو في العقد الثاني ، ودخل معترك السياسة ، وهو في عهد

الفتوة . انتخب نائباً في مستهل العقد الثالث ، ودخل الوزارة وهو في السابعة والثلاثين من عمره ، ولمع في الاثنتين ، متسلحاً بشعبية لا تقف عند حد ، وتفان في خدمة الناس ، حالا بينه وبين الثروة ، وبقي قانعاً بالكفاف من رفاه العيش ، مبدؤه السياسي المحافظة على استقلال لبنان، مستعيناً بسلطات الانتداب . وقد كان من مؤيدي معاهدة ١٩٣٦ . غير انه بعد تعاون وثيق ، مع هذه السلطات ، انكفأ عن هذا التعاون ، عندما رأى فيه ميلاً الى سياسة العزلة اللبنانية ، التي تجعل منه وكراً للنفوذ الفرنسي في هذا الشرق العربي ، بصرف النظر عن مصلحة لبنان القومية والاقتصادية . وبعد ان رأى من رجال السلطة المنتدبة تحيزاً ظاهراً لاولئك الرجال الذين يخدمون غاياتها . وعندما دخل الجيش البريطاني الاراضي اللبنانية ، تظاهر بنفوره من سياسة الانتداب ، وكان من الذين طالبوا السلطات الحليفة بالعهود التي قطعتها باستقلال لبنان ، والغاء الانتداب الغاء تاماً . فكان ذلك سبباً لامتعاض الفرنسيين ، واقصائه عن اي مركز سياسي ، اذ عدوه من عملاء الانكليز . وقد ايد فيهم هذا الاعتقاد ، صداقته لكثيرين من رجال الجيش البريطاني ، وتزاوره معهم ومحبتهم له ، وهو من الذين يدخلون بسهولة ، الى قلوب معاشريه .

وعندما اعلنت الانتخابات النيابية ، اتجهت الانظار الى هذا الشاب ، وكان لا بد من نجاحه . واستصعبت السلطات الفرنسية كسر شوكته فيها ، اذا لزمت هي الحياد في الانتخابات كما تعهدت عند اعلانها . ومن الصعب ان تتظاهر بتدخلها ، والبريطانيون في

البـــلاد يراقبون . وقوي نشاط كميل شمعون لتأليف كتلة من رفاقه يدخل معها الندوة النيابيـة . فرأى الفرنسيون خطراً يجابههم ، فتصدوا للعمل . واذا بهم يتهمونه انـه يحرض الناس على الاخلال بالامن العام ، والامن العـام لا يزال تحت سيطرتهم . واشترك بهـــذه المؤامرة نفر من اخصام شمعون ، واستقدموا شهوداً عليه ، واعتقلوا بعضـاً من اخصائه ، وساموهم عذاباً اشبه بالتعذيب في القرون الوسطى ، ليأخذوا منهم اقراراً بتجريمه . وهمس في اذن شمعون ان دوائر الامن العـام ستعتقله . فتوارى عن الانظار بضعة ايام ، واومأت سلطات حليفة ، ان عملاً كهذا يعدونه عدائياً ، بعد ان تحققوا ان هذه المؤامرة مختلقة من اساسها يقصد منها الحط من شعبية الرجل ونفوذه ، وابعاده عن الوصول الى المجلس النيابي . وهكذا خابت خطتهم ، وبقي شمعون يواصل جهوده الانتخابية ، ويجمع بـــين العناصر المتنافرة ، قصد تأليف جبهة قوية ، تقاوم السياسة التي درج عليها المنتدبون في لبنان اثناء ربع قرن . والفرنسيون يتأثرونه ، ودوائر الامن العام تعـد عليه حركاته ، لعلها تستطيع ان تأخذ عليه مأخذاً لها ، غـير ان الامور تعقـــدت عليهم ، فلم يستطيعوا ارواء غلتهم . ومشى شمعون ورفاقه الى الانتخابات ، بالرغم من معاكسة الفرنسيين ، وما استعملوه من بقـايا نفوذهم ، في الدوائر والمراكز الحكومية وغير الحكومية .

وحدث في هذه الفترة الاستعدادية حادث لا يخلو من الطرافة المحزنة ، لا بد من ذكره في هذه الوثيقـــة . رأى رئيس الدولة

الدكتور ايوب ثابت ، ان من صلاحيته تعديل عدد النواب في المجلس المقبل . والدكتور ثابت ، كما قلنا ، من القائلين بمسيحية لبنان ، وجعله وطناً قومياً مسيحياً ، تضمن سلامته واستقلاله فرنسا . وشاء المهيمنون على هذه الفكرة ، وهم فئة من الوطنيين يتزعمهم الاستاذ اده رئيس الجمهورية الاسبق ، ومن الفرنسيين في المندوبية العامة ، ان يضمنوا لهذه الفكرة ، اكثرية مسيحية كبرى في المجلس التشريعي . فاستالوا الدكتور ثابت الى اصدار مرسوم اشتراعي يعدل فيه التمثيل الطائفي ، على اساس احصاء المهاجرين اللبنانيين ، ولم يكن سبق تمثيلهم بعد ، في المجالس النيابية السابقة فضمنوا بطريقتهم هذه ، اكثرية اثني عشر عضواً في مجلس يتألف من ستين .

اذا رجعنا الى القوانين الدولية في البلدان الديموقراطية ، رأينا مشروعية احصاء المهاجرين . ولكن في الظروف الاستثنائية الحالية ، وبالنظر لكون احصاء المهاجرين لم يكن احصاء بدون شائبة في حينه ، قامت ضجة الفئات التي رأت فيه غبناً عليها . وكانت هذه الفئات مؤلفة من الطوائف المحمدية ، اذ ان اكثرية المهاجرين من المسيحيين . فلما رأى المسلمون ، ان هذا التعديل سيوجد في المجلس اكثرية كبرى من المسيحيين ، قامت قيامتهم عليه ، وتنادوا لعقد مؤتمر اسلامي عام محتجين بشدة . وانذروا بمقاطعة الانتخابات النيابية . وكان لعملهم ردة مسيحية ، اذ عقد اولئك ايضاً مؤتمراً من رؤسائهم ، وطالبوا باقرار هذه الزيادة المبنية على احصاء المهاجرين . ولما قويت المشادة كان لا بد لرئيس

الحكومة : الدكتور ثابت ، الذي بقي مصراً على عزمه ، من ان يستقيل . فصدر قرار من المندوب « هيللو » ، بتعيين السيد بترو طراد ، رئيساً موقتاً لاجراء الانتخابات فقط . وبقيت تتوالى مؤتمرات الطوائف ، وكثرت المشادات والمشاحنات الطائفية منذرة بعواقب وخيمة . والغريب في الامر ان هذه المؤتمرات كانت تعقد في ظرف كانت ممنوعة فيه الاجتماعات العامة ، مما جعل مجالا للخبثاء ان يتهموا السلطات برضاها عن هذه المعركة الطائفية . ولكن يظهر ان السلطة البريطانية ، التي يهمها ان تصير الانتخابات ، فرضت حكمها بين الفريقين ، وهكذا دعيت البلاد لانتخاب مجلس يتألف من خمسة وخمسين عضواً ، بنسبة ثلاثين من المسيحيين ، وخمسة وعشرين من المحمديين . وقبل الطرفان ، وكل منهما يشكو غبناً ، وايد الحكم السفير الفرنسي ، نازلا عند ارادة زميله البريطاني .

وقوي النشاط السياسي في البلاد . وكثرت الاجتماعات الحزبية والشعبية ، وللمرة الاولى ظهر العراك الانتخابي على وجهه الصحيح ، اذ اطلقت الحريات للكتل وللاحزاب لتقوم بدعاياتها . وبرز الى الميدان نشاط الحزب الشيوعي ، بعد ان اقفلت بوجهه ابواب الجهاد مدة طويلة . ولربما كان لانتصارات السوفيات ، يد في اطلاق باب العمل له . والسوفيات حلفاء الدول الديموقراطية في الحرب ، فلا يجرؤ رجال السلطات على مقاومة الاحزاب الشيوعية كما كانوا يفعلون في الماضي . ولكن السلطات مع عدم مقاومتها حركات الشيوعيين ، لم تكن راغبة بنجاحهم في الانتخابات . وظهر

تأييد المرشحين الشيوعيين ، من عامة الشعب ومن بعض خاصته . غير ان القوى المستترة حالت دون نجاح مرشحيهم . ولكن بالرغم من عدم فوز الشيوعيين في الانتخابات ، لعراقيل مستترة اقيمت بوجههم ، فقد اظهرت البوادر والاتجاهات الانتخابية ، ميل الشعب لتأييد مبادىء الجبهة الشعبية . وكيف لا يكون هذا الميل ، والبلاد التي قاست الامرين من قوى الرجعية والاستعمار ، تئن من وطأة المستثمرين والاقطاعيين ، ومالأة السلطات لهم ، في الماضي البعيد والقريب . ومع ان الجبهة الشعبية غلبت على امرها هذه المرة ايضاً ، غير انها وضعت اساساً لمستقبل ، يؤمل معه النجاح للطبقة العامة من الشعب .

* * *

وكانت معركة الانتخابات حامية الوطيس ، لم يسبق لها مثيل في جميع الانتخابات الماضية ، اذ انه في الماضي ، لم يكن هنالك انتخابات حرة قط . فقد كانت السلطة تفرض مرشحيها ، وتستعمل نفوذها تارة بالوعود وطوراً بالوعيد ، لتأتي النتيجة مطابقة لرغبتها . غير ان السلطة هذه المرة لم تستطع فرض ارادتها ، وبجانبها سلطة ثانية يهمها امر الانتخابات . ولكن لم يخل الامر من مداخلات مشبوهة . فالسلطة الفرنسية لا تزال آخذة ادارة الامن العام بيدها . ورجاله وطنيين كانوا ام فرنسيين ، يعملون بوحيها . والمحافظة على الامن العام ، ذريعة تستطيع هذه السلطة ان تؤثر بها في سير الانتخابات . ولا اظن ان السلطة البريطانية وقفت على الحياد

في اثناء هذه المعركة . لكن البريطانيين المشهورين بالدهاء ، عرفوا كيف يتدخلون دون ان يحدثوا ضجة في عملهم ، على عكس الفرنسيين الذين اقاموا الدنيا واقعدوها ، فكان من وراء ذلك مشادات عنيفة بين رجالهم وبعض الناخبين ، اودت بحياة بضعة قتلى ، احدهم قتل بيد احد رجال الامن الفرنسي .

وكانت الانتخابات معركة بين جبهتين متشاكستين . جبهة تنتسب الى الشيخ بشاره الخوري ، الفرنسيون يعاكسونها ، والبريطانيون يعطفون عليها . وجبهة تنتسب الى الاستاذ اميل اده ، الفرنسيون يريدونها ، والبريطانيون لا يرغبون فيها . وقد اتخذت الفئة الثانية لها سلاحاً دينياً بل طائفياً ، اذ اتهمت الفئة الاولى بانحيازها الى السياسة العربية ، وافراطها بحقوق لبنان واستقلاله . فدعت البلاد الى محاربتها محافظة على لبنان ، وعلى قوميته المسيحية . وحيث ان الاكثرية المسيحية موجودة في محافظة جبل لبنان ، فقد اشتدت المعركة في هذه المحافظة ، ونجح في الدورة الاولى من قائمة الاستاذ اده خمسة نواب ، بينما لم ينجح من قائمة بشاره الخوري ، الا نائب واحد هو الاستاذ كميل شمعون . وعندما اعيدت الدورة الثانية (البالوتاج) ، كانت حماسية لم يرَ مثلها لبنان . وكثرت نفقات الانتخابات ، ولعبت التدخلات دورها الكبير . وتدفقت الوف الليرات ، بل مئات الالوف تطغي الناخبين . واسفرت الدورة عن تساوي عدد الناجحين في القائمتين في هذه الدورة .

ولما اكتمل انتخاب المجلس ، اذا بالحزب الذي يقول بالتفاهم

مع الاقطار العربية ، وبتوثيق عرى الالفة والصداقة ، يفوز على حزب العزلة . واذا بالشيخ بشاره الخوري زعيم هذا الحزب يفوز برئاسة الجمهورية، بعد مناورات ومشادات طريفة وعنيفة . فدخلت البلاد بعد هذا الانتخاب ، في عهد الاستقلال الفعلي . وتألفت اول وزارة دستورية برئاسة رياض الصلح . وتقدمت الى المجلس ببيان مبني على استقلال لبنان استقلالا كاملا ناجزاً ، وعلى تسلمه جميع الصلاحيات التي كانت بيد السلطة المنتدبة . ورياض الصلح الرجل الذي كان في سياسته سلبياً ، كل مدة الانتداب ، والذي اعتقل ونفي اكثر من مرة ، من السلطة الفرنسية ، والذي كان يتهمه البعض انه عدو لبنان واستقلاله ، وانه يسعى لضم لبنان الى سوريا . والذين اتهموه كانوا بنظري مغالين . ان رياض اتخذ من بيانه الوزاري ، فرصة يعلن بها تمسكه باستقلال لبنان ، استقلالا كاملا لا يختلف في شيء عن استقلال بقية الاقطار العربية ، يمد يده الى هذه الاقطار ، كما يفعل الند للند ، دون ان يمس استقلاله او سيادته . واذا به يعلن ايضاً انه يريد ، ان يكون الاستقلال هذه المرة استقلالا فعلياً ، لا يمسخه انتداب او حماية ، او وصاية ، او اي تدخل اجنبي ، يجعله شكلا من اشكال الاستعمار ، ويتخذ من لبنان طريقاً ، يدخل منها الى بقية الاقطار العربية . هذا ما قاله رياض بالحرف في بيانه عن علاقة لبنان بالاقطار العربية . قال : « نحن لا نريده للاستعمار مقراً . وهم ، اي ابناء الاقطار العربية ، لا يريدونه للاستعمار اليهم ممراً ، ونحن وهم نريده وطناً عزيزاً ، مستقلا ، سيداً ، حراً . »

اما وقد انتهينا الآن الى عهد الاستقلال الذي اعترفت به الدول ، واصبح الانتداب ملغى، بالرغم من ادعاء بعض المتطرفين بعقلياتهم الاستعمارية من الفرنسيين الحائرين ، فاننا نقف عند هذا الحد ، اذ اننا اردنا من هذا الكتاب وصفاً لحالة لبنان في عهد الانتداب الذي ابتكرته مخيلة ولسون ، ووافق عليه اقطاب الدول المنتصرة في الحرب العالمية الماضية ، فعسى ان يكون انتداب الامس ، درساً للذين ابتدعوه ، وعبرة للبلدان التي نعمت بنعمه وبركاته .

الفصل السابع

ثورة وانقلاب

« ملحق رقم : ١ »

— ١ —

بوادر الازمة بين لبنان وفرنسا

بعد ان كنت اختتمت الكتاب ، اعتقاداً مني ان العهد الذي دخلت فيه البلاد ، بعد الانتخابات النيابية ، وانتخاب رئيس الجمهورية، وتأليف الحكومة «الرياضية» ، لا يمت الى الانتداب بصلة ما ، بل هو استقلال صحيح ، اذا بالازمة تثيرها اللجنة الوطنية الفرنسية ، ورجالها في هذه البلاد ، الذين ساءهم ان يروا لبنان يفلت من قبضة استعمارهم . فهم اذ قبلوا باستقلال لبنان وسوريا ، فانما فعلوا ذلك مسايرة للسياسة الدولية ، ولطلبات الامم المتحدة ، ولكن عندما رأوا ان الحلفاء جادون بوعودهم للبنان ، وان اللبنانيين نووا استعمال الصلاحيات التي يخولهم اياها الاستقلال الصحيح ، وعندما شعروا بتضاؤل سيادتهم ، وخشوا ان يخسروا نفوذا وامتيازات كانت تدر عليهم الارباح الطائلة ، وعندما رأوا ان بين ليلة وضحاها ، ضاع سلطانهم المطلق على هذه البلاد ، جن

جنونهم . ولا شك ان مؤامرتهم كانت من نوع الجنون المطبق . فدبروا مؤامرتهم على البلاد ، وعلى دستورها ، وحكومتها ، غير آبهين لما قد تؤدي اليه هذه المغامرة من النتائج في لبنان ، وفي الاقطار العربية الشقيقة ، وفي الدول الديموقراطية ، التي تحارب في سبيل الحرية ، ومقاومة الطغيان . ولكن يظهر ان الفرنسيين الذين يعملون باسم لجنة الجزائر في هذه البلاد ، اصيبوا بصدمة في ذهنيتهم اعمت بصيرتهم ، فظنوا ان بوسعهم القيام باجراءات قسرية اذا كان لها من صدى غير مستحب في الرأي العام ، فلا يلبث هذا ان يخضع لها كما في السابق . وبالطبع لقد شجعهم في مغامرتهم هذه نفر من الخونة الوطنيين الذين كانوا دائماً حرباً على لبنان ، ومطية للمستعمر الفرنسي . ولكن هالهم ما رأوه من الوعي القومي اللبناني هذه المرة . فكان لمغامرتهم هذه ردة استحقوها ، رجعت بهم اشواطاً الى الوراء ، وافقدتهم ولاء الباقين من اصدقائهم . لقد ارادوا تحطيم العهود ، وتحكيم القيود برقاب اللبنانيين ، فاجابهم اللبنانيون بثورة لا هوادة فيها ، الى ان عاد اولئك المغامرون الى رشدهم ، بل الى ان اعيدوا الى رشدهم وكانوا خاسرين . وسأثبت فيما يلي ما وقع من الحوادث الخطيرة في اثناء الازمة ، التي هزت لبنان والاقطار العربية كلها ، وكان لها دوي عظيم في الدنيا قاطبة ، فلم تخل من اخبارها اذاعة من اذاعات الغرب والشرق ، واهتمت لها حكومات الدول المتحاربة ، ولا سيما الحليفة منها ، واعتبرتها محكاً للمبادىء الديموقراطية والتحريرية التي تحارب هذه الدول في سبيلها .

— ٢ —

جلسة تعديل الدستور

لم يغتبط الفرنسيون بالانتخابات ولا بنتيجتها ، ولا بانتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية ، وما سرهم ان يؤلف الوزارة رياض الصلح ، ويعتمد في تأليفها على عناصر الشباب . والشباب قوي الشكيمة ، صلب العود ، ورياض ذاك الرجل الذي عرفوه وطنياً عنيداً ، واضطهدوه كل المدة التي كانوا فيها منتدَبين على سوريا ولبنان ، رياض هذا سيعمل على تطبيق مبادئه التي ما برح يقاوم ويناضل من اجلها . فالانتداب ورياض لا يأتلفان . وعندما رأوا رياضاً وحكومته ، يعمدان الى وضع البيان الوزاري موضع العمل ، ايقنوا انه لن يمضي بعض الزمن حتى تقتنص الحكومة صلاحياتهم ، فتحرمهم امتيازات ومكاسب ، تمتعوا بها مدة ثلاث وعشرين سنة باسم الانتداب . فما كان من لجنة الجزائر الا ان اصدرت بلاغاً ، ابلغه مدير المطبوعات الى الصحافيين ، قبل ان يبلغ رسمياً الى الحكومة ، جاء فيه : « ان اللجنة المذكورة لا تعترف باي تعديل في الدستور اللبناني ، من قبل الحكومة اللبنانية والمجلس النيابي اللبناني وحدهما ، بدون موافقة السلطات الفرنسية . » فلما رأت الحكومة ان هذا البلاغ وزع على الصحافيين قبل ان يقدم رسمياً لها ، ورأت بذلك تحدياً ، امتنعت عن تقديم اي جواب للمندوبية ، ودعت المجلس النيابي للانعقاد في ٨

تشرين ثاني سنة ١٩٤٣ ، في جلسة رسمية طرحت فيهـــا مشروع تعديل الدستور، فصادق المجلس على المشروع بالاجماع. اما التعديل فقد اصاب جميع المواد التي تقيد البلاد بالانتداب . كما اصاب المادة المتعلقة بالعلم اللبناني ، الذي كان علماً فرنسياً في وسطه ارزة ، رمزاً الى استظلال لبنان العلم الفرنسي ، والحماية الفرنسية ، او الاستعمار الفرنسي . اما المادة القائلة : ان اللغة العربية هي اللغـة الرسمية ، واللغة الفرنسية هي لغـة رسمية ايضاً ، في حالات تحدد بقانون خاص ، فان هذا القانون الخاص بقي كل مـدة الانتداب دون ان يصدر. ولهذا طغت اللغة الفرنسية على الدواوين الرسمية ، واصبحت لغة المعاملات كلها . وفيما عدا بعض دوائر حكومية ، لم يكن للغة العربية شأن في الحكومة . وصارت اللغة الفرنسية ، والمعاهد الفرنسية ، قبلة كل اللبنانيين . ولا يخفى ما كانت تنفثه هذه المعاهد من السموم ، بغية قتل الروح الوطنية في البـــلاد . فعندما تسلمت الحكومة الرياضية الحكم ، كان اول امر اصدرته ، هو ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . اما اللغة الفرنسية فيحدد استعمالها بقانون . وعندما وضع امر الوزارة موضع التنفيذ قامت قيامة الجانب الفرنسي ، وغضب اليسوعيون وعمالهم ، غضبة مضرية ، وشنوها حرباً لا هوادة فيهـــا على الوزارة . وانبرت جرائدهم ودعاياتهم ، تكيل القدح لرجال الحكومة ولهذا العهـد ، كيف لا وقد رأوا بذلك بدء انهيار نفوذهم وسلطانهم !

— ٣ —

الأزمة تشتد

لقد كانت جلسة ٨ تشرين الثاني جلسة تاريخية ، وهي، دون شك ، اعظم ما قام به المجلس النيابي . ولقد اسرعت الحكومة ، (ولم تتسرع كما اتهمها الجانب الفرنسي) ، بطرح مشروع التعديل، فكانت سرعتها ضرباً من ضروب الدهاء السياسي ، الذي امتاز به رياض الصلح ، اذ هو أدرك من نيـــة الفرنسيين ، وتهيؤهم لنسف الاوضاع السياسية في لبنان ، وحل المجلس وتعليق الدستور . وما كان تدخل « دافيـد » مندوب المندوب ، بطلب تأجيل الجلسة ، ريثما يصل المنـــدوب هيللو من الجزائر ، الا من قبيل الشرك . اذ ان الحوادث اظهرت ان جريمة ١١ تشرين الثـاني كانت مدبرة مقدماً . اما تنصل لجنـــة الجزائر من اجراءات هيللو الاجرامية ، فانه يزيـــد على فظاعة الجرم ، التهرب من تحمل المسؤولية .

وصل السفير هيللو في ٩ تشرين الثاني ، عائـداً من الجزائر . وكانت السفارة الفرنسية ، تستعد للاحتفال بعيد الهدنة في ١١ منه، وارسلت الدعوات الرسمية الى رئيس الجمهورية والوزراء والنواب، فقبلت الحكومة الدعوة . غـير ان الدائرة السياسية في السفارة الفرنسية ، عادت فسحبت دعواتها من الحكومة والنواب ، في صباح ١٠ الشهر ، وابقتها فقط لرئيس الجمهورية . بادرة تنـــذر

بالعدوان ، وتعلن ابتداء الازمة . ولكن فخامته رفض الدعوة تضامناً مع حكومته . كما ان الحكومة سحبت قوى الدرك التي كانت ستشترك بالاستعراض العسكري . وعندما علم رجال السلك الديبلوماسي ، من ممثلي الحلفاء لدى الحكومة اللبنانية ، اجتمعوا برئاسة وزير بريطانيا ، وقرروا عدم حضور الحفلة التي لا يحضرها رئيس الجمهورية اللبنانية ، وحكومته التي يمثلون دولهم لديها . وبالواقع لم تقم الحفلة مطلقاً ، اذ ان الثورة ما لبثت ان اندلعت يوم الهدنة . وشاء الممثلون الديبلوماسيون ، ان يستبقوا الحوادث ، ويرتقوا الخرق بين الحكومة اللبنانية والسفارة الفرنسية ، فتطوع تحسين بك قدري ، وزير العراق ، للقيام بالمهمة . ولكنه اصطدم بانكار الفرنسيين لاي اجراء قسري ينتوونه .

وفي عشية ١٠ تشرين الثاني ، اقام وزير بريطانيا لجلالة الملك بطرس اليوغسلافي مأدبة تكريمية ، دعا اليها السفير هيللو ووزير خارجية لبنان . وكان حديث الازمة اللبنانية الفرنسية على كل فم ، فأكد السفير هيللو اكثر من مرة للسفير البريطاني ، انه لن يقوم باي عمل فيه مظهر من مظاهر العنف . هذا تصريحه الرسمي قبل الاعتقال ببضع ساعات فقط ، عندما كانت قوات الامن العام الفرنسي تضع التصميم لتنفيذ اوامر « هيللو » الذي يمثل رسمياً اللجنة الوطنية الفرنسية .

— ٤ —

النار تشتعل

واصبح صباح ١١ تشرين الثاني ، واذا بلبنان يهوج ويموج .

فقد سرى نبأ الاعتداء الشنيع الذي تمخضت بـه جماعة الفرنسيين في البلاد ، على لبنان وعلى الامة اللبنانية . هـذا الاعتداء الدنيء ، الذي تورعت عن اقترافـه سلطات الطغيان الفاشستي والنازي . فـاذا بهؤلاء الفرنسيين الاحرار الذين شردتهم الحرب ، واذلتهم الهزيمة التي انزلها النازيون ببلادهم ، ولم يعتبروا ، اذا بهؤلاء ، وقد رضيت بقبولهم هذه البلاد ، نزولا على مقتضيات السياسة الدولية ، ينصبون انفسهم جبابرة ، تغمرهم الخيلاء ، فيتحكمون ببلاد كانت اول من آستهم ، عندما نزلت بهم محنة ١٩٤٠ . وقد ثار ثائر حقدهم اليوم ، عندما قام لبنان يطالب بحقه الذي اعترفت له بـــه جميع الدول واقروا به هم انفسهم ، عندما دخلوا هذه البلاد مع الجيش البريطاني. ولكن أيتنازلون عن امتيازات تمتعوا بها مدة الانتداب المشؤوم ؟ اتفلت من يدهم صلاحيات كانت تـــدر عليهم ارباحاً طائلة ، ويقبضون بواسطتها على مرافق البلاد ، وعلى مصالحها ، وعلى جميع مؤسساتها ، مالية كانت أم ثقافيـــة ، أم عمرانية ؟ أيتركون هذه الموارد ، تنعم بها بلاد تناسوا حسن صنيعها ، عندما احتضنتهم ابان محنتهم ، فيقوموا اليوم ليسلبوها حقوقهـــا ، ويطمعوا بثروتها واموالها ؟ لقد تجاهلوا انهم مغلوبون على امرهم في هذه الحرب ، وما من امة تعترف لهم بحقوق الدول الكبرى ، وتجاهلوا انهم بحاجة الى عطف الحلفاء ، وتجاهلوا عدم قانونيـــة تسلمهم السلطة في هذه البلاد . تجاهلوا كل ذلك ، وارادوا ان تكون لهم السيادة المطلقة ، فقاموا بمغامرتهم الجنونية في صباح ١١ تشرين الثاني . عند الساعة الرابعة صباحاً ، طوقوا بفلول قواتهم

من بحارة وسنغالين ، بيوت رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ، ووزيري الداخلية والخارجية ، ووزير التموين ، والزعيم عبد الحميد كرامي ، نائب طرابلس . فارسلوا لكل منزل شرذمة من خمسين جندياً . واقتحموا البيوت شاهري السلاح . فلم يراعوا حرمة النساء والاطفال، بل كانوا يصوبون بنادقهم الى النائمين في اسرتهم ، حتى اذ افاقوا من نومهم ، ذعروا من مشهد لم تأت بمثله وحشية الغستابو الهتلرية . وهكذا اعتقلوا فخامة الرئيس بشارة الخوري ، ورئيس حكومته رياض الصلح ، ووزير الداخلية كميل شمعون ، ووزير الخارجية سليم تقلا ، ووزير التموين عادل عسيران ، ونائب طرابلس عبد الحميد كرامي ، بعد ان فتشوا بيوتهم ، وصادروا اوراقهم . ثم اقتادوا كلا من المعتقلين ، في سيارة ملأى بالجنود المسلحين، الى « قلعة راشيا ». ولقد كان تصرف الجند في بيوت المعتقلين يختلف باختلاف الضباط واخلاقهم . فالضابط الذي تولى الجرم في بيت رئيس الجمهورية كان فظ الاخلاق ، رأى ان يظهر بطولته بترويع العيلة كلها . وكانت اول من اصطدمت به وبرجاله الآنسة الصغيرة كريمة الرئيس، وهي لا تتجاوز الثالثة عشرة بعد . وما ان افاقت، حتى رأت سلاحاً مصوباً اليها ، فصرخت ، ولكن اولئك الجنود « الابطال » اسكتوها مهددين ، الى ان وصلوا الى غرفة فخامته . وعبثاً حاولت زوجة الرئيس الاتصال بطبيب العيلة ليسرع الى الابنة، اذ ان الابطال مانعوا بذلك، وهم في اثناء معركة تتوقف عليها امجادهم ، ولا مجال للاهتمام بمجاملة المقتضيات الانسانية . اما الضابط الذي كان على رأس القوة في بيت رياض

الصلح ، فيكفي ان يذكر اسمه ، ليعرف الجميع بفظاعة تدابيره وعمله . هو « بوتيليون » الذي كان مثالا اعلى ، للاخلاق السيئة ، وللاعمال الوحشية، التي كان بطلها في المدة التي كان فيها من اولي الامر ، في دوائر الامن العام الفرنسي ، في هذه الديار . وكانت ابشع معاملة ، تلك التي انزلوها بعبد الحميد كرامي . ولا شك ان لعبد الحميد ، ميزة خاصة في قلوب المستعمرين. فقد اقتلعوا هذا الزعيم من فراشه ، ولم يتركوا له فرصة ليرتدي لباسه ، بل اخذوه بالقميص و « الكلسون » ، حافاً ، ورفسوه الى السيارة ، فجرح جبينه وسال الدم منه ، فوضع على رأسه منديلاً في الطريق، حتى اذا وصل الى راشيا ، وكان رفاقه كلهم قد وصلوا اليها قبله ، دهش اولئك اذ رأوه على هذه الصورة ، وبادر الوزير كميل شمعون، الذي كان قد تمكن من اخذ ثيابه معه ، تعطفاً من الضابط الذي تولى اعتقاله ، فاعطى عبد الحميد ثوباً يقيه البرد ، وضمدوا له جراحه بما تيسر .

وظل المعتقلون في قلعة راشيا طول مدة الاعتقال ، التي كانت احد عشر يوماً . فلم يغادرها سوى فخامة رئيس الجمهورية في ليل ١٨ تشرين الثاني ، بناء على دعوة الجنرال كاترو ، ودولة رئيس الوزارة رياض الصلح ، في ليل ١٩ تشرين الثاني . فاتى كل منهما الى بيروت مخفوراً ، واعيد مخفوراً ! ذوق ، ولباقة سياسية ، تجلت في دعوة الجنرال ، اذ يأتي برئيس للجمهورية ، ثم برئيس للحكومة في ليل بارد ، من قلعة راشيا الى بيروت ، في سفر يدوم ساعتين ، ثم يرجعهما في الليلة نفسها الى راشيا ، دون ان يفكر بما

سببه لهما من الانزعاج ، بينما هو يأوي بعد المقابلة ، الى فراشه الناعم الوثير . هذا هو الجنرال « كاترو » الذي يصفونه بالحكمة والمرونة واللباقة .

اما معاملة المعتقلين في القلعة ، فقد كانت تنم عن ادب وذوق المعتدين. لقد وضع رئيس الجمهورية في غرفة خاصة ، ليس تكريماً له ، بل ليكون معزولا عن رفاقه . وهكذا ايضاً كان نصيب رئيس الوزارة . اما الاربعة الباقون ، فوضعوا في غرفة واحدة . وكانت الغرف ضيقة ومحرومة من وسائل الراحة ، مسدودة النوافذ ، يقوم على حراستها حراس من الجند ، احياناً فرنسيين ، واحياناً من عبيدهم . اما الاسرة ، فقد كانت مستعارة من اسرة الجنود ، ضيقة لدرجة ان النائم لا يستطيع ان يتحرك عليها بسهولة . فراشها واغطيتها من الخيش الرديء . اما الطعام فكان على حساب المعتقلين ، بواسطة طاهية من راشيا . وكان سكان راشيا ، يرسلون اليهم الالوان المختلفة ، ويسهرون على وجوب طبخها بنظافة ودقة .

وهكذا بقي اولئك الزعماء ، في حصن راشيا ، احدعشر يوماً ، يقتلون الوقت في التفكير ، ولعبة النرد ، والمباحثة في الحوادث التي كانت تتسرب اليهم بصورة سرية ، وينتظرون ما تتمخض به الايام ، وما ستأتي به ثورة لبنان . فلنترکهم الآن في عزلتهم ، لنرَ ما أحدث هذا الاعتداء من الاثر في العاصمة ، وفي جميع الاراضي اللبنانية .

بيروت الجبارة تضرب ضربتها

(اما في بيروت ، فقـــد اذاع هيللو ، سفير فرنسا في الساعة الثامنة صباحاً من الراديو ، خطاباً اعلن فيه التدابير التي اتخذها . واعلن تسمية « اميل اده » رئيساً للدولة وللحكومة) فكان خطابه مزيجاً من المكر ، والرياء ، وسوء النية . (اما اميل اده ، فقد بقي طول مدة الثورة ، يحاول تأليف حكومة تساعده على جريمته ، فلم يستطع ان يجد احداً يتعاون معه . فالتجأ اخيراً الى الموظفين ، مهدداً اياهم بجميع وسائل التهديد . غير انه خاب في جميع محاولاته ، واضرب اكثر الموظفين عن النزول الى اعمالهم ، فانشلت الآلة الحكومية ، وتوقفت المصالح) وكان هو في ذهابه وايابه محاطاً بالقوات الفرنسية المسلحة ، والجماهير حوله تكيل له الشتائم . وقد كانت اكثر من محاولة اعتداء عليه ، في طريقه وفي بيته . ولا شك ان ذلك الرجل ، الذي ما خطر بباله يوماً ، ان الشعب اللبناني سيقف هذا الموقف ، ندم على اشتراكه في هذه الجريمة النكراء .

(انتشر نبأ اعتقال الزعماء في المدينـة كالبرق . فما كانت الساعة السابعة صباحاً ، حتى عم الخبر . فاضربت العاصمة اضراباً شاملاً تامـاً ، وتعطلت حركة السير اجمالا ، وتوافدت الجماهير الى بيوت المعتقلين ، وعمت المظاهرات الشوارع . فاصطدمت الجماهير بالقوات الفرنسية المرابطة لقمعها ، فوقع ، من جراء ذلك ، حوادث عديدة

سقط فيها قتلى وجرحى . واحرق المتظاهرون السيارات الفرنسية عندما كانوا يلتقونها . وتوحدت منظمتا الكتائب والنجادة ، تحت قيادة رئيس الكتائب الشيخ « بيار الجميل » الذي ما لبثت السلطة العسكرية ان اعتقلته . واستفرست القوات المسلحة ببنادقها ، ورشاشاتها ، ودباباتها ، لتقمع المظاهرات التي قام بها اللبنانيون ، احتجاجاً على طغيان الطغاة الماكرين . ورأى اولئك المحاربون ، في ساحات بيروت ، ميداناً مناسباً لاظهار بطولتهم . فكانوا يمرون في سياراتهم شاهري السلاح ، يطلقون الرصاص على جماهير من النساء والصبية العزل من اي سلاح ، غير سلاح الحق والايمان .

وتوالت اجتماعات الهيئات المختلفة . وتنادت النقابات ، والجمعيات والاحزاب ، الى عقد مؤتمر وطني عام ، انتخب منه لجنة تنفيذية ، لتدير الحركة وتشرف على الاضراب . فكان يوالي اجتماعاته اليومية في بيوت اعضائه ، يوماً هنا ، ويوماً هناك ، تهرباً من ملاحقة القوات الفرنسية . وفي كل يوم ، بل في كل ساعة ، تذهب الوفود الى ممثلي الدول الحليفة ترفع الاحتجاجات ، وتستنجد بالاقطار العربية الشقيقة لمساعدة لبنان في محنته . فكان اولئك الممثلون يهبون لنجدتنا ، ويتصلون بحكوماتهم ، ليوقفوها على ما يجري في لبنان ، وعلى الفظائع التي يرتكبها المعتدون . ومنذ الدقيقة الاولى ، اعلن الجنرال « سبيرس » ممثل بريطانيا العظمى ، « والمستر ودسورث » ممثل الولايات المتحدة ، ان حكومتيهما لن تسكتا عن هذا التعدي . ولن تقبلا الا برجوع الحياة

الدستورية كاملة غير منقوصة كما كانت تماماً قبل ١١ تشرين ثاني سنة ١٩٤٣).

اما مصر والعراق ، هاتان الشقيقتان العزيزتان ، فكنا نستقبل تصريح حكومتيهما ، واستعدادهما للدفاع عن شقيقهما المنكوب بتشوق ولهفة. وعندما قام « النحاس باشا » في مصر يرغي ، ويزبد ، ويهدد الفرنسيين ، كانت اصوات اللبنانيين تتعالى بالهتاف لجلالة مليك مصر ولرئيس حكومته . وكانت مذكرة النحاس باشا الى الجنرال ديغول قاسية ، انهاها رفعته بهذة العبارة : « فاذا لم تعد الحالة في لبنان الى وضعها المنطقي، فان مصر تعيد النظر في موقفها من فرنسا ، على ضوء الحوادث الجارية . »

اما السيد « تحسين قدري » ممثل المملكة العراقية ، فقد اتخذ موقفاً شديداً ، ودل بعمله وجرأته على ما يكنه للبنان من حب وتفان واخلاص. وقد كانت مذكرته ، الى المندوب الفرنسي ، شديدة اللهجة ، اظهر فيها استنكاره لما اتته السلطة الفرنسية ، وبين له خطورة الحالة وفظاعة الاعتداء ، ومما جاء فيها قوله : « انه لمن المؤسف يا فخامة السفير ، ان يتحقق ما حسبته من نتائج ذلك العمل الشاذ. فها انتم تعلمون — كما اعلم — ماسبّبه عملكم من هياج الجمهور اللبناني ، اذ عرف كيف اعتقل رجال دولته ، وكيف اهينت نساؤهم وروع اطفالهم. وها انتم ترون قواتكم العسكرية ، تنصرف عن المهمة التي انتدبت لها نفسها ، وانتدبها الحلفاء لها — وهي محاربة قوات المحور ، وانقاذ البلاد التي اجتيحت

ومنها بلادكم فرنسا – الى تعطيل الدولة الشرعية في لبنان ، واختطاف الرؤساء ، واحتلال البرلمان . وتسليط رجال غير شرعيين ، على الاعمال الحكومية ، وتهديد افراد قوات الامن الداخلي بالموت ، اذا هم خالفوا اوامركم ، واطاعوا الحكومة الدستورية الشرعية . واخيراً الى اجراءات القمع العسكري ، في البيوت والشوارع ، وتسليط النار على الشعب الاعزل ، بما شاهده المراقبون العسكريون ، والمدنيون ، والدبلوماسيون ، الاجانب والوطنيون .»

ثم انهى مذكرته باللهجة التهديدية الآتية : « ويؤسفني يا فخامة السفير ، ان ابلغكم انه في حالة اهمالكم نصائح حكومتي ، وطلباتها هذه ، لن يستطيع العراق ان يقف مكتف اليدين ، اذ لا بد له ان يتخذ الموقف ، الذي تمليه واجباته الانسانية ، ومصالحه الدولية ، كحليف يتطلب هدوء هذه الناحية من العالم ، وهو يساهم على العمل للوصول الى انتصار الحق والحرية .»

وهبت سيدات لبنان الى الجهاد ، وخرجن من خدورهن بمظاهرات مؤثرة ، وطفن في الشوارع ، يشجعن على الاضراب وعلى المقاومة ، وزرن عدة مرات ممثلي الدول . ولم تبالِ المرأة المسلمة بحجابها ، عندما دعا داعي النضال ، فسارت بجانب اختها المسيحية على اقدامها الى دور السفارات ، والى جميع المقامات ، تنادي بالجهاد الوطني . فما كان من اولئك « الابطال »

الذين حملوا السلاح، الا ان صوبوه الى صدورهن، تشفياً وانتقاماً . وان انس فلا انس ذلك المشهد الرائع ، عندما هجمت شرذمة من الجنود السنغاليين ، بقيادة ضابط فرنسي على المتظاهرات في السفارة الاميركية ، فانبرت احداهن ، وخاطبت ذلك الضابط بلغته ، وقالت : « اطلقوا بنادقكم ايها « الابطال » انتم الذين كان يجب عليكم ان تحاربوا اولئك الذين اغتصبوا بلادكم ، واستعبدوا نساءكم ، واذلوكم ، فاتيتم تظهرون بطولتكم ، على شعب نزلتم عليه بحجة الصداقة التقليدية ، فاذا بكم لصوص تسرقون امواله ، وتستبيحون دماء ابنائه .» وكان رجال السفارة الاميركية يصورون اولئك الجنود ، وهم يصوبون نارهم الى صدور السيدات اللبنانيات .

لله درك ايتها اللبنانية الباسلة الواعية . لقد سكتّ طويلاً عن ضيم كان يلحق ببلادك . فظن العاملون ان بك ضعفاً في ايمانك ، ولا مبالاة صرفتك عن القيام بواجبك الوطني ، الى التلهي بتوافه اساليب المدنية الغربية . واتهمك المستعمر الاجنبي ، بانك تتنكرين للبنانيتك ، فكان همه الاكبر ، ان يزرع فيك روحاً غريبة خبيثة ، تثير فيك الكره والاحتقار لعروبتك ، لتتقربي الى مدنيته ، وثقافته ، ومجتمعه المصطنع ، بالوان الزيف والفساد . كان يعمل ذلك ، ليقينه انك انت مرآة المجتمع اللبناني ، فاذا اكتسبك الى جهته ، اكتسب بك النشء اللبناني الجديد ، وقضى على روح وطنية يعمل في سبيلها الوطنيون المخلصون .

— ٦ —

في عرين بشامون

قلنا انـــه تخلص من الاعتقال ، الوزيران حبيب ابو شهلا ، والامير مجيد ارسلان . فذهبا في صباح النكبة الى دار الوزير البريطاني المفوض ، واحتجا لديه احتجاجاً شديداً ، ومكثا هناك بضع ساعات ، ارسلا في اثنائهـــا الاحتجاجات الى جميع المراجع الحليفة ، وممثلي الدول العربية .

وكان رئيس المجلس النيابي « صبري بك حماده » وبعض النواب قد أموا البرلمـــان . فحاصرتهم فيه قوة فرنسية ، ومنعت عليهم الاتصال بالخارج . وقـد عقد اولئك النواب جلسة رسمية اتخذوا فيهـــا قراراً ، بتفويض الاستاذ حبيب ابي شهلا ، والامير مجيد ارسلان ، القيام باعمال الحكومة ، على ان يقوم الاستاذ ابو شهلا بوظيفـة القائم باعمال رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ، والامير مجيد بوزارة الدفـاع . ثم رسموا في هـــذه الجلسة ، العلم اللبناني الجديد ، واتخذوا قرارهم التاريخي ، بجعله علماً وطنياً بدلا من العلم القديم ، ولما استطاع رئيس المجلس النيابي ، والنواب المحاصرون ، ان يتركوا دار البرلمان التف حولهم اكثرية رفاقهم ، ما عدا خمسة او ستة من صنـائع اده والفرنسيين . وكانت تتوالى اجتماعاتهم ، تارة في بيوت النواب ، وتارة في دار ولي مدرسة الحكمة ، السيد « اغناطيوس مبـارك » مطران بيروت الماروني ، الذي كان له

القدح المعلى في الجهـــاد الوطني ، واحياناً في بيت سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية . فكانت تنبثق عن هـذه الاجتماعات ، قرارات تشريعية ، اهمها توجيه انـذار الى مصرف سوريا ولبنان ، باعتباره مسؤولا عن كل ما يدفع من جانبه الى غير الحكومة الشرعية . وقد تقيد البنك بهذا الانذار ، لا سيما والدول الحليفة كلها لم تعترف « بكويسلنغ » لبنان ، والوضع الذي اقامـــه السفير هيللو . ومنذ الدقيقة الاولى ، اعلنت هـذه الدول ، بلسان ممثليها ، انها لا تعترف الا بالحكومة الشرعية المنبثقة عن الدستور ، والممثـــلة باشخاص الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية ، ورياض الصلح ، وحكومته ، الحائزة ثقة البرلمان الاجماعية . وكانت هذه الحكومات تفاوض الوزيرين أبا شهلا وارسلان ، معترفة بهما قائمـــين باعمال الحكومة الشرعية .

(وكان لا بد للحكومة الموقتة من ان تتخذ لها مقراً خارج بيروت ، التي كانت ترزح تحت حكم الارهاب العسكري الفرنسي . فاختارت بلدة « بشامون ») وهي قرية جبلية تبعد مسافة عشرين كيلومتراً عن العاصمة ، فجاء هـــذا الاختيار موفقاً بالنظر لموقع القرية الخاص . (ومنذ اللحظة التي وصل فيها الوزيران) ورئيس المجلس النيـابي ، ورفاقهم من الموظفين) اخـــذ يتهافت عليهم المتطوعون من كل حدب من لبنان) . وقد تجمع حول الحكومة المئات من المجاهدين ، باسلحتهم المختلفة ، ومئات من المتطوعين غير المتسلحين ، (كانت مهمتهم مساعـدة القوة الوطنيـــة) وخدمتها واعاشتها . (وقد تولى تنظيم هذه الفرقة الوطنية البطل اللبناني « نعيم

مغبغب »، وكانت بقيادة وزير الدفاع والقائد العام، الامير مجيد ارسلان، يعاونه الكولونيل فوزي الطرابلسي.

اما القوات الفرنسية، فقد ساءها ان تنظم قوة وطنية في البلاد، للدفاع عن حريتها واستقلالها. فجرت على بشامون حملة من جنودها، اكثرها من السنغاليين والقناصة تحت امرة ضباط فرنسيين، مجهزة بالرشاشات والمدافع والدبابات. فاتخذت هذه الحملة بلدتي سوق الغرب وعيتات مقراً لها. وفي صباح ١٦ تشرين الثاني، هاجمت هذه القوة بلدة بشامون، فاصطدمت عند مدخل القرية بطلائع الحرس الوطني. ووقعت بين الخصمين مناوشات، وتبادل الفريقان اطلاق النار. وكان مع المهاجمين دبابتان وعدة مدافع رشاشة. غير ان الوطنيين كانوا قد احتاطوا لامرهم، فسدوا على الدبابات طريقها، بصخور ضخمة، وعندما تحقق الفرنسيون ان في بشامون قوة لا يستهان بها، احجموا عن التورط في عملياتهم العسكرية، وتراجعوا الى مركزهم الاول. اما الخسارة فقد كانت شهيداً وطنياً يدعى « سعيد فخر الدين »، من شباب عين عنوب وثلاثة جرحى.

اما بشامون فقد كانت مرجع جميع العاملين في العاصمة، يتصلون بالحكومة يومياً، ليتلقوا اوامرها ومقرراتها. وكانت السيارات تتدفق اليها، حاملة الشخصيات المتعددة، ومقادير الاعاشة والذخيرة اللازمة للمجاهدين. وبينما كانت العاصمة اللبنانية تغلي غلياناً بالحماسة، وبينما كانت المظاهرات تملأ الشوارع،

والوفود تؤم السفارات ، والوكالات السياسية ، من الصباح الى نصف الليل ، وبينما كانت القوات الفرنسية تطارد المتظاهرين بالسلاح ، وبينما كانت قوات الامن العام الفرنسي تواصل تعدياتها وتعتقل الشخصيات الوطنية ، وبينما كان يزداد في كل يوم ، عدد الشهداء والجرحى في بيروت ، وطرابلس ، وصيدا ، بينما كانت الدنيا قائمة قاعدة ، كان المؤتمر الوطني اللبناني يتقبل التبرعات السخية من المواطنين : تجاراً ، واطباء ، ومحامين ، وسيدات ، وشركات ليصرفها على تنظيم المقاومة ، واعاشة المجاهدين ، ومساعدة المنكوبين . ولما انكمشت الجرائد الوطنية عن الظهور استنكاراً للاعتداء الشنيع ، صدرت في اليوم الاول جريدة سرية عنوانها (؟) «علامة الاستفهام» واذ رآها جماعة الفرنسيين ، اصدروا هم ايضاً جريدة مقلدين هذا العنوان للدعاية ضد الحركة الوطنية . فما كان من القيّمين على الجريدة الوطنية ، الا ان اصدروا جريدتهم تحت عنوان (؟؟) « علامتي استفهام » وكانت جريدة الوطنيين توزع سراً ، فتنشر اخبار الثورة بسرعة البرق في جميع الانحاء اللبنانية .

— ٧ —

لا هوادة قبل الفوز

هي ثورة ارتجالية ، هذه الثورة التي اندلعت في لبنان ، في الساعة الاولى التي وقع فيها التعدي الطغياني الشنيع المستنكر . فانقلب الشعب اللبناني كله ، من شعب مسالم ، هادىء ، مساير ،

الى شعب ثائر ، غضوب ، مقاتل . شبانه حملوا ما تيسر لهم من السلاح . وشيوخه رجعت اليهم شعلة الشباب ، ليوقدوا نار الحماسة في صدور المجاهدين . نساؤه حملن في صدورهن سلاح الايمان ، ومشين في مظاهراتهن في وجه الجنود المسلحة المجتمعة ، لقمع الحركة الوطنية . واطفاله ، الله من اطفالك يا لبنان ، ما اجملهم وهم يركضون في الشوارع ، يغلقون المتاجر ، وينادون بحياة المخلصين ، وسقوط الخائنين ، وبجلاء المستعمرين ! سلاحهم حماسة ، وايمان ، وحجارة ، يرشقون بها قوات الامن هنا ، وسيارات الجيش هناك . يتقبلون رصاص الجندي العبد ، فيستشهد منهم نفر ، ويجرح الكثيرون ، وهم ينشدون الاناشيد الوطنية ، ويهزجون لاستقلال لبنان وكرامة لبنان .

وبقيت نار الثورة متأججة كل مدة الازمة ، فلم تخمد في انتهائها الا لتنقلب الى موجة فرح وسرور ، برجوع المعتقلين واعادة الحياة الدستورية الشرعية . ودام نضال الشعب يزداد يوماً عن يوم ، بينما كانت اذاعات العالم كله تلهج بثورة لبنان ، وجهاد اللبنانيين ، مستنكرة الاجراءات القاسية التي غامر بها جماعة الفرنسيين . وكانت الحكومات الديموقراطية كلها بجانب هذا الشعب المجاهد ففي كل يوم تصريحات من البرلمانات الديموقراطية ، ومذكرات من الامم المتحدة ، تنذر اللجنة الوطنية الفرنسية بسوء العاقبة ، اذا لم تعد الى رشدها ، وتعود عن جريمتها النكراء . وانه لمن دواعي الفخر ، ان يخص القضية اللبنانية بجلسة صاخبة ، اعرق المجالس النيابية في العالم ، اعني به مجلس العموم البريطاني . وان

توجه حكومة الولايات المتحدة ، امّ الديموقراطيات ، مذكرة قاسية الى لجنة الجزائر ، تهددها بتغيير موقفها تجاهها اذا استمرت في عنادها . وانه لمن دواعي الغبطة ، ان تتجند حكومات البلدان العربية ، للدفاع عن قضية لبنان وحقه في السيادة والاستقلال . ولبنان هو الشقيق العزيز لهذه الاقطار الكريمة .

وبقي الاضراب مستمراً في المدن اللبنانية ، وبقيت الاعمال مشلولة ما دامت الازمة ، وتحصنت في عرينها حكومة بشامون . فكانت قواتها الوطنية تزداد يوماً عن يوم ، بمن يهرع اليها من المتطوعين ، وما اجمل « بشامون » في تلك الآونة . لقد ذهبت اليها تكراراً ، فكنت في كل مرة اجد من معالم الفروسية والكرامة ، ما تعتزّ له النفوس ، وتشمخ لبوادره الرؤوس . اولئك المتطوعون المجاهدون ، يحملون البنادق ، ويفترشون الثرى ، ويلتحفون السماء ، متأهبين لرد اي غارة تغيرها جيوش المستعمرين . وذلك الفارس الارسلاني المغوار يشير فيهم حماسة ، فيجيبونه لعينيك ايها الامير ، فلنجعلن من عرين بشامون حصناً يرد كيد الاخصام والاعداء ، فلا نرجع الا والفوز حليفنا ، والكرامة تتوج رؤوسنا ورؤوس اللبنانيين كافة . ايه يا بشامون ، لقد كنت عرين الاسود ، وحصن لبنان الاشم . فليكن لك في تاريخ لبنان ذكر ابدي ، خالد .

ودار الفلك دورته . ولا بد للفلك من دوران . ورأى الفرنسيون ان لا بد لهم من التسليم والخضوع ، لارادة الامة

الباسلة ، ولاحكام الامم المتحدة الحرة . فاصدرت لجنة الجزائر قرارها في ٢١ تشرين الثاني ، القاضي باعادة رئيس الجمهورية الى منصبه ، واطلاق سراح المعتقلين . فانطلقت صرخة الابتهاج من الصدور ، وتوافدت الجماهير الى بيت فخامة الرئيس ، وبيوت الوزراء ، وكانت طلقات الرصاص تشق الهواء . واجتمعت عشرات الالوف من اللبنانيين في صباح اليوم التالي ، وساروا بمظاهرات امتلأت بها الشوارع ، حتى وصلوا الى دار البرلمان ، الذي كانت قد اقفلته السلطة ، واقتحموه عنوة ، ثم اعتلوا سطح البناء الشامخ ، وانزلوا العلم اللبناني القديم ومزقوه تمزيقاً ، ورفعوا على البرلمان العلم اللبناني الجديد ، العلم الذي حاكت نسيجه الثورة ، وصبغته بدماء شهدائها الميامين ، مستبدلين بالخطوط الفرنسية خطين افقيين ، من اللون الاحمر القاني ، يتوسطهما خط ابيض ، منقوش عليه ارزة لبنان الخالدة . ثم ذهبوا ورفعوه على الابنية الرسمية الاخرى . فكانت هذه البادرة رمزاً حاسماً لاستقلال لبنان الصحيح وسيادته وكرامته .

ايه ايها العلم المحبوب ! لقد مسخوك في عهد الاستعباد الذي سموه انتداباً . فصوروك لنا بصورة اقرب الى المذلة والاحتقار . لقد احاطوا ارزتك بالوان العلم الفرنسي ، ليدللوا بهذا الاحتضان انك عبد لارادتهم ، ومطية لاستعمارهم . واذا بك اليوم تأبى الا ان تكون علماً لبنانياً خفاقاً ، ترمز الى مجد لبنان . ولا يرضى الشعب اللبناني الثائر ان يحيط ارزتك الخالدة ، الا سياج من دماء شهدائه الابرار . اخفق ايها العلم ليحييك اللبنانيون ،

وليرى فيك العالم اجمع : رمزاً عزيزاً كريماً للكيان اللبناني الخالد .

وقام لبنان ليلة الثالث والعشرين من الشهر تتوّجه اكاليل الغار . غير ان اهل العاصمة ابوا ان يستسلموا الى الرقاد ، قبل ان يصل زعماؤهم من راشيا . ومرّ الليل بكامله وبيوت الرئيسين والوزراء تستقبل الوفود وتعج بالزائرين . واصبح الصباح فاذا بالنبأ يقول : ان المعتقلين الاحرار غادروا قلعة راشيا ، ووصلوا عند الظهر الى شتوره حيث كان الاهلون ينتظرون . ثم غادروا شتوره تتقدم سياراتهم الدراجات البخارية ، ويتبعها رتل من السيارات ، تقل المستقبلين والمرافقين . فوصل الموكب في الساعة الرابعة عشرة الى بيروت ، حيث كانت الجماهير تنتظر هذا القدوم الميمون ، فما كنت تسمع الا صيحات الابتهاج ، وزغردة النساء ، ولعلعة الرصاص تشق عنان الهواء ، وسار الموكب الى بيت فخامة رئيس الجمهورية ، حيث كانت بيروت باجمعها . وكان مشهد مؤثر ، عندما صعد فخامته درج قصره ، واستقبلته صاحبة العصمة عقيلته واولاده ، فهطلت دموع الفرح من عيون الجميع . ثم خرج فخامته الى الشرفة ، فخطب بالجماهير المحتشدة ، وكانت نبراته تنم عما يكنه فؤاده من الحب والاخلاص للبنان ، والتفاني في سبيل حريته وكرامته . ثم ذهب الوزراء الى بيوتهم ، حيث كانت عائلاتهم تنتظرهم على احرّ من الجمر ، وحيث كانت الجموع ترقب مقدمهم سالمين اصحاء معافين .

ودامت المظاهرات الاحتفالية ذلك المساء ، والليل بطوله .

وكان موكب فرقة النجادة ، يحمل المشاعل ، ويطوف بها على بيوت الوزراء ، وبيت رئيس الكتائب اللبنانية الذي فكّ اعتقاله ايضاً . وهم ينشدون النشيد اللبناني ، وتعزف موسيقى الفرقة الانغام الشجية .

كان هذا الموكب من اروع ما شاهده لبنان من معالم البهجة والسرور ، وبقيت بيروت في عيدها الرائع الى ان اصبح الصباح . فنزل الوزراء الى مكاتبهم ، بالرغم من ان قرار لجنة « ألجه » الاول لم يكن قد اعترف باعادة الحياة الدستورية ، بل اقتصر على الاقرار برجوع فخامة رئيس الجمهورية وحده الى مركزه . ولكن ، ما قيمة قرار الجه ، والشعب اللبناني الهائج اظهر ارادته بشكل ما من قوة تجرؤ على مقاومته . فما كان من الجنرال « كاترو » الموفد رسمياً ، من قبل اللجنة الوطنية الفرنسية لحل الازمة ، الا ان خضع لارادة الشعب ، واعلن بلسان السفير « شاتينو » الذي حل محل « هيللو » المعزول ، الرجوع عن جميع القرارات التي صدرت من الجانب الفرنسي ، منذ ١١ تشرين الثاني . وقد جاء الرجلان « كاترو وشاتينو » الى السراي ، وقدما كتاباً الى فخامة الرئيس ، يعترفان فيه باسم اللجنة الوطنية بالوضع اللبناني كما اقرته الحكومة اللبنانية ، وايده البرلمان .

وفي اليوم التالي ، كان موعد نزول الامير مجيد الى العاصمة ، فكان موكب قلّ نظيره . الامير مجيد بملابسه الحربية يودع بشامون ، ثم يغادرها في سيارة مكشوفة ، مع الوزيرين ابي شهلا

وعسيران ، تتبعه مئات من السيارات ، ويرافقه فريق من الحرس الوطني . فكان كلما مر ببلد تعالت اصوات الهتاف والزغردة ، وطلقات الرصاص ، حتى اذا وصل الى بيروت ، احتشدت الجماهير في الساحات والشرفات ، وعلى سطوح الابنيـــة تنظر الى الامير واقفاً في السيارة ، متمنطقاً بالاسلحة التي ما فارقته مدة الازمـــة كلها ، ومظاهر البهجة والفرح على وجوه الجميع ، واصوات الهتافات تشق عنان الجو ، حتى وصل الى السراي ، فاستقبله رئيس الحكومة معانقاً . ثم صعد الى ديوان الرئاسة ، فاخذه فخامة الرئيس بشاره الخوري بـــين ذراعيه ، وعانقه طويلاً . وما كان من الامير الباسل الا ان خلع عنـه اسلحته ، ووضعهـــا تحت تصرف الرئيس الجليل .

— ٨ —

العهد امانة في مبادىء الاحرار

والآن ارى من واجبي ارسال تحية خالصة صادقة الى الشعب اللبناني ، الذي برهن في محنته هذه ، على وعي قومي رائع ، ووطنية ملتهبة صادقة . لقد صور المغرضون لبنـان بابشع الصور ، واتهموه بالضعف والخنوع ، وانتووا استبقـــاءه تحت ظل الاستعمار والاستعباد . لقد ارادوه في قبضـة يدهم ، يتحكمون بمقدراته ، ويخنقون صوته ، اذا رفعه شاكياً آلامه ، عاملاً عـلى تحقيق آماله واحلامه . فكانت ساعة الشر ، عندما امتدت يـــد القوة الظالمة

الغاشمة ، الى رؤسائه ، وزعمائه ، ودستوره ، قصدوا بهـــا ان يقضوا على قدسية حقه وحريته وآماله . غير ان شرهم انقلب عليهم عندما تفجر بركان غضبه ، واندلعت نيران ثورته الكامنة ، وظهر لبنان بحقيقته الناصعة البيضـــاء ، يأبى الذل والهوان ، ولا يرضى باقل مما تتمتع به الامم المستقلة الحرة . تباركت هذه المحنـــة التي وحـدت الصفوف ، وجمعت القلوب ، وابادت التحاسد والتنافر ، وقضت على روح التفرقـة والشقاق ، فكان الظفر للبنان والخذلان لمن ارادوا الايقاع به ، وبكرامته واستقلاله ، هـذا الاستقلال الذي دفعنا ثمنـه من دماء شهدائنا ، واقتنصناه من مخالب اخصامنا واعدائنا . واذا كان لنـــا من كلمة نقولها للامم الظافرة ، يوم الحساب ، نقولها عالياً ، مستصرخين وجدان الامم الديموقراطية الحرة ، لاحترام الحريات والاعتراف بحقوق الشعوب ، وفقـــاً للمبادىء التي اعلنوها يوم امتشقوا الحسام بوجه الطغيان ، وبادلناهم العهد عليها ، والعهد امانة في اعناق المتعاهدين .

الفصل الثامن

بعد الثورة

« ملحق رقم : ٢ »

— ١ —

احتفالات ومهرجانات

بعد هدوء العاصفة الثورية، ورجوع الآلة الحكومية الى ما كانت عليه قبل ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ ، استقر الوضع الاستقلالي في البلاد . وقد تواصلت موجات الفرح والابتهاج الى ايام واسابيع ، متجلية في حفلات واعياد تستعيدها شتى المناسبات. وقد كانت ابرزها زيارة البعثة الملكية المصرية ، التي اوفدها جلالة ملك مصر الى فخامة رئيس الجمهورية برئاسة كبير الياوران الفريق عمر فتحي باشا . هذه البعثة التي جاءت ، تعرب عن ابتهاج الفاروق المحبوب بخروج لبنان من محنته ظافراً . وقد بقيت البعثة الملكية موضع حفاوة لبنان ، حكومة وشعباً ، طيلة اقامتها في ربوعنا التي دامت مدة اسبوع كامل ، واستطاع في اثنائه لبنان ان يظهر تقديره للقطر الشقيق ، ويعبر عن ولائه للعاهل الشاب الذي هبّ لنصرته ايام نزلت به النكبة ، دون ان تقيده قيود العرش ، او

ينال من سعيه بروتوكول البلاط . اسبوع من اسابيع العيد ، تصافح فيه العلمان المصري واللبناني ، بينما كانت هتافات اللبنانيين تتعالى ، لمصر ولمليكها ولشعبها .

ثم كانت رد الزيارة الى مصر . عندما حمل رياض بك الصلح ورفاقه الى الفاروق ، اصدق عواطف الشكر والودّ والامتنان ، من هذا البلد المشهور بعرفان الجميل . فلاقى وفدنا في القطر الشقيق من عطف المليك ومن ولاء الشعب المصري ما يسجله لبنان في تاريخه . وقد كانت بادرة تجلت فيها الروعة ، عندما غرس رئيس الوفد في ساحة قصر عابدين العامر ، شجيرة من الارز الخالد ، عربوناً صادقاً لتآخي القطرين العزيزين .

— ٢ —

بين الخصمين

وكان من المترتب على الجانب الفرنسي ، بعد استقرار الحالة ، ان يبادر الى تسليم الحكومة الوطنية جميع الصلاحيات التي كان يقوم بها الانتداب . فشرعت الحكومة في القيام بهذا العمل الذي يقيت البلاد تنتظره سنوات عدة . ولم يتوانَ الجانب الفرنسي عن اظهار استعداده المشكور في هذا السبيل . وكان على رأس المندوبية في هذا الحين السيد « شاتينو » الذي تذكر له البلاد مزاياه الطيبة ، وتقدر له موقفه في اثناء حوادث تشرين الفاجعة ، عندما كان سكرتيراً عاماً للمندوبية في عهد « هيللو » المشؤوم . ان

البلاد التي تذكر الحسنات ، كما تذكر السيئات ، لا يسعها الا ان تذكر لهذا الرجل النبيل ، صفاته الطيبة ، واخلاقه الكريمة .

توالت بروتوكولات التسلم والتسليم ، من المصالح المشتركة ، الى الشركات ذوات الامتياز ، الى ادارة المراقبة ، الى مصلحة الفنارات والجوازات الخ . ولم يتشبث الجانب الفرنسي بامر ما سوى الامور العسكرية ، وامن عام الجيش . اذ ادعى ان هذه الامور يجب ان تبقى في يديه طوال مدة الحرب . وايدته بذلك السلطة الانكليزية ، وقبلت السلطة الوطنية . وهنا لا بد من ملاحظة على الهامش اقولها بصراحة ، وهي : ان الجانب الوطني كان سكراناً بخمرة الظفر ، غير انه كان قليل الخبرة في هذه التدبيرات الدولية ، يبزّه فيها الجانب الفرنسي . ولذلك كان في البروتوكولات ، التي حفظت للجانب الفرنسي هذه الحقوق ، كثير من الابهام ، حرم السلطة الوطنية من حقوق كانت اولى بها لو هي اعتمدت الخبراء في المحادثات التي جرت بين الطرفين . ولكن هي الحماسة ، وحسن القصد ، والنية ، وضعف الحنكة السياسية ، مما ترك المجال مفتوحاً لسوء التفاهم الذي كانت تصطدم به العلاقات بين الجانبين من وقت الى آخر .

— ٣ —

٢٧ نيسان

وكان يوم ٢٧ نيسان . وهو يوم دخول النائب يوسف كرم

الى المجلس . والسيد يوسف كرم أنتخب نائباً عن الشمال بانتخاب فرعي ، خلفاً للمرحوم وهيب جعجع المتوفي . فكان لانتخابه ضجة كبيرة لكونه ينتمي الى كتلة معارضة للحكومة القائمة . ولذلك اتخذ المعارضون هـذا الحادث وسيلة للقيام بمظاهرة ، لا تخلو من التحدي والاستفزاز . ويوسف كرم هـذا ، حفيد يوسف كرم الشهيـد ، يأتي الى بيروت في رتل من السيارات ، يحمل ركابها الرايات الفرنسية ، معلنين بذلك عداءهم للوضع الجديد ، وللرجال القائمين عليه . انه من باب الترجيح ، ان يوسف كرم نفسه ، كان بعيداً عن هذه النية . هذا ما اعلنه بنفسه قبل مغادرته طرابلس ، وهذا ما قاله بعد دخوله المجلس . ولكن المستغلين ابوا ان تفوتهم هـذه السانحة ، فارادوا ان يلهبوا ناراً تحت الرماد ، واتخذت الحكومة الحيطة ، ولكنها كانت في اجراءاتها مترددة ، فما وصل الموكب الى مدخل البرلمان ، حتى هجم القوم الى داخله محاولين انزال العلم اللبناني الجديد ، ورفع العلم الفرنسي محله ، وظهر شاب بثياب عسكري ، يعتلي اكتاف الجماهير ، ليعلق هـذا العلم ، فحصلت الضوضاء ، ولعلع الرصاص ، فاصيب عدد بجراح مختلفة ، وقتل بضعة منهم . ثم رؤي هذا الجندي الغريب يتجندل من علُ ، اذ اطلقت عليه رصاصة من يد شاب وطني قيل انه «نعيم مغبغب» . بعد ان كان نعيم ، قد اصيب هو ايضاً ، برصاصة في عنقه من يد احد الخائنين . ولكن نعيما ، البطل الذي قاد مفرزة بشامون في حوادث تشرين ، لم يكترث لجراحه وللدماء السائلة من عنقه ، فبقي في صميم المعركة مستهزءاً بالخطر ، حتى اضطره اصدقاؤه

والمعجبون به للذهاب ، كرهاً عنه ، الى المستشفى الاميركي . ثم تدخلت قوى الامن وفرقت المتظاهرين ، واهتاج النواب ، وارتفعت اصوات الاحتجاج ، واختلط الحابل بالنابل ، وخطب رئيس الحكومة متوعداً ومتهماً مرجعاً فرنسياً كبيراً بالاشتراك بهذه المؤامرة .

وفي اليوم التالي احيلت القضية الى المجلس العدلي ، واقيمت التحقيقات ، فكان ان غضب الجانب الفرنسي من التهم التي وجهت اليه رسمياً من رئيس الحكومة ، والتي لم يتبين صحتها عدلياً ، وذلك عندما تدخلت مراجع كثيرة وطنية واجنبية بهذا التحقيق . ثم اسدل الستار على هذه القضية التي بدأت كبيرة وانتهت صغيرة . واكتفي بسجن نفر قليل من المسبّبين . وبقي الجانب الفرنسي ، مصراً على طلب محاكمة الوطني نعيم مغبغب ، بالرغم من تساهل الجانب الوطني مع الطرف الآخر . وبعد مرور شهرين القي القبض على نعيم من قبل السلطة الفرنسية ، وحاكمته في محكمتها العسكرية وقضت بسجنه ستة عشر شهراً .

لقد تركت حادثة ٢٧ نيسان اثراً سيئاً في البلاد ، اذ كانت بدء المحاولات التي قام بها الفرنسيون وعملاؤهم للرجوع الى الوضع القديم . ومما لا شك فيه ان اتهام رئيس الحكومة رياض الصلح للجانب الفرنسي في جلسة المجلس ، ادت الى اضعاف مركزه تجاه الاوضاع الدولية . ومما لا شك فيه ايضاً ، ان محاولته اصلاح هذا الطابق كانت سبباً لضياع هيبة الحكومة تجاه تصميم الجانب

الفرنسي على متابعة توجيه سياسة التفرقة والتسويف . هذه السياسة الذي كان اول ضحاياها نعيم مغبغب. ثم المماطلة في قيام الاستقرار، فظل الفرنسيون وزبانتهم يواصلون دعاياتهم ضد الوضع الاستقلالي، ويذكون روح التفرقة بين ابناء البلاد .

— ٤ —

فوضى في داخل البيت

وكانت الايام تمرّ ، وتتوالى حوادث لا تخلو من القـــلق . وتكاثرت هواجس المتخوفين،وراجت اشاعات من قبل الدساسين، وساعدت الارتباكات الحاصلة في الادارة الداخلية هذه الحال ، اذ فسحت هـــذه مجالا للدسائس والمشاغبات ، واصوات الاستنكار ترتفع من هنا ومن هناك . فالحكومة التي الهتها التطورات الخارجية عن عملها الاداري،اصيبت بداء الاهمال والاستهتار، فعمت الفوضى الدوائر . وظهر سوء الاستعمال في بعضها ، لا سيما في دوائر الاعاشة والتموين . وفعلت المحسوبية فعلها الشنيع . وهي داء متغلغل في جسم البلاد في عهودها كلها ، وضعفت هيبة الحكام ، وكثر عـدد الغاضبين « الحردانين » . وحل التشاؤم محل التفاؤل في صـــدور ضعيفي الايمان ، فكان اخصام العهد يستغلون هـذه الروح ، وكان يعم خطر لولا ان هناك رسوخاً في العقيدة الاستقلالية ، في قلوب المخلصين المجاهدين . انها لفترة صعبة ، هذه التي مرت على البـلاد . الاحكام فوضى ، والمحسوبية متفشية ، وسوء الاستعمال لا يقف عند

حد ، والهيبة الحكومية في تضاؤل متزايد . واشاعات السوء يثيرها الدساسون والمشاغبون . ان لكل انقـــلاب حسناته وسيئاته ، والقائد الحكيم يعرف كيف يستفيد من الحسنات ويأمن من شطط السيئات . غير ان القيادة لم تكن سهلة . والقادة كانت تنقصهم الخبرة والحنكة . ونحن لا يسعنا ان نتهمهم بسوء النيـة والقصد . ولكن هل يقول قولنا اولئك الذين لا همّ لهم الا الكيد لهذا الوضع الاستقلالي الجديد ؟ !

— ٥ —

باريس تتحرر

وفي هذه الفترة الحائرة كانت اخبـــار الحرب تبشر بانتصار الحلفاء. وغزت الجيوش الحليفة فرنسا وطهرتها من المحتلين الالمان ، وتحررت مدينـة باريس من مغتصبيها الاشرار . فكان لهذا التحرر رنـة فرح في لبنان . واني استطيع القول باخلاص وتأكيد ان ما من لبناني واحد الا وامتلأ قلبه فرحاً لهـذا التحرر المجيد . باريس مدينة النور والحرية . باريس قبلة الحضارة والتمدن . باريس معقل الفكر وموطن العظمة والامجاد . باريس مدينـــة العالم وعاصمة الدنيا . باريس التي اذلها الغاصب مدة سنوات ثلاث . باريس هذه من لا يفرح لخلاصها . واي لبناني مهما كان لونه السياسي لا يعيّـد يوم انبلج عليها فجر التحرر والنجاة ؟ ان كثيرين من اللبنانيين ، ان لم اقل كل اللبنانيين ، كانوا يتألمون من عهد الانتداب والتحكم

الاستعماري ، يوم كان الموظفون الفرنسيون يسيئون الى لبنان ، والى انفسهم ، والى فرنسا نفسها . ولكن اللبناني الحكيم العاقل لا يخلط هذا بذاك . وهو اذا ابتغى الحرية لنفسه فهو لا ينكرها على غيره من الناس .

ولكن هناك فئة ارادت ان تتخذ من تحرر باريس وسيلة للتشفي والانتقام . فعمد رجالها الى اقامة المظاهرات الاستفزازية ، كأنما ، والله ، باريس لهم وحدهم . فكان لعمل اولئك الغيورين المصطنعين ، تأثير مؤسف في البلاد . هم ارادوا ان يتظاهروا بالاخلاص والتفاني للمراجع الفرنسية . ولكن هذه المراجع ذاتها احتقرتهم في دخيلة نفسها ، وان جاملتهم في ظاهرها . والظواهر شيء ، والدواخل شيء آخر . والامور في حقيقتها لا في مظاهرها .

— ٦ —

عيد الاستقلال

ثم كان يوم ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، الذي كانت قررته الحكومة ، عيداً وطنياً للبنان . هو يوم تاريخي ، هذا اليوم الذي رفع فيه العلم اللبناني الجديد ، للمرة الاولى ، على دور الحكومة كلها . وهو اليوم الذي عاد فيه المعتقلون من راشيا ، والمجاهدون من بشامون . فاحتفلت فيه الحكومة والشعب احتفالات كثيرة متعددة . وقدم وزراء الدول الاجنبية يعايدون رئيس الجمهورية والحكومة . وكان في طليعة المهنئين الجنرال بينه مندوب فرنسا

الحرة . فقطع بعمله هـذا ألسنة النمامين الذين ارادوا ان يظهروا للشعب اللبناني ان فرنسا لم تعترف باستقلال لبنان كما اراده شعبه . وكانت طعنة نجلاء في صدورهم ، وخيبة في احلامهم وآمالهم ، اذا افاقوا فترة فلينثروا الاشاعات المختلفـة ليعكروا الجو . ولكن القافـلة تمشي . والامور تجري في مسيرها الطبيعي ، بالرغم من محاولات يقوم بها البعض ، لاحباط مساعي المخلصين ، واكثرها شراً ، الضرب على الوتر الطائفي ، يزرعون بذور التعصب بـين المسيحيين والمسلمين ، يخيفون اولئك من هؤلاء ، ويحركون اولئك على هؤلاء . كل ذلك لكي يحدثوا في البلاد بلبلة وقلقاً ، وليخدموا اغراضهم وغاياتهم . ومع ان هذه المحاولات لم تكن عديمـة الاثر السيء احياناً ، ولكن العقيدة الاستقلالية الراسخة في البـلاد ، كانت تقوى عليها . والنتيجة دوماً في صالح اصحـاب العقيدة والايمـان .

— ٧ —

احاديث المعاهدة

وهنا لا بـد من الاشارة الى امر له ، من الاهمية والخطورة ، مكان مرموق . قال الجانب الفرنسي : ان الانتداب لا ينتهي عن لبنان الا بعـد معاهدة مع فرنسا . وقال الجانب اللبناني : ان الانتداب قد انتهى دون شرط ، وانا لا اريد ان اتقيد بمعاهدة . وكانت تصاريح المراجع الانكليزية تارة مبهمـة ، وطوراً ملتوية .

ومن الصعب ان يفهم احد حقيقة تصاريح الساسة الانكليز . واعرب الاميركيون ، والسوفيات ، عن وجهة نظرهم في استقلال لبنان دون قيد او شرط . فكانت هناك محاولات لاقناع هذا الجانب او ذاك ، وكل منهما متمسك بوجهة نظره . واذا كان لا بد من ايضاح هذا الامر ، فاقوله دون تحيز او غرض .

ان لبنان لا يريد الا الاستقلال الكامل والسيادة التامة . وهو يريد ان يعيش مع جيرانه ، من الاقطار العربية ، على اتم وفاق وتفاهم ، دون ان يكون من وراء ذلك اي مساس باستقلاله . وقد قبلت بذلك ، واعلنته مراراً وتكراراً الدول العربية كافة ، اما من حيث علاقته مع الغرب ، فليس من الحكمة في شيء ان تسوّى هذه العلاقات قبل ان تنتهي الحرب ، وتسرح جيوشها من الاراضي اللبنانية ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، يصح وضع الاتفاقات دون ضغط او اكراه .

لقد عتب الفرنسيون على اللبنانيين انهم تنكروا لهم يوم هوى بهم القدر ونزلت عليهم النازلة . واتهموهم انهم يتقربون الى الانكليز انتقاماً منهم . ولكنهم سامحهم الله مخطئون ، فاللبناني لا يبيع صداقة فرنسا ليشتري صداقة غيرها . ولبنان لا يريد ان يستبدل بمستعمر مستعمراً آخر . هذا ما يجب ان يفهمه الفرنسيون . وهم على خطأ كبير اذا ظنوا ان لبنان يريد التخلص منهم ليرتمي في احضان غيرهم كائناً من كان . فنحن الذين خبرنا الاستعمار ، وتذوقنا مرارته منذ اجيال ، لا نرغب الا في ان نكون احراراً

واسياداً في بلادنا . انما هذا لا يعني اننا نناصب الغرب العداء . ونحن اقرب الناس الى مدّ يد التفاهم والمساعدة المتبادلة معه . ان مركزنا الجغرافي يتطلب ذلك ، وثقافتنا تسهّل هذا التفاهم ، وصلاتنا القديمة والحديثة تربطنا بثقافته ومدنيته . ولكننا نريد ان لا يكون هناك اي اتفاق ينتقص من حقوقنا وسيادتنا . وقد كان لنا من التجارب الماضية دروس يجب ان نتعظ بها . ولهذا نرغب في ان يكون اي اتفاق يعقد معنا اتفاق الند للند ، ومثل هذا الاتفاق لا يكون كذلك اذا عقد في هذه الظروف الاستثنائية ، وكل اتفاق يعقد قبل ان تضع الحرب اوزارها ، سيكون نصيبه الفشل المحتوم . ان العالم يتخبط في ديجور من الظلام الحالك . والنور لا يأتي من الظلام . اذن لننتظر انبلاج الفجر لنستعين بنور النهار . ولعل الناظر الحكيم لا يفوته ان يلمح في لبنان ميولا ثلاثة يصبو اليها ، وهي :

١) انه يريد استقلالا تاماً ناجزاً وسيادة وطنية كاملة .

٢) انه يريد التعاون والتفاهم مع الاقطار العربية المجاورة .

٣) انه يريد الا يكون بينه وبين الغرب قطيعة . وهو يرى في علاقته مع الغرب ضمانة لحياته ، شرط ان لا يكون في هذه العلاقة باب للاستعمار او الحماية او الانتداب .

هذا ما يريده لبنان ، وهذا ما يريد ان يكون اساساً لعلاقته مع دول الغرب كلها .

— ٨ —

بروتوكول الاسكندرية

وفي هذه الاثناء ، تطورت الحالة السياسية في لبنان والاقطار العربية ، ورأت هذه الاقطار ان تباعدها في الماضي كان سبباً لضعفها وتمكين سلطة الاستعمار عليها ، ورأى لبنان ايضاً ان اتجاهه الى الغرب ونفوره من الشرق اضعف منزلته في عين الاول ، وجعل الثاني ينظر اليه بقلق وحذر . فكانت النتيجة ان توطد فيه نفوذ السلطات الاجنبية الاستعمارية ، فاتخذت من هذا سبيلاً لاغراضها فيه ، وفيما جاوره من الاقطار . وكان ان ايقن لبنان ان مصيره معلق بمصير اخوانه واشقائه في هذا الشرق العربي ، فما ان رأى اتجاه البلدان العربية للتكتل ، حتى بادر الى الانحياز الى جانبها ، ومال الى الدخول في مصفها ، وعندما قامت الدعوة لمؤتمر يعقد في الاسكندرية تجتمع فيه حكومات سوريا والعراق ومصر والحجاز واليمن ، كان لبنان من الذين قبلوا الاشتراك به . واستقبلت هذه الاقطار لبنان استقبال الاخ لاخيه . فكان المؤتمر الذي اسفر عن عقد (بروتوكول) اطلق عليه اسم بروتوكول الاسكندرية . وخرج المؤتمرون بفكرة « الجامعة العربية » مؤلفة من هذه البلدان . غايتها وضع اسس للتعاون بينها في الامور كلها ، مع حفظ وتأييد استقلال كل دولة منها . فالجامعة العربية عبارة عن عصبة من اقطار شقيقة تحترم كل منها استقلال اخواتها وسيادتها الكاملة ، متوخية التعاون الوثيق

فيما بينها ، مستعدة لدفع اي ضيم يلحق بواحدة منها . ولبنان ، الذي لا ينكر احد مزاياه الثقافية وتقربه من المدنية الغربية، لا يستطيع احد ان يقعده عن الفكرة العربية . فلغته هي لغة العرب ، ومصلحته تماشي مصلحتهم ، وجغرافيته تلامس جغرافيتهم ، وتاريخه متماسك مع تاريخهم ، وصلة القربى والرحم تقيم بينهم رابطة لا تنفصم . وما هذه الفروقات التي تباعد بينهم الا من صنع المستعمرين ، فلا المسيحية هي التي تجعل منه اجنبياً ، ولا الاسلام هو الذي يقلل من رغبته في التوسع في المدنية والثقافة التي اكتسبها من احتكاكه مع الغرب . ولبنان في مركزه ، وفي اتصاله بمدنية الغرب ، وفي محافظته على تقاليده وعاداته العربية ، يستطيع ان يكون ملتقى الحضارتين ، وبوسعه ان يتزعم حضارة جديدة ينشرها في هذا العالم العربي ، فيساعد على السير بهذه البقعة العزيزة الى استعادة امجادها الغابرة .

ولكن بروتوكول الاسكندرية لم يرق لاولئك الذين يرغبون في ان يجعلوا من لبنان بلداً « متأجنباً » منعزلا على نفسه ، متباعداً عن اي تعاون او تحالف مع الاقطار العربية . وكان المتنكرون لهذا البروتوكول فئتين . فئة ضئيلة تأتمر بامر السلطة الفرنسية ، وتساير رغباتها . والفرنسيون هالهم ان تتكتل الدول العربية ، وان يكون لبنان عضواً في هذا التكتل ، اذ انهم يرون في ذلك اخفاقاً لسياستهم الاستعمارية في هذه الزاوية من الشرق ، القائمة على حقوق يدعونها في سوريا ولبنان ، وتقاليد موروثة هي حماية المسيحيين كما يقولون ، وصداقات قديمة اتخذوها سبيلاً لبسط

سيطرتهم على هذه البلاد . اما الفئة الثانية ، فقد كان نفورها من بروتوكول الاسكندرية ، ناتجاً عن تخوفها من ان تسيطر على هذه الجامعة الفكرة الاسلامية ، فيصبح المسيحيون ، وهم اقلية في العالم العربي ، تحت رحمة المسلمين . وهذه الفئة السائرة الى تضاؤل مستمر هي من بقايا العناصر القديمة المسيحية التي لا تزال تذكر ايام كانت السياسة العثمانية مرتكزة على مساندة المسلمين واضطهاد المسيحيين. فكانت هذه الفئة تستعيد ذكرياتها السالفة . وفاتها الادراك ان تلك السياسة الدينية التي اتبعتها الدولة العثمانية ، ويتبعها الاستعمار، ما كانت الا لايجاد التفرقة والشقاق بين ابناء الامة الواحدة ، لتمكن المستعمر من بلوغ اهدافه وسيادته عليها . وبالرغم من ان اولئك المتخوفين يقرون بان هناك تطوراً جديداً ، ووعياً قومياً ملموساً ، غير ان بعضهم لا يزال يساوره القلق ، ويراوده شيء من الحذر . واذا سألت عن افراد هذه الفئة فانك تجدهم ، والحمد لله ، بين الذين امسوا في عصر الحياة او في عشيتها ، يمشون الى مغادرة هذه الدنيا تاركين مصير البلاد ومقدراتها في ايدي ابنائهم الذين يرون غير رأيهم ، والذين يحاربون الجمود ، ويماشون التطور ، ويطمحون الى الخلود .

وقد ايدت المراجع الرسمية كلها بروتوكول الاسكندرية ، كما ايدته اكثرية الهيئات الشعبية . وتمثل لبنان في اجتماعات المؤتمر بمندوبيه الذين كان لهم الرأي الاول في وضع الاتفاقات والقوانين . وقد ايد جميع المؤتمرين نظريات المندوبين اللبنانيين ، واسمعوا صوتهم عالياً باحترامهم استقلال لبنان استقلالا كاملاً ،

واستعدادهم للوقوف بجانبه اذا ما تصدى احد لسيادته وحقوقه .
وظهر لبنان بوجهه الحقيقي اخاً عزيزاً في عيلة الشعوب العربية .
ولبنان الذي يعترف له الغريب والقريب بالتفوق الثقافي والعلمي والجغرافي والتاريخي . لبنان الذي لم يترك ابناؤه بقعة من بقاع الدنيا الا جابوها ، واختلطوا بسكانها على مختلف اجناسهم والوانهم ، وضربوا الرقم القياسي في نشاطهم ومغامراتهم . لبنان هذا لا يخشى ان ينضم الى كتلة من الاقطار العربية ، اذا جاز لنا ان ننظر الى مستقبلها فنقول ، دون تبجح او غرور وطني : انه سيكون للبنان فيها المركز الاول ، لما يعرف في اللبناني من ميل واستعداد للتفوق والتطور الثقافي والفكري والاقتصادي .

غير ان « البروتوكول » تحول فيما بعد الى « ميثاق » بعد ان تعدلت بعض النصوص التي ظن فيها البعض ، في لبنان ، وفي غير لبنان ، مساساً باستقلال هذه الاقطار . فلم يكن لبنان وحده سبباً لهذا التعديل . بل هناك العراق والمملكة السعودية . فاتى الميثاق خالياً من بعض الضمانات الموجودة في البروتوكول . ولكن بالرغم مما وجه الى المؤتمرين ، الذين قاموا بتعديل البروتوكول من الانتقادات ، فان الميثاق ابقى على روح التفاهم والتقارب بين مختلف الاقطار العربية . وهذه خطوة مرموقة ومباركة يتخذها العرب اساساً لنهضتهم ومجابهتهم التطورات العالمية الجديدة .

— ٩ —

يقظة الرجعية الوطنية

لقـــد بقيت العلاقات اللبنانية الفرنسية والسورية الفرنسية ، بحالة مترجرجة طوال مدة الحرب. وبات اللبنانيون ينتظرون انتهاء القتال في اوروبا ، على امل ان يأتيهم نصر الحلفـــاء بالاستقرار المنشود . وظل الفرنسيون يجهدون قواهم لتثبيت نفوذهم وتقوية مركزهم في البلاد . واسرفوا في مخصصات الدعاية اسرافاً هائلاً . فقيل ان ميزانيتهم بلغت ملياري فرنك في السنة . وقال البعض ثلاثـة مليارات . يوزعونها على الانصـــار وعلى بعض الجرائد والمؤسسات . ولما كانت بروتوكولات التصفية التي وضعت بـــين السلطات الفرنسية والسلطات الوطنية ، قد ابقت للفرنسيين دائرة الامن العـــام للجيش ، فقد اتخذ اولئك منها سبيلاً للوصول الى غرضهم . فحشدوا في هذه الدائرة المئات من المتعيّشين ، يبعثرونهم في مختلف الاوساط والمناطق ليبثوا الدعاية لفرنسا . ومن المؤسف ان اولئك الدعاة المأجورين ما كانوا يتورعون عن بث روح التفرقة بـين الناس بقصد تمزيق الصفوف ، واحداث القلق والبلبلة . ومما يؤسف له اكثر واكثر ، ان هذا النشاط كان متمركزاً في الاوساط المسيحية ان في العاصمة او في الجبل . كانت النغمة واحدة ، وهي ان لبنان وطن قومي غير عربي . ينتسب الى الفينيقية والى شعوب البحر المتوسط المنقرضة . وان المسيحيين يجب ان يحذروا من

المسلمين ومن البلدان العربية . وان الذين يقولون بالتعاون العربي ويحبذون ميثاق الجامعة العربيـــة هم مباعون للعرب ، وان المسيحيين لا حياة لهم في هذا البلد بدون حماية فرنسا . وان لبنان يمتاز بثقافته عن الاقطار العربية . هـــذه الثقافة التي اكتسبها من الغرب ، ولا سيما من الثقافة الفرنسية . اذن عليه ان يحتفظ بصبغته الخاصة ولو آلت به الى العزلة .

وسط هذه الحالة المحلية القلقة ، اعلن الاقطاب الثلاثة الكبار : « ستالين » و« تشرشل » و« ترومان » الذي حل في البيت الابيض على اثر وفاة « روزفلت » تسليم المانيا وانتهاء الحرب الاوروبية . فشمل الفرح جميع اقطـــار المعمور . واحتفل لبنان احتفالات عظيمة . واعلنت حكومته دوام الاحتفالات مـدة خمسة ايام . فما كان من الفرنسيين الا ان اتخذوا من هذه الفرصة سبيلاً لدعايتهم . وكانت مظاهراتهم تحدياً واستفزازاً لشعور الوطنيـــين . اذ انهم كانوا يسيّرون سياراتهم الكبيرة محشوة من الصبيـــة والرعاع والمأجورين ، ينادون نداءات مختلفة ومثيرة ، هاك امثلة منهـا : « نحن رجالك يا ده غول » « البـــلاد بلادك يا ده غول » وكانت زيناتهم على بيوتهم ومؤسساتهم تحمل الاعلام الفرنسية دون سواها ، ولم يرتفع العلم اللبناني الا على الدور الرسمية فقط ، واذا رفع العلم اللبناني فيكون رفعه بصورة مصغرة تطغى عليـــه اعلام فرنسية وديغولية . ولم تكن مظاهراتهم تحدياً للبنان فقط ، بل تعدتها الى السلطة البريطانية بصورة خاصة . فكثيراً ما انزلوا العلم البريطاني عن بيوت الوطنيين الذين ارادوا مجاملة الحلفاء برفعهم اعلامهم كلها

مع العلم اللبناني . ولم تخلُ هـــذه المظاهرات من حوادث مؤسفة كانت نتيجة لهذا التحدي، وقع اثناءها عدد من الجرحى، حتى اضطرت الحكومة ان توجه احتجاجاً او بالاحرى انـذاراً الى السلطة الفرنسية . وقد كان موقف الحكومة موقفاً مشرفاً استحقت عليه شكر الاوساط الوطنية. اما المظاهرات الفرنسية التي صرف عليها، على ما يقال ، خمسمائة الف ليرة بهذين اليومين فقط. فقد كانت جد سخيفة. صبية يجمعونهم من هنا ومن هناك. ومستخدمون يشتغلون في المؤسسات الفرنسية ينطلقون في السيارات ينادون نداءات مختلفة، كأن اولئك الصبية هم الذين يرفعون هـذا الزعيم وينزلون ذاك . وقد اظهرت الجاليات الاجنبية كلها اشمئزازها منهـا . وبالرغم من ان هذه كانت بقصد بلبلة الصفوف غـير ان الوعي اللبناني احبطها وباءت بفشل ذريع .

— ١٠ —

حوادث سوريا

وفي هذه الاثناء اعلن راديو باريس ان الجنرال « بينه » ، المندوب الفرنسي ، عائد الى مركزه بعـد ان تلقى تعليمات رئيسه باجراء المفاوضات مع حكومتي سوريا ولبنان، على اساس استقلال البلدين مع المحافظة على حقوق فرنسا: الثقافية والاقتصادية والستراتجية. ومع ان المفاوضات تتطلب تهيئة الجو السياسي ، غير ان الفرنسيين ارادوا ان يجهموا الجو ملوحين بشيء من التهديـــد . فجلبوا

طابوراً من السنغاليين في هذه الاثناء، استقبلته البلاد بالاحتجاج، حتى ان الحكومة ابلغت احتجاجها الرسمي الى المندوب الفرنسي، والى الجيش البريطاني التاسع، والى المراجع الدولية كافة. وهاج نواب الامة في جلسة البرلمان. وصرح رئيس الحكومة عبد الحميد كرامه ان البلاد ترد على هذا التحدي الذي لن ينال منها منالا. وقال ان البلاد لن تجري اية مفاوضة تحت التهويل والتهديد. وهي لن تقبل باية معاهدة، كما انها لن تعطي اي مركز ممتاز لفرنسا، معتمدة على حقها في الاستقلال وعلى اعتراف الدول كلها بـه. ثم قال بصراحة امتاز بها عبد الحميد كرامه: «ان لبنان يدافع ويضحي بكل غال وثمين عن حقه الذي تقره عليه مبادىء الحلفاء. واذا، لا سمح الله، رضي اولئك باي انتقاص بحقوق هذه البـــلاد المستقلة، فان اربعين مليوناً من العرب لا يتوانون لحظـــة عن نصرة اخوانهم اللبنانيين.»

ولكن الفرنسيين الذين تعودوا ان يستهتروا بارادة اهل البلاد، واصلوا الطريق التي ساروا فيها. واستقدموا فرقة ثانية من الجيش في اليوم الثاني لوصول الجنرال بينه. وكان هذا قد تقدم بمشروعه الى الحكومتين. فتجهم الجو في لبنـــان وفي سوريا. ورفض المفاوضون اللبنانيون والسوريون الدخول في اية مفاوضة مع الجانب الفرنسي. وتظاهر البلدان. وحدثت بعض اعمال عدوانية من هـــذا الجانب ومن ذاك لم تخلُ من بعض العنف. وكان الفرنسيون وعملاؤهم وابواقهم يلوحون بالتهويل والتهديد. وكان «ده غول» و «بيدو» وجميع المسؤولين الفرنسيين يدلون بالتصريح

تلو التصريح ، ان فرنسا لن تتنازل عن حقوقها في سوريا ولبنان . فكان السوريون واللبنانيون يردون بالمظاهرات وبالاضرابات وبالاحتجاجات ترفع لجميع الدول الحليفة . وكان من الطبيعي ان تقع بضعة حوادث سببها الاول استفزاز الفرنسيين للشعور الوطني. حتى كان يوم ٢٩ ايار سنة ١٩٤٥ فقام الفرنسيون بهجومهم على دار البرلمان السوري ، فهدموه وبعثروا اوراقه ، وسرقوا المال من خزائنه ، وقتلوا الدرك السوري الموكول اليه المحافظة عليه ، عندما جرب اولئك الدركيون ، وعددهم اربعة وعشرون ، ان يدافعوا عن البرلمان . حتى ان الذين سلموا من اولئك قطعوهم ارباً ارباً منزلين بهم فظائع لم يرو التاريخ لها مثيلاً .

وكأن الهجوم على البرلمان كان علامة بدء المعركة . فحلقت طائرة فرنسية في جو دمشق . واخذت تمطر بقنابلها الاحياء الدمشقية ، بينما كانت بطارية البر تقصف المدينة قصفاً مرعباً . فتهدمت شوارع باكملها . وتخربت بيوت على ساكنيها . وكان افظع شيء ، ضرب القلعة ، محل السجن العام ، وحيث يسكن المساجين . فقد تذرع الفرنسيون المتوحشون بوجود الدرك في السجن فأخذوا يضربونه ، فقتل من اولئك المساكين المعزولين مائتا مسجون . وما ان فتحت ابواب السجن حتى كان قد وصل جيش الاستعمار ، واخذ يمعن ذبحاً وتقطيعاً بمن بقي منهم هناك . وحشية ما توصل الى شيء مثلها ، لا هتلر ، ولا ميسوليني ، ولا جنكيزخان ، ولا نيرون ، ولا احد طغاة التاريخ .

وبقي الفرنسيون يومي ٣٠ و٣١ ايار يقومون باعمال «البطولة»

الهمجية في دمشق . يدخلون البيوت ، والفنادق ، والمستشفيات — نعم المستشفيات — فيلقون الذعر في المدنيين، ويقتلون من يجرؤ على مشاحنتهم ، وينكلون بمن سولته نفسه الدفاع ، ويسلبون ما وصلت اليه ايديهم من مال او مجوهرات . حتى انهم عندما دخلوا فندق اوريان بالاس حيث ينزل كبار الناس ، ومزقوا اثاثه ومحتوياته ، وخربوا ما استطاعوا ، وصلوا الى قاعة علق على جدارها رسم لرئيس الجمهورية ، اخذ ضابطهم « البطل » مسدسه وافرغ خمس رصاصات في الرسم . هؤلاء الفرنسيون الذين كانوا اجبن الناس بتسليمهم فرنسا للغاصب الالماني ، والذين سيذكر لهم التاريخ هزيمتهم الشنعاء ورضوخهم للذل والاستعباد ، والذين ظلوا طوال خمس سنوات تحت اقدام هتلر يعفرون وجوههم امامه وامام عماله ، هؤلاء الفرنسيون رأوا في دمشق ، وفي حماه ، وفي حمص ، وفي حلب ، مجالا لاظهار بطولتهم . ولماذا لا ، فهذه مدن آمنة عزلاء يريدون ان يتخذوا منها سبيلًا لاعادة شرفهم العسكري . ولكن العالم يعرف ويقدر .

اما عدد ضحايا الوحشية الفرنسية في دمشق وباقي المدن السورية فقد زاد عن الخمسمائة قتيل ، والوف الجرحى ، والمصابين ، والمنكوبين . ولو لم ترسل السلطة البريطانية انذارها الى الفرنسيين في عشية ٣١ ايار لتمادى اولئك في وحشيتهم ،ولتركوا البلاد السورية كلها خراباً يبابا .

ولكن ، بعد ان عاد الهدوء بفضل التدابير البريطانية ، اخذ

الفرنسيون يشيعون انهم توقفوا عن القتال بناء على اوامر ده غول نفسه . وطلع ده غول بتصريحاته ، يبرر اعمال رجاله ويلقي اللوم على سياسة بريطانيا وجواسيسها ، ويردد نفحة الحقوق والمصالح التقليدية ، الى غير ذلك من الادعاءات الفارغة . كذب مقرون بوقاحة استقبلها العالم كله باستنكار واحتقار .

ومما يدل على نية الفرنسيين وتعمدهم الشر الكتاب الذي سقط في يد وزير خارجية سوريا . وهو موجه من مندوب فرنسا في الشام الجنرال « روجيه » وهو بطل العدوان الفرنسي ، يحرض فيه رجاله على الاستعداد والقتل والتدمير محافظة على مهابة بلاده وحقوقها . وقد كان لذلك المجرم « روجيه » حصة الاسد في تهديد المؤامرة الشائنة . ولو لم تأخذه السلطة البريطانية تحت حمايتها بعد الحوادث وتسفّره الى بلاده ، لحاسبه السوريون على وحشيته . غير ان هذا الرجل السافل ما ان وصل الى عاصمة بلاده حتى اخذ يذيع ما يبرر اعماله . وكانت حكومته تحتج على تدخل البريطانيين. نعم تحتج اذ رأت ان تدخل الانكليز افسد عليهم خطتهم في تدمير مدن سوريا، وقلب النظام الاستقلالي في سوريا وفي لبنان .

انه يصعب على كاتب ان يصف الايام الثلاثة من ٢٩ الى ٣١ ايار . واذا توقفنا عند هذا الحد فلكي لا يتهمنا احد بالتغرض ، ولنحيل القارىء الى ما كتبه المراسلون الاجانب وممثلو الدول الحليفة . ان في ذلك تبياناً للحقيقة المروعة ومجالا للمؤرخين .

الردة في لبنان

لقد كان من الطبيعي ان يغضب لبنان لهذا العدوان الفرنسي على شقيقته سوريا . فقامت في العاصمة وبقية المدن اللبنانية مظاهرات صاخبة . وعم الاضراب . ورفعت الاحتجاجات على تصرف الفرنسيين الشاذ الذي قصدوا به التعدي على استقلال البلدين ، والذي ظهرت وحشيته في المدن السورية ، وكادت تظهر في لبنان ايضاً ، لولا تدخل السلطات البريطانية بالامر وانذارها الفرنسيين بوقف اعمالهم البربرية ، ولولا استنكار الحكومات الاميركية والسوفياتية . وبالرغم من الهدوء النسبي في لبنان فقد قام اولو الشأن باتخاذ التدابير السريعة مع زملائهم السوريين لتسلم جميع المصالح التي كانت باقية بيد الفرنسيين . فكانت المخابرات تدور بينهم وبين السلطة الانكليزية التي قبضت على الامن العام . واسفرت عن ابعاد الموظفين الفرنسيين كافة من دوائر الدولتين . وانتزعوا من اولئك مصلحة « الميرة » التي كانت تشترك بالهيمنة عليها السلطة الفرنسية واساءت استعمالها اساءة مادية واساءة معنوية ، وطلبوا جلاء الجيوش الفرنسية وقطع كل صلة للسلطان الفرنسي في البلاد . وقد كانت حماسة الشعب كبيرة . فتقدم الوف منه للتطوع في الجيش الوطني عندما دعت الحكومة للتطوع . ورأينا النقد والسخط يتجلى على الفرنسيين ورجالهم المسؤولين الذين ظلوا يوالون

تصريحاتهم وادعاءاتهم بالحقوق والمصالح والتقاليد والصداقة . موجة من الكراهية كانت كامنة فابرزتها اعمال واجراءات رجال فرنسا الذين طوح بهم الغرور ، فظنوا ان بوسعهم التنكيل بشعب آمن اعزل من السلاح الا سلاح الحق ، غير آبهين للمبادىء التي حاربت من اجلها الدول الديموقراطية ، ومتجاهلين وجود الجامعة العربية ، التي هالها ما وصلت اليه حالة لبنان وسوريا ، فعقدت اجتماعاً خاصاً اتخذت فيه مقررات هامة ، من شأنها نصرة هذين العضوين الحبيبين بكل ما يخولها اياه ميثاق الجامعة الذي لم يجف حبره بعد . وقد كان لموقف الجامعة اثره الفعال في المحافل الدولية . ولما كان مؤتمر سان فرنسيسكو منعقداً في اثناء الازمة قام وفدا لبنان وسوريا بابلاغ الامم المتحدة موقف بلديهما،وساندتهم جميع الوفود العربية، فلقوا في المؤتمر موجة استنكار واستياء من عمل فرنسا الاستعماري. وكانت اذاعات العالم كلها تذيع تفاصيل الازمة، كما كانت الصحف تخصص صفحاتها الاولى لمعالجتها ونقد اعمال المعتدين .

وبينما كانت الحكومتان اللبنانية والسورية تطالب بابعاد الفرنسيين ، وتتسلم منهم المصالح التي كانوا محتفظين بها ، كانت التأكيدات تتوالى على الحكومتين من الحكومة البريطانية انها مستعدة هي ايضاً لسحب جيوشها من لبنان وسوريا عقب انتهاء الحرب، واستتباب الامن الذي اصبحت مسؤوليته على الحكومتين. فبرهنت بذلك مرة اخرى انها لا تنوي زحزحة الفرنسيين لتحتل هي مكانهم . وكانت تعهداتها المتتالية تصادف الرضا والطمأنينة عند اللبنانيين والسوريين ، الذين اظهروا في شتى المناسبات انهم لا

يقبلون باي تدخل اجنبي من اية جهة كانت .

— ١٢ —

تسليم الجيش

ظلت الازمة بين لبنان وسوريا من جهة وفرنسا من جهة ثانية على شدتها . وكانت قطيعة تامة بين الطرفين. وقد تخللت هذه الفترة حوادث دامية ، تارة في حلب ، وتارة في اللاذقية ، وفي تل كلخ ، وفي المناطق المنفردة . وكانت في هذه الاثناء مسألة سوريا ولبنان موضوعاً لتعليقات الصحف الاجنبية والوطنية واهتمام كل الاوساط الدولية . غير ان الحكومتين اللبنانية والسورية بقيتا في تشبثهما على ان لا مفاوضة قبل جلاء الجيوش الفرنسية وتسليم الجيوش الخاصة وابعاد كل نفوذ فرنسي . وكان الشعبان اللبناني والسوري يظهران تأييدهما المطلق لموقف حكومتيهما . وكانت قرارات الجامعة العربية قاطعة حاسمة في نصرتها للدولتين .

وقد توالت اجتماعات رجال الحكومتين . ولم تتغير وجهة نظرهما ، كما انه لم يبد اي اختلاف بينهما . وفي اجتماع عقد في الاسبوع الاول من تموز وضعتا مذكرتين بنص واحد لتسليمهما للحكومة الفرنسية ، تطلبان فيها جلاء الجيوش الفرنسية وتسليم جميع المصالح العسكرية والاقتصادية ، محددتين الاجل الذي تنتهي فيه مدة الانتظار ، حتى اذا تخلف الجانب الفرنسي عن اجابة المطالب عاد الامر الى مقررات الجامعة العربية . هذه المقررات التي بقي

قسم منها سرياً . غير انه كان مفهوماً ان تلك المقررات كانت على جانب عظيم من الخطورة ، اذ تقضي باتخاذ تدابير عدائية من قبل الدول العربية تجاه فرنسا . ولكن ما ان عرف الجانب الفرنسي بهاتين المذكرتين حتى هاله امرهما . فقام الكونت استوروغ ، السكرتير العام للمندوبية الفرنسية ، وكان قد عاد من باريس ، فتقدم بمقترحات فرنسية جديدة . غير ان الحكومتين رفضتا كل مخابرة رسمية ، مكتفيتين بمحادثات شفهية خاصة كانت تجري خارج الدوائر الرسمية . واذ عرف الجانب الفرنسي بهذه القطيعة بادر من تلقاء نفسه الى اصدار بيان رسمي اعلن فيه انتقال الجيوش الخاصة بجميع معداتها الى حكومتي سوريا ولبنان . وكان ذلك بتاريخ ٨ تموز سنة ١٩٤٥ .

لقد قصد الجانب الفرنسي بذلك ان يدلل على حسن نيته لعله يفتح من جديد باب المفاوضة . ولكن الحكومتين الوطنيتين لم تؤخذا بهذه اللعبة ، اذ ان قطعات هذه الجيوش كانت تنتقل من نفسها ، حتى انه عندما ظهرت هذه البادرة من الفرنسيين كان اكثر من نصف هذه القطعات قد ترك مختاراً الجانب الفرنسي . ولهذا اعتبرت الحكومتان ان تنازل فرنسا عن هذه الجيوش وتسليمها لاهلها لا يشكلان ظاهرة كافية للمفاوضة . واصرتا على جلاء الجيوش الفرنسية كلها وتسليم المصالح كافة والتراجع عن اي مطلب او امتياز لفرنسا في لبنان وسوريا .

وكان هذا بدء عهد جديد خضعت فيه فرنسا للامر الواقع .

فبدأت في تسليم الصلاحيات . وكان اولها الجيش اللبناني السوري . فانتقل هذا الى اصحابه الشرعيين . وقد جاء تسلم الجيش فوزاً مبيناً استقبلته البلاد بالغبطة والارتياح . واستقبل الشعبان اللبناني والسوري ابناءهما البررة بالحفاوة ، كيف لا والجيش الوطني هو سياج الاستقلال وسيفه القاطع ؟

— ١٣ —

الجلاء . الجلاء .

بقي الاخذ والرد بين اللبنانيين والسوريين من جهة والفرنسيين من جهة ثانية حول مسألة جلاء الجيوش الفرنسية . وبقي الفرنسيون متشبثين بنظريات مختلفة ، ولكنها واهية ، لابقاء جيوشهم في البلدين . وكانت الحكومة الفرنسية ، وعلى رأسها الجنرال دوغول ، تفرط بالتصريحات عن مهمتها الثقافية والتمدينية في الشرق . والجنرال دوغول ، الرجل الاستعماري ، لا يستطيع ان يفهم كيف ان ما يسميه المشرق ، سيتحرر من قبضة فرنسا ، وكانت قضية الجلاء اهم ما يشغل بال لبنان وشقيقته سوريا ، اذ ادركت الدولتان ان لا راحة لهما ما دام هناك جيش فرنسي يهدد استقلالهما في كل حين . وفي هذه الاثناء كانت السياسة البريطانية تحاول المماطلة بالامر الى ان تصل الى تسوية ترضي هذا الفريق وذاك ، ويكون لها من وراء ذلك ما ترغب . ومما يؤسف له ان الادارة الداخلية كانت على كثير من الفوضى والبلبلة . وكانت الحكومات تذهب وتجيء ،

دون ان تتمكن من وضع حد للخلل المستحكم . خلل ورثناه من العهد السابق ، وبقينا محتفظين به في هذا العهد . وكيف لا يكون ذلك ، واكثر رجال اليوم هم انفسهم رجال الامس . كل ما يعرفون من الحكم توظيف زيد وترقية عمرو ، وارضاء هذا الرئيس واسترضاء ذاك المتزعم ، ثم اشباع شهوات النفعيين والمستثمرين . ولولا يقظة الوعي القومي ، لخابت آمال الوطنيين المخلصين . لله در هذا الشعب الناشىء ، الذي ما خرج يوماً عن ايمانه بحقه ، بالرغم مما كان يراه من استهتار قادته وحكامه .

وقبل ان ينتهي عام ١٩٤٥ طلع علينا الاتفاق البريطاني الفرنسي الذي طبخه رجال الدولتين في لندن ، بمعزل عن لبنان وسوريا : هذا الاتفاق الذي جاء معاهدة بين الدولتين الفرنسية والانكليزية تضمنان بواسطته مصالحهما وراء ملابسات سياسية فيها كثير من التحدي لسيادتنا واستقلالنا . ولكن هذا الاتفاق الذي هللت له الحكومتان اعتباطاً في بادىء الامر ، احدث هزة عنيفة في الاوساط الوطنية . فتوالت الاحتجاجات ، وتنادى الناس للاضراب ، وعمّ الاستنكار ، مما اثار يقظة الحكومتين ، فبادرتا الى الاستفسار ، ثم الى الاحتجاج . وما ان عقدت منظمة الامم المتحدة اجتماعها الثاني في لندن حتى قام الوفدان اللبناني والسوري بعرض الامر على مجلسها . وكان في ذلك الاثناء ان انقلبت الحكومة الفرنسية ، واعتزل الجنرال دهغول رئاسة الحكومة ، وتسلمت الحكم احزاب الشمال . واحزاب الشمال اقرب الى تفهم القضية اللبنانية السورية ، واكثر ادراكاً للتطور العالمي الجديد . توفيق

جديد من توفيقات لبنان وسوريا يتغلبان بواسطته على ما يعترضهما من المصاعب .

* * *

وفي الوقت الذي نسلم فيه هذا الكتاب للطبع تردنا التأكيدات ان الجيوش الاجنبية لن تلبث ان تغادرنا في وقت قريب، ويتوالى تسلم بقيـة المصالح التي احتفظ بها الفرنسيون طوال مـدة الانتداب واساؤوا استعمالها، فكانت اساءتهم سبباً لنفور الوطنيين وحرمانهم من ولاء الذين كان عليهم ان يبادلوهم ولاء بولاء ، واخلاصاً باخلاص . ولكن للاقدار احكاماً مكتوبة تفشل امامهـا مشوهات الحقيقة ومحاولات الفساد .

انزى

طبع في مطبعة دار الفنون * بيروت

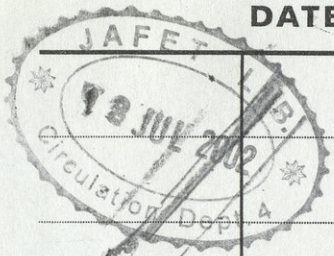
JAFFET LIB.
12 JUL 2002
Circulation Dept. 4

DATE DUE

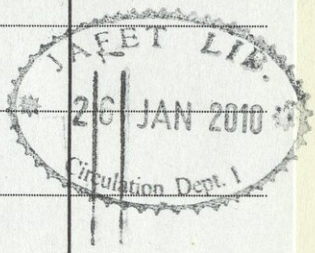
JAFFET LIB.
26 JAN 2010
Circulation Dept. 1

JAFFET LIB.
01 FEB 2003
Circulation Dept. 1

Circulation Dept.3

A.U.B. LIBRARY
956.9:H24mA:c.1
حنا، جورج
من الاحتلال... الى الاستقلال
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01059782

956.9
H243mA
1946
c.1